محمد الماغوط



الأرجوحة

مسرحية

الأرجوحة

محمد الماغوط

الأرجوحة

مسرح

اسـم المـؤلـف : محمد الماغوط
عنوان الكتـاب : الأرجوحة
النـاشـــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٧
الحقوق محفوظة

Author : Muhammed Al-Magute
Title : The Swing
Al- Mada P.C.
First Edition : 2007
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الفصل الأول

أيها الاسم الصغير كتابوت طفل!

يا من لصقتك على الجدران وثياب المسافرين، ورافقتك على دراجتي حتى النافذة الأخيرة من الوطن، دون رياح أو أزهار، مخلفاً أسلابي على الورق المقوى، تاركاً مبارزيك يلهثون حتى الشيخوخة بين شمس الأصيل وحديد المزلاج.

أيها الاسم المغدور، والراقد على حرفه الأول كالغزالة! يا بلسم الخراب ودم الطفلة المنتقاة بالأصابع! اذهب بعيداً بعيداً كالجناح المكسور، ملثماً أو حاسر الرأس، فالخوذ الفضفاضة ملأى بالأحلام وقمل الأوسمة.

لأجلك أحني عنقي كالخيط أمام إبر المنفى، وثيابك الممزقة في قاع الكمين. بك أرتفع وبك أهوي كرجل على حبال الأرجوحة. ولذلك ما قد تراه في القمة قد أراه في الحضيض. وما أراه في الحضيض قد تراه في القمة. هكذا أريدك أميراً عارياً ومذعوراً تحت ثلج الحرية ونار الاستقلال. مجتازاً جبال الألم، مكباً على وجهك كالطفل أمام الطابة الهاربة.

امرأة من الشمال، أو امرأة من الجنوب.

تسكع في بشمزين، ولهاث في باريس.

نواح في هذه النافذة، وزغاريد في تلك.

جنازات مسرعة تحت المطر، وجنازات تنفجر بأزهارها عبر الصحراء، ولكن أين المحطة الأخيرة؟ أين الشجرة التي يقعي المسافر تحت ظلالها مع حقائبه وغلة سيوفه؟

لاشيء. إننا ذئاب وحيدة وشاردة، وستظل أسناننا تؤلم من أحببناهم بصمت واخلاص على مفارق الطرق وتحت شموع المقاهي حتى تنزف القطرة الأخيرة من دمائهم على طرف الحذاء. وعند ذلك، نطالبهم بازالة تلك البقع بالدموع ومناديل الذكرى.

ولكن يا يمامتي الصغيرة عودي.

ولكن متى يعود المسافرون الصغار؟ ومن أين تطلق صيحات العودة وتلقى سلاسل الإنقاذ؟

* * *

خلف «الكازار»، ذلك المناخ الالهي لضم الركب الصغيرة وعصر المناديل بالراحتين، ذلك الذيل المصقول كرأس الحربة لنكء الجراح. كان النهر الأزرق الجميل يندفع كالعقرب الى الأمام بعد ان لدغ كل حقول الأرض في طريقه مشكلاً مع السحب الغاربة وحظوظ الفلاحين التعساء الشعرة الأخيرة من ذلك الذيل المترامي كقوس النصر، كانساً الماء بيديه، بعيداً بعيداً عن عنق اليمامة المحاصرة، والزهرة التي تطوقها عشرة جيوش لقطفها وشمها حتى تدمع العينان.

كانا يحبان المطر والخريف. وهناك على الشرفة الجافة، كتب رسالة إلى الله، ولصق بها بدل الطابع ورقة خريف، وهوى على مقعده.

* * *

لقد أدرك بعد فوات الأوان ان صراخه من الدور الرابع «عودي يا

حبيبتي الصغيرة » في ذلك الصباح العاصف الكئيب ضرب من الجنون. وقد رآها تسير متمهلة على الرصيف المقابل، وحقيبتها مضمومة كالطفل الميت الى صدرها، منكسة رأسها الجميل كأنها تريد أن تقول للعالم أجمع : انظروا كم أنا حزينة أو كم هو عنقي جميل عندما يتقوس كعنق الزهرة أمام الريح !

وظل وجهه المكسو بالشعر ملتصقاً أطول فترة ممكنة بزجاج النافذة، يتأمل آخر ذرة من حبيبته في الزحام. ولم يصدق أبداً أنها ذهبت الى الأبد لا لشيء إلا لأنه لا يستطيع ان يضع لها اخلاصه على الطاولة كعلبة التبغ، ويقول لها : هذا هو اخلاصي. ضعيه في حقيبتك الصغيرة مع أوراق الزكام يا ملاكي. أو بالأحرى لأنه لا يستطيع أن يغرس مقوداً في طاولته ويقول لها : هيا.. دعي مشطك الآن، وأسرعي الى جانبي يا حبيبتي لنغزو العالم. وبعد ذلك تعودين الى تسريح شعرك الجميل.

ان فكرة رحيلها الى الأبد لا تحتمل الا اذا ضُرب الرأس على حافة السرير حتى يتناثر كالزجاج. انها حياته، وفكرة مطاردتها في الشارع مستحيلة، فهو من أجلها يقبع منذ أربعين يوماً داخل تسعة جدران. ومن أجلها يبحث عنه نصف مليون شرطي في الليل والنهار.

ومن أجلها تمتلئ عيناه بالدموع كلما أمطرت السماء أو رأى ذراعين متشابكتين تحت نور المصابيح.

إنها وطنه الصغير الضال.

من أجلها يحكّ ظهره عبر الطاولة،و يكشط الوسخ المتجمع على جلده كالعجين.

إن ظهره يبكي في كثير من الأحيان حتى ليخيل اليه أن آلاف العيون الزرق تنتحب وتبكي تحت جلده الملطخ بالحبر.. يبكي حتى عندما يكون

في أروع ساعات المرح والعناق.. عندما يضمها بين ذراعيه، ويلويها على الأريكة العتيقة كالغصن الطويل العاري.

ومع ذلك لم تقتنع أبداً انه يحبها، وان حياته من دونها لا تساوي علبة ثقاب.

اسمها صغير كالفراشة، قاتل كرأس أغبر.. «غيمة» يا نحلة الشؤم يا عسل المقابر!

لكِ نسغ العظام وقشدة السفر، ولكنْ عودي يا يمامتي.

***

لقد كان قروياً حزيناً لا تزال رائحة العنب والتلال الجرداء متخمرة في شعره، يشق طريقه كالمحراث الصغير بين النساء ويخلفهن وراء سريره كالأثلام، في كل المدن والأقبية والمكاتب التي عاش فيها كصحفي وكمتشرد. كان يعتقد ان الحب هو ذلك الارتجاف الذليل الخاطف في عروق الظهر، تلك النار المندفعة كماء الجداول حول الرئتين وأمام مصب القلب، حيث ينتهي كل شيء بمجرد تعقيم اليدين وترتيب الشعر أمام المرآة.

إلى أن جاءت «غيمة»، وأحكمت اللجام الحريري بين القواطع، وحكت بأظافرها الجميلة الصافية قشرة التابوت وبريق المرآة، وأغلقت كل الشوارع، ولملمت كل أوراق الخريف ووضعتها في أنبوب المدخنة للذكرى. أو بالأحرى عندما جاءت لتقلب كل شيء رأساً على عقب، وتجعل الكتب والثياب والأوراق وكل ما تزدحم به غرفته الصغيرة أشبه بأسلاب حرب لا يعرف الى من تؤول في النهاية.

ولكنه يرددها كالكروان مئات المرات في اليوم: ان حياته من دونها لا تساوي أكثر من علبة ثقاب.

اتكأ بمرفقيه الهزيلين على الطاولة، ودم الأسى يكاد يطفر من فمه وزوايا عينيه.. دم الطفولة والشرايين الغابرة. كان كل شيء حسناً عندما جاءته هذا الصباح نحيلة وشفافة حتى لتخالها ثوباً ورديا فقط، أرسلتها الريح الى ذراعيه من دون مقابل أو تعويض. سألته عن مرضه (كان مريضاً باستمرار) وعما اذا كانت صفارات الانذار ونواح الأشجار المبللة لا تزال تثير رعبه. ثم قدمت له الصحف والتبغ وقطعة اللبان،ودخلت الى دورة المياه وهي توبخه لأن أوساخ المطبخ مازالت في مكانها، دون أن تترك له مجالاً ليبرر ويجيب.. وعندما عادت وهي تجفف يديها الصغيرتين البيضاوين بأحد قمصانه، حاول تقبيلها على فمها، ولكنها دفعته باسمة في صد، وجلست بجواره تئن كأنها خارجة من المستشفى: آه.. دعني أرجوك.

ـ لماذا ؟

ـ انني متعبة.. وعلى عجل أيضاً. هل عندك بعض الطعام ؟

ـ نعم.. أوه.. يا حبيبتي.. اذن أنت جائعة ؟

ونهض، وأحضر ما تبقى من عشاء البارحة في صحاف من الألمنيوم العتيق، ووضعها أمامها على الطاولة المكسوة بالأقلام وأوراق الصحف. وبينما كانت تمضغ لقمتها الثانية وجدته ساهماً لا يأكل معها، فسألته وهي تمسح فمها بقطعة الخبز: لماذا لا تأكل ؟

ـ انني حزين. سأموت حتماً في هذين اليومين.

ـ بل ستعيش أكثر من برناردشو.

ـ أتمنى ذلك حتى أرعاك في شيخوختك يا ملاكي.

ـ حبيبي.. هل تشتري لي قيثارة ؟

فأجابها مندهشاً : قيثارة ؟!

ـ نعم قيثارة. ألم تسمع بشيء اسمه قيثارة قبل الآن؟

فأجابها ضاحكاً : بلى بلى يا حبيبتي ولكن... سأحصي أوتارها كل يوم. واذا ما جاء صاحب البيت ليطالبني بالايجار سأقضي عليه...سأعزف له بنفسي.

وعندما رفع رأسه عن الصحف ورأى عينيها تتألقان كنقطتي الحبر، أدرك انه أثارها وجرحها، فارتبك، وشعر أنه أتعس انسان في العالم لأنه لا يستطيع استرداد تلك الضحكة العابرة الى الأبد. وعندما حاول أن يعيد الى وجهه ملامحه الأولى فشل وظل ينظر اليها متلعثماً وشفته مزمومة ومرفوعة فوق حد الأسنان كأنه أصيب بالبله.

ـ نعم يا حبيبتي.. سأشتري لك تلك القيثارة.

ـ متى ؟

ـ لا أظنك تريدينها الآن وفي هذه الظروف. أنت تعرفين ان ما أملك من نقود لا يكفي لشراء طنبور عتيق.

ـ ولكني بحاجة ماسة اليها.

ـ حبيبتي.. هذه ساعتي وكتبي. لا بد من أنه يوجد أحد في العالم يهمه مثل هذه الأشياء.

ـ ولكن ثمنها لا يكفي.

ـ سأعطيك أقصى ما يمكنني الاستغناء عنه من ثمن الطعام والصحف، ولكنك ستعزفين لي باستمرار يا حبيبتي. ستعزفين لي تلك القطعة التي بكينا عند سماعها في احدى ليالي الصيف. أتذكرين ؟

ـ ناولني قطعة أخرى من الخبز. هذا البيض مالح بشكل لا يحتمل.

ـ سأضع دفتري بين نهديك وأكتب حتى تصل الكلمات إلى ذروة جنونها.

ـ هذا البيض مالح أكثر مما يجب.

ـ سأحضر لك مزيداً من الماء. دائماً أنسى بعض الأشياء.

ونهض الى المطبخ، وتناول قدحاً أو بالأحرى القدح الوحيد الذي تبقى بعد أن حطم الأقداح جميعاً في نوبات الغضب المتتالية، ثم غسله من آثار القهوة الراسبة وملأه من الصنبور وهو يبتسم ساخراً من سذاجتها فشراء القيثارة ليس سوى وسيلة لاختبار حبه لها. وعاد الى الغرفة، فلم يجدها. نظر الى الطاولة ملهوفاً حيث تضع حقيبتها عادة، فلم يجدها. كانت ملعقتها مقلوبة وسط طبقها، وباب الغرفة مفتوحاً نحو الريح.

ضرب قدح الماء كالطابة في الأرض، وأسرع يعدو على الدرج بمنامته وشعره المشعث كالمجنون. ثم عاد مسرعاً إلى النافذة، فرآها تسير ببطء على الرصيف المقابل، تضم حقيبتها كطفل ميت على صدرها، وكأنها تقول للعالم أجمع كم هي حزينة وكم هو عنقها جميل وهو مقوس كعنق الزهرة أمام الريح.

***

لماذا يا ربيبة الأرصفة، يا رفيقة الرياح ؟!

اذهبي بعيداً حيث الرصاصة قرب الجناح المجاور.

سأبتاع لك تلك القيثارة، ولكني لن أصغي الى الرنين المباح وذلك البكاء الرائع المنفي. سأضع سبابتي على صدغي، وأصغي الى خطوة الهرة الجائعة وهي تلوح بعنانها دون سوط أو صحراء.

وضع جبينه على حافة النافذة، وأخذ يفكر.

من المستحيل أن يبقى هكذا ولو جندلوه على مسافة مترين من القلب. انه كالخلد الذي صب الماء في وكره، وعليه ان يقوم بعمل ما. حسناً. أسرع بارتداء ثيابه السود التي طالما رافقته في نكباته، وأتم تزريرها في نهاية الدرج.

صفعه ضوء الشتاء بقوة جعلت أهدابه ترفّ كالأجنحة الموشكة على الطيران، واندفع كالسهم في الشوارع باتجاه لاشيء. كان شعر نقرته طويلاً كشعر المرأة، فرفع ياقته حتى لا يلفت النظر، واخترق الشارع العام دون أن يلتفت أحد.

شقّ طريقه بصعوبة خلال الجماهير المتراصة كالفاكهة داخل الصناديق، وهي تهتف متثائبة وملتاعة تحت مطر أيار الحزين. كان ثمة أناس يصرخون بقلوب مجروحة، في سبيل الحرية.. في سبيل الأشياء التي أحسوا فجأة وهم يسرحون شعورهم ويزررون معاطفهم بأنهم فقدوها إلى الأبد، وان استعادتها أكثر صعوبة من استعادة زفير الأنف اللاهث. وكانت مكبرات الصوت تحثهم على الصمت.. على تقنين الصراخ والسير بهدوء على الأرصفة بينما أخذ بعض الصبية المراهقين والفتيات القميئات العوانس، يربضون كالدجاج عند مفارق الطرق، وأصابعهم المحمرة على قبضات الاعلام توحي بأن زمام الأمور قد ضاع، وأن ضوء الربيع البعيد ينطفئ رويداً، وأن عث الحرية المهملة يزحف رويداً رويداً على العصافير والمدافع واخضرار الكلمات النابتة كالعشب على سلاسل الدبابات.

لم ير وجهاً واحداً يعرفه. مجرد دوائر من الدموع وأقراط من المطر والشعر وحبوب الصيدليات والعذاب واللحم، تحاول أن تلحس بألسنتها المرتجفة ولو قطرة واحدة من حلوى المروءة ومذاق الشرف. وان كان يعتقد

في قرارة نفسه ان الهياج يفقد أكثر الوجوه الفة ونعومة طابعها نهائياً ، ويجعلها مجرد رقعة من التبغ والرذاذ ، مجرد شفتين قاسيتين لا تتورعان عن اصدار الأوامر بنسف نصف جماهير الشارع من أجل نسمة أو نهد أو قبعة بلون معاصر أو من أجل لاشيء.

ان جماهير المستقبل الحزينة.. جماهير الذكريات والماضي الملقى كعربة هرمة خلف الجدران. اليها يتوجه خاشعاً ومكفراً ، ولها يزمّ شفتيه ككيس النقود وينفجر.

***

كان الشيء الوحيد الذي يحميه من الأنظار هو ياقته، وهو جاد في البحث عن حبيبته، وأراد في كثير من لحظات التعب واليأس ان يسأل أي شرطي أو بائع متجول في الطريق اذا كان قد رآها ، في الوقت الذي كان يرتعد هلعاً اذا ما مرّ قطّ في الشارع. وفجأة وجد نفسه يترنح ويتمايل وسط تظاهرة كبرى نبتت فجأة كزهرة في الصحراء. كانت أصواتهم ورائحة جلودهم المتسخة بالعرق وشحم السياط لا تحتمل. ولم يجد نفسه الا وهو يفتح فمه ويغلقه كأنه موشك على الاختناق. ومدّ يديه كالأعمى الى الأمام لينجو بنفسه عندما همس في اذنه صوت : ماذا تفعل هنا أيها المغفل ؟ ماذا تفعل ؟

وجمد في مكانه. اذن لقد كشف أمره. سيقع على الأرض لا محالة. انهم يدفعونه الى الشاحنة. إنه تحت الأضواء.. رهينة الليل والخواتم المتلألئة بالدم.

ـ قلت ماذا تفعل هنا أيها المغفل ؟

وعندما رفع رأسه وعرف صاحب الصوت كاد يبكي من الفرح :

ـ لا ترفع صوتك. أرجوك. ستنبههم إليّ.

ـ ما الذي أتى بك الى هنا ؟
ـ أبحث عن غيمة.
ـ اللعنة عليك وعليها ! وهل هذا وقت غرام كما ترى ؟ لا تلتفت إليّ. الأرض مزروعة زرعاً بمن تعرفهم جيداً.
ـ نهضت لأجلب لها الماء فهجرتني.
ـ قلت لك لا تنظر إلي عندما تتكلم. يا الهي.. هل طلعت لي باليانصيب ؟
ـ نعم نعم يجب ألا أنظر اليك،ولكني مستعد لأن أدفع نصف حياتي مقابل أن أراها.
ـ وهم يدفعون نصف مليون لمن يأتي بك حياً أو ميتاً أو محتضراً.
ـ ولكنك تعرف ظروفي.
ـ لا.. لا أعرف شيئاً.كل ما أعرفه هو ما ان يرى أحدكم قطعة حبل صغيرة بين يديه حتى يبدأ بالقفز يميناً وشمالاً حتى يحطم جمجمته، ويضع يده على ضماده ويبدأ بالأنين والتأوه. هيا اغرب عن وجهي. لن أشفق عليك حتى ولو رأيتك تلتهم التراب من الجوع.

تذكر أمه، تلك المجدلية الهائمة والمرفوضة عبر الحقول الصفراء، عبر دخان الزبل والنيران الخابية في ليالي الشتاء.

كن كما يريدون يا بني.

إنها تغني للوطن على لهب المواقد، تتعرف الى الأمجاد العظيمة من خلال السيوف وصور الغزاة والفاتحين من خلال الأوراق المستعملة في صرّ الفلفل والأصباغ. تدرك سحر ونبل الاحتراق وحبوب النعناع وسعال العساكر المتقاعدين أمام الحوانيت.

كن كما يريدون يا بني.
انحن.
إنك كالخيزران، ستنتصب ذات يوم.
وامتلأت عيناه بالدموع.. دموع من المستحيل ان يلحظها رجل يحمل هراوة بيده أو ان يحس بحرارتها وخزيها وهي تتدحرج بين أهدابه الا أولئك الذين هجروا مراراً ودفعوا دفعاً عن صدور عشيقاتهم في لحظات العناق الأخيرة.

وهذه الأثقال يا أمي، وهذه السلاسل التي تتأرجح كالجدائل على كتفي. اللزوجة الصاعقة، والأنغام المسلوبة. لا يا أمي لا الركبة المنثنية ولا الغناء قرب الموقد يستطيعان أن يساويا بين الحجر والعصفور.

نعم سيبحث عنها. ولكن أين ؟

انها حتماً لم تعمل راقصة في ملهى، ولم تصبح مدرسة. لابد من انها تسير في مكان ما في هذه اللحظة، تسير أو تجلس أو تتثاءب، ترى الغيوم نفسها وتسمع الصرخات ذاتها. هل يحدد اتجاهها بوساطة الشمس؟ ولكن أين هي ؟ إنها في جهنم.

وعاد الى غرفته.

ريثما تعود أو لا تعود، عليه أن يحرق أزهار البنفسج باللفائف، أن يستلقي على سريره كجندي في خندق.

* * *

كان فهد التنبل أديباً مغموراً كالجذور في الربيع. ومن المستحيل أن يشع ويتألق في ذلك الفصل الضبابي العابر والمجرى الذي اتخذه لنفسه أكثر حساسية وانحداراً من لسان ممدود خارج الفم، فكان أكثر ما يرعبه

ويقض مضجعه أن يأتي اليوم الذي يضطر فيه الى ان يلعق آخر قطرات الشهرة وهو جاث على بطنه كالجمل.

ولذلك عاش طوال حياته شريفاً متوهجاً داخل مجراه. يكتنز كالسنبلة بالشعر والكلمات البدائية، محاذراً أقصى ما يستطيع أن يجعل عنقه عالياً أو منخفضاً عن حدّ المنجل القاطع خوفاً من أن تتحول كلماته الى نوع من الدقيق البشري لأنه يعتقد بأن الأدب المطبوع أو الأدب الذي يمر بين حروف المطابع وبصمات الحمالين يفقد حنانه وطهارته كالغصن الذي يسحب من وكر ضيق.

ولذلك كان يحتفظ بكلماته في رأسه تحت جلدة الذقن وفي ينابيع الحنجرة لانها الشيء الوحيد الذي يروي من الداخل، فالفن بشكل عام هو نتيجة تجارب سافلة خارج الجلد.. عصارة رؤوس طأطأت كثيراً بمحض ارادتها. كلمات لا يهم أبداً كيف وأين كتبت وانما المهم هو أين تختبئ وتلهث وتراوغ، وفي أي الرغبات العصية يجب أن تهزه كالأغصان، أن تجفف من حبرها كما يجفف الطفل من دم أمه ساعة ولادته. أما الصراخ ونمو الأطراف فهما محتاجان الى دم الأم والمرضعة قبل كل شيء. وكانت «غيمة» أمه ومرضعته وحبه ومرضه.

ولذلك كان من المستحيل على الفنان الحر أن ينمو، ان يشق طريقه في هذه الحياة الى الوراء، والشيء الوحيد الذي لا يمكن ان يقوم به بعد ذلك هو الانتماء أو الدخول الى مستشفى المجانين، ولذلك كان فهد في حالة يرثى لها وهو يعود مسرعاً الى غرفته بانتظار حبيبته التي هجرته أثناء تناول الطعام لأنها الشيء الوحيد الذي يلمس، والذي يحتاج نموه الى الحد الأدنى من الضغينة والارهاب. أما الكلمات والجوارير الملأى بالمغلفات

وقصاصات الورق فهي التي تبتلع كل شيء : الحرية والعبودية، الربيع والخريف، النوم والسهاد، لتقدم لك في النهاية ذلك المذاق الخادع المهين الذي لم يذق منه الا ذلك الرجل الذي يجد أن الفستقة الأخيرة التي يمضغها هي فاسدة، وأنها ليست عن طريق المصادفة كانت الفستقة الأخيرة وليست الأولى.

«غيمة» هي الشيء الوحيد الذي يلمس ويهتز ويهجر.. الشيء الوحيد الذي لا ينضب وسيظل يتدفق وينزف من دون أن تفقد معها ذلك الطعم العسلي المنتشر كالبرص فوق الشفة الناضجة وعظم اللثتين.

ان صراخ كل أدباء العالم ومفكريه عن الحزن والشهوة والعذاب الطويل لن يهزك أكثر مما تهزك أغنية حزينة تؤديها بغي وحيدة في الشارع. ريثما تعود عليه ان يفكر طويلاً ويحقد في تلك الأيام الصعبة التي اجتازها حافياً.

ريثما تعود، عليه ان يضرب رأسه بالجدران.

***

زفر زفرة طويلة، ونهض الى المطبخ.

كان جائعاً بالفعل لانه لم يذق طعاماً منذ مساء أمس. حضّر الشاي والزيت المالح. وكان مطبخه صغيراً كمعلف الفرس، مزدحماً بأكياس الورق الصفراء والصحاف القذرة، والماء يقطر بكآبة من فوهة الصنبور حيث كانت تقف غيمة دائماً تغسل له صحافه وملاعقه عند الظهيرة القاتلة. لبث فترة طويلة وهو يمضغ لقمة من البيض، ينقلها بطرف لسانه من مكان إلى مكان دون أن تكون عنده أية رغبة في ابتلاعها، فجوفه يلفظ أي شيء كفوهة البركان اذا لم تكن «غيمة» وراءه أو أمامه أو أي مكان آخر من الغرفة لينشق رائحتها كالأعمى.

جفف يديه وفمه، واستلقى على بطنه فوق الفراش وهو يزفر من أنفه هواءً ساخناً كالنار. لم تكن عنده رغبة في ازاحة الستار والنظر الى الشوارع حيث كانت الجماهير تتبعثر كالنحل فوق الأغصان الحجرية الغافية وقطرات الماء الكبيرة تلمع على رؤوس الأشجار التي تهتز كسعف خضراء أطفأت مصابيحها رياح الربيع القارسة وتذكر ساعات الغروب الطويلة وغيمة تتشبث به بكلتا يديها كأنه هشيم في مهب الريح، وكيف كانت تنفض شعرها وتزقزق حوله كالعصفور الدوري. انه محاصر أبداً.

انهما يعرفان كل بلاطة بل كل شجرة وحصاة وقشرة برتقال في شوارع المدينة ثم من لا يعرف غيمة وفهد الغريبين الرائعين العاشقين المعقوفين كذيل الفرس على حصباء الدهر ؟ الأصابع داخل الأصابع، والعيون داخل العيون،والعالم راية بلون العقيق، يندفعان اليها دون هتاف أو تصفيق في سبيل الحب والكسل والأمور الأخرى تحت اللحاف.

شعر بغصة عميقة في حلقه، وأراد أن يبكي، ولكن محال، منذ عشرات السنين وفي كل اللحظات المريرة والليالي التي قضاها جاثياً تحت السياط مقذوفاً كالجرذ داخل المعمعة وخارجها، لم يكن يستطيع البكاء بل تظل عيناه محدقتين كعيني العاهرة، ولذلك أغمضهما بهدوء على السحب الزرقاء البعيده وهي تتناثر هنا وهناك مصحوبة بذلك الخوار الحزين لأغصان عارية ومهانة وسط شارع طويل رصف حتى ميازيبه العليا بالبنفسج والأنوف المحمرة من الزمهرير، وتراءت له غلالات النوم الزرقاء تتناثر على المقاعد منحسرة كالموج البعيد الخاوي عن نهود بحجم الفستق الصغير وقد نام الآباء والأمهات بحدقات مفتوحة خوفاً من انشقاق الجدار في الليل وفكّ الحصار المحكم عن النسوة اللواتي ربين كالحمام الزاجل بأطواق الفضة والخبز المبلول.

وفجأة التفت اليها ملهوفاً عبر دخان اللفافة حيث كانت تقف بين دفتي الباب جميلة ورائعة كرصاصة بين ميتين.

واندفعت نحوه حيث يقف لاهث الأنفاس وهي تتمتم باكية : أعبدك يا حبيبي.. أعبد يديك وصدرك وثيابك وصراخك. لقد أعادني المطر إليك يا حبيبي.

كان شعرها ناعماً طويلاً يغمره ويخيفه في ذات اللحظة، ودموعها تسيل على أصابعه وتقطر وتقطر وهي تلعق أصابعه ووجهه وصدره وثيابه كما تلعق الهرة حليبها المسفوح تحت المنضدة، وفجأة ترجل عن الصهوة العالية، واحتضن وجهها الصغير بيديه، وسألها فجأة وهو يحرك لسانه أمام شفتيه المرتجفتين المتوسلتين : أين كنت؟ فدهشت وقطبت واتخذت ووجهها هيئة العصفور الذي كان يمضغ حبة من القمح فالتقطها منه فجأة عصفور آخر، وراحت تنتحب وتبكي :

ـ لقد كنت مصممة على هجرك إلى الأبد، ولكن المطر هو الذي أعادني إليك يا حبيبي. كنت أسير في الشوارع.. في الأزقة.. أمام الحوانيت والصيدليات ومخافر الأمن وأنا مطرقة الرأس، سعيدة بأنني أحبك، وسعيدة بأنني هجرتك. اخترت الجموع، أغني تحت الهراوات. أصعد فوق زوابع الغبار والطاعون وأنا أفكر : لماذا هجرتني فيما مضى ؟ لماذا لماذا ؟ لماذا تركتني أهبط الدرج بطيئة ضائعة كأنني أهبطه على رأسي، وخيانتك مغروسة في ظهري كالخنجر. كنت تسوي رباط عنقك وراء النافذة وأنت تضحك. رجل حقيقي، وخنجر حقيقي في ظهري حاد ومغروس باحكام في مكان ما من الأمكنة التي طالما داعبتها بزنديك القويين حتى انني ما كنت لأتورع في تلك اللحظة عن أن أقول باكية لأي

كان من المارة عاملاً كان أم متسولاً : انظر.. هذا خنجر غرسه لي حبيبي !

ثم نامت الغزالة البرية وعيناها مغمضتان أمام النبع. لقد مالت ورأسها تحت أوراكها كالجناح المكسور. حملها بين يديه، ووضعها على السرير، وغطاها حتى ذقنها باللحاف، وراح يتأملها مفتوح الساقين وهي تضطرب وتتجمع على نفسها كشحرورة تريد أن تأخذ مكانها جيداً في عشها.

ثم جلس قبالتها على الأريكة يدخن ببمودة وذعر وهو واثق تمام الثقة ان الحب مهما بلغ من العظمة والقدرة والخلود ليس أكثر من ملل أخلاقي ينتاب الذكر ويحرقه كالمحلول المركز في الأماكن الشفافة من القلب حيث يتجمع دخان المقهى وغبار الشارع. وتنفجر كلها بما يشبه انفجار البندقية في الرأس. كل ذلك تمّ في الداخل بعيداً وبعيداً جداً عن سمع جارك في المقهى أو زميلك في المكتب أو صديقك في المسرح، ثم تتخذ هذه الآلام صفة الينابيع الحلزونية المنفصلة في صحراء العالم. كل منهما يدور حول نفسه والظمأ يسبق كل شيء. واذا صدف وأخطأ أحد هذه الينابيع مجراه وسال هنا وهناك، تجمعت رمال الصحراء كلها بكل ما فيهامن بهيمية وحقد وعزلة لتشرب كل شيء كقطيع من المساجين التعساء يطلقون بعد تجويع عشرات السنين نحو قطعة من الجبن.

هكذا كانت «غيمة» في نظره : قطعة من الجبن المفعمة بالاغراء والضعف أمام ذلك القطيع المتكدس من الرمال في فمي وعيني المتحفز في الفم والأظافر والأسنان فوق أغلاله في الأعماق.

كانت «غيمة» ترتفع في تلك اللحظة فوق غيوم أرجوانية من الألم الصافي الحزين وقد رفست اللحاف بعيداً عنها، ونامت مفتوحة الساقين

على جنبها الأيمن كأنها تمتطي دراجة، وقد ترك مطاط سروالها البنفسجي الصغير آثاراً حمراء حول فخذها كالآثار التي تتركها السلاسل حول أعناق الكلاب بينما سالت بضع قطرات من لعابها على الوسادة. وكانت بذلك أشبه بثمرة التين التي تفرز عسلها من ثقبها المعرض للشمس، فتمنى في تلك اللحظة ان يقضمها قضماً بلحمها ودموعها وسروالها لولا ان تجاربه السابقة علمته بأن كل مهرجي العالم لن يهدئوا أعصابها اذا ما أوقظت فجأة من دون أن تروي وطرها من النوم.

ولذلك راح يحلم بها مجدداً، راقدة على صدره في مكان أخضر بعيد وهو يداعب شعرها وكميها المطرزين الجميلين، عندما انفتحت الخزانة فجأة، وأطل منها بدويّ يعقد طرف جلبابه في حزامه، وراح يتقدم بسيقان مكسوة بشعر طويل كشعر الماعز، مثيراً حول قدميه غباراً أصفر ورمالاً داكنة أخذت تغطي كل شيء: «غيمة» والمقاعد والمرآة والمغسلة وقضبان النوافذ، ثم فتح البدويّ فمه كالكهف وتقدم وهوى ماداً يديه وأصابعه المتشنجة الى الأمام بينما أخذت الرياح المحملة بالرمال تصفع النوافذ وتهزها من مفاصلها في الخارج، حيث سطوح وأسلاك هاتف ترن في الليل الحزين. لم يعد هناك سوى الرمل، و «غيمة» تتنهد تحت الرمال الخانقة بينما تبعثر معطفها وقميصها كقشور البرتقال.

***

بعد الغزو المفاجئ لعرينه، دوى الانفجار الثالث والرابع والأخير.

تلاشى البدويّ كالدخان.

كانت الخوذ الرصاصية تلمع تحت ضوء المصابيح والشارع يلتهب بالشظايا.

«لا شيء لا شيء. مخبول القى قنبلة في برميل القمامة» هكذا قال الموظف حاسماً الموضوع. وهو يتنكب بندقيته الصغيرة ويصعد من مؤخرة السيارة.

وانتصب البعض على عتبات المنازل وهم يفركون راحاتهم وينفثون البخار من أفواههم كالقاطرات، وأخذت النوافذ تضاء تدريجياً كما يحدث في المسارح، ملقية شعاعها الهزيل المرتبك على أشياء غامضة مبهمة. عيون زرق وخضر وسود أذبلها النعاس. ومع ذلك أعطاها قدرة خارقة على التحديق الى تلك القمامة المتفجرة في أواخر الحرب العالمية التالية. وكان الدخان لا يزال يتصاعد من قشور الفاكهة عندما تعثر أحدهم بجمجمة بين الأنقاض، وصرخ مذعوراً :

ـ يا الهي.. رجل ميت !

وقال أحد الجيران : أظنه متسولاً.

فأجابه آخر : أو عابر سبيل.

وتثاءب الاثنان بينما قالت احدى النساء وهي ترفع ياقة زوجها : أو من السياسة.

ثم عادت من حيث أتت وكأنها قد أنهت مؤتمراً صحفياً لتوها بينما كان هناك جمهرة من الموظفين الرسميين، يقيسون وينقبون بين فضلات الطعام باهتمام زائد كأن القتيل ترك مذكراته هناك.

حدث كل ذلك والعصافير النائمة على أشجار الشارع لم تتحرك بل خفقت بأجنحتها قليلاً وتابعت رقادها.

حدث كل ذلك والبناية التي يقطن فيها فهد هادئة هدوء الأموات. ستائرها مسدلة، ونوافذها مغلقة كأنها في حالة عصيان ولكن يبدو أن

احدى النسوة قد نهضت بقصد التبول فلمحت بعض الموظفين من نافذة المرحاض. وبعد ثلاث دقائق لا أكثر كانت حتى الهررة في تلك البناية قد استيقظت وماءت مستفهمة عن الحادث.

وتجمعوا كطرد النحل أمام غرفته المغلقة، وفي عيونهم وأصواتهم سيماء الاستنطاق ونبرة التمحيص عن أسباب ودوافع ومرامي ذلك الحادث المجهول من دون أن يكون عند أي واحد منهم استعداد لمدّ رأسه من النافذة من غير أن يكون عدد من الأذرع يتشبث بخصره وكتفيه.

كانت حياتهم وحياة الملايين ملغمة بالخوف، وان أي مداعبة لطرف الزناد تكفي لتدمير كل شيء، ولكن الفضول وحده هو الذي يجعل أي جثة مفترضة موضع جدل وبحث طويلين كأنها تفاحة غريبة وسط الشارع.

قال أحدهم وكأنه يفتتح مؤتمراً صحفياً : حادث اصطدام.

ـ أو سرقة.

ـ من يعلم ؟ قد يكون الاثنان معاً، وقد يكون لاشيء، ولكن أين الجثة ؟

وجاء صوت من بعيد : لابد ان القنبلة أتت من مكان مجاور.

واضطرب سكان البناية، بل وهلعوا، وراح الرجال ينظر بعضهم الى بعض كالمشدوهين، وكل منهم ضمّ زوجته أو تشبث بكتفي طفله كمقود السيارة.

ـ الحمد لله ان جميع جيراننا من الأشراف.

ـ ولكن من يقطن في هذه الغرفة المنفردة ؟

ـ لا أعلم. انها دائماً مطفأة كغرفة التحميض.

ـ صحافي.. صحافي يعمل في الجرائد.

ـ قلما نراه، بل إنني لم أره مرة واحدة يدخل أو يخرج منها. واذا ما صدف والتقى به أحدنا في الممر يخفض بصره بسرعة ويتعثر في مشيته كأن حبلاً يعترض طريقه.

ـ ربما كان أعرج.

ـ أو خجولاً.

وقالت زوجة صاحب البناية : المهم ان يكون شريفاً.

فقال صاحب البناية : أظنه شريفاً. ولكن ما يهمني ان يكون مواظباً على دفع ما عليه.

فأجابت زوجته : بل ما يهمني هو ان يكون شريفاً.

ـ هناك فتاة تزوره بين آونة وأخرى.

ـ قد تكون أخته أو خطيبته.

وهنا قالت زوجة صاحب البناية موجهة الكلام الى زوجها : يجب أن تستوضح عن الأمر وإلا قد تحدث فضيحة، فأنا لا يهمني سوى الشرف.

وتأبطت ذراع زوجها، وصعدا الدرج يتبعهما ما تبقى من زبدة العائلات.

كان الزوج الذي لا يهمه سوى الشرف والايجار يكاد ينام على الدرجات الأخيرة من السلم. وقد حاولت زوجته مراراً أن تتقدمه بمسافة طويلة حتى لا تتعثر بقرنيه الطويلين. كانت زوجة يهمها الشرف فقط. ورغم انه لم يرها أبداً طوال مدة اقامته في هذه الغرفة الا انه متأكد تمام التأكيد بأن المقذوف المنوي في بطنها والذي لا يمت الى زوجها بصلة كاف لانجاب أربعة فيالق بشرية على الأقل. انه يعرفهن جميعاً بواسطة الصوت وصرير قباقيبهن المبللة بالماء.

انه يعرفهم جميعاً رجالاً ونساء شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً : زوجة الطبيب وزوج القابلة، خطيبة الطالب، وخطيب الأرمل، غابة من الأعضاء التناسلية الموغلة في بعضها، جروح وحروق وعري كالنار رغم كل ما يحيطهم من مظاهر. ثياب نظيفة وأزرار مرفوة وعتبات.

ينقض فهد على ركبتيه وقد تخدرتا من طول الفترة التي قضاها جاثياً على حد العتبة، مسترقاً السمع والنظر من شقوق الباب، فهذا الذباب اللعين الذي صمم على أن ينقض على حواف الطعنة يمد قرونه في أعمق أعماقها، كأن هذه الزوجة لا يمكنها ان تنام قبل أن تغلف قرنها بالملح، وكأن العالم كان سيتمزق إرباً لو لم تنهض زوجة الطبيب لتتبول في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. لقد سقطت الحصاة في البحيرة الهادئة، وستكون الدوائر أكثر اتساعاً ووضوحاً في الصباح.

سيسألون عنه منذ أذان الفجر. سيراقبون حبيبته اذا ما عادت من خلال الماسح وهي تحمل له التبغ والصحف والخضراوات،ولن يهدأ بال لاحداهن ما لم تر راية كبيرة تخفق على سطح البناية وعلى رأسها عقد الزواج.

لماذا يلومهم ؟ وغرفته كما تراءت له منذ اللحظة الأولى لا يقطنها منذ ان دهنت جدرانها الا ضحايا العادة السرية.. أولئك الذين يصاب أحدهم بالصرع اذا ما رأى حلمة عارية ولو في فم طفل يحتضر.

وتناسوه في الصباح.

وتناسوه في المساء.

وعاد الصمت الكئيب الذاوي يعيد الى الجدران العارية لون الأشباح وصليل الأظافر المسحوبة على المرآة.

لقد تكاثفت خيوط العنكبوت حول الشرنقة، وستظل اللآلىء مدفونة بين الأرجل حتى يتعالى ذلك الهمس المراوغ بين شجيرات المقبرة البعيدة.. حتى يتعالى ذلك الصوت البعيد من صالونات الحلاقة وغرف التعذيب.. من آبار المراحيض والمراقص المشحونة بالاغماء لتعيد الى الانسان اسمه ولونه ورياحه عبر جواز السفر والياقة المنشاة.. عبر كل تلك الأرقام والعناوين المدسوسة في لفائف الطفل.

صوت له رنين القبقاب وصليل العظام المكسورة، قد ينبت فجأة من الجدار ويدوي.. فم مفتوح يدوي ضد العالم، لافظاً عطشه وأحشاءه للبنفسج الظامئ والنبع المراوغ.

ان تكون وحيداً في صحراء لهو شيء مقبول وطبيعي، ولكن ان تكون وحيداً بين الملايين لهو الارهاب اللاذع الحقيقي. ولذلك كان شيئاً طبيعياً أن ينام ويستيقظ، ويستيقظ وينام متجهماً كأكلة لحوم البشر، مدغدغاً الزجاج الرقيق بيديه، نائماً على زنده كالجارية، ولكن الى متى ؟

وكانت كل الأشياء تسأل : إلى متى ؟ كلها تسقط وتتعرى في تلك الأمسيات العاصفة. منذ ملايين السنين والريح تهب من الشرق لاوية الرجال والنساء والأشجار والأطفال دون جدوى.

نظر الى وجهه في المرآة، فوجده غريباً ومتهوراً الى أبعد الحدود وجد أنفه مدبباً كحيزوم السفينة، طائر بحري بلا بحر. فراشة بلا مصباح أو مصباح بلا فراشة.

بينما الظلام أكثر عمقاً واتساعاً من تلك المقابر المنفوخة بالأشلاء، وقف باكياً وراء النافذة كضفدعة تنفث الماء الفائض من غلاصمها. لقد نبت الريش على جناح البجعة، ولابد من أن تبحر ذات ليلة، مخلفة

البنفسج وكتل العلكة والأحلام الضائعة واللوحات المغروسة بدبابيس الشعر.

فراشة لا بجعة داخل العطر والوباء. افريقيا افريقيا افريقيا. غريبان على ظهر سفينة غريبة. كان يؤكد لها باستمرار ويده تداعب ظهرها الرقيق العاري بان افريقيا هي البلد الوحيد الذي يحتضن مسافريه بلا حقائب.

هناك جثث الغزلان تحدق باسمة الى رماتها، والأثداء السفيهة تقصف كالأغصان من فوق الصهوات والخراطيم.

هناك حيث يسيران معاً حافيين ووحيدين، رائعين وغريبين حتى الشوكة الأخيرة في صحراء العالم.

ولكنها تغيرت في هذه الأيام. رحلت دون عودة. «غيمة »لا افريقيا هي افريقاه الوحيدة في هذا العالم.

تأتي مسرعة، وتخرج مسرعة، تاركة عود الثقاب قرب القلب. حتى قبلها أصبحت خاطفة كقبل الكاهن.

أيها الغريب.. ستموت غريباً. حتى الريح لن تغلق عينيك الحزينتين وأنت تتهادى على محفتك كملاكم فقد وعيه.

كان يختنق.

كان بحاجة الى فضاء واسع للسعال.

ولذلك قرر أن يواجه العالم منتصباً أو منحنياً. . لا فرق.. بكل رياحه وثلوجه وزمهريره بهذا القميص الرقيق وهذه الجوارب الرثة والياقة المرفوعة حتى الأذنين، فأمره لابد من أن يكتشف بين لحظة وأخرى مهما تنكر وأحكم اغلاق النوافذ.

ارتدى ثيابه وهو يرتجف.

ربط سيور حذائه وهو يرتجف.

وهبط السلم العتيق كأي مستأجر حقيقي. وعندما وصل الى ناصية الشارع، التفت الى غرفته بيأس كما يلتفت القرصان الى سفينته المحترقة ومضى.

الفصل الثاني

كـانت الشـوارع هي الشـوارع، والسـيـارات هي السـيـارات.. بعـد كل الدمـاء التي سفحت، والأرامل اللواتي ولولن. مـازال كل شيء كما كان حتى ان فهد التنبل يستطيع أن يتعرف الى أعقاب لفائفه القديمة على الأرصفة.

شيء واحد لفت نظره. كانت معظم الأشياء مجعدة ومستكينة وتعلن دون لف أو دوران أن قدرتها على الانتفاخ قد زالت الى الأبد. حتى البغايا الصغيرات اللواتي كنّ مظهراً جانبياً من مظاهرة الانحلال والبذاءة، أصبح وجودهن رمزاً ضرورياً للشك في انسانية المجتمع الذي ينتمون اليه، وشاهداً على أن تحاشيهن في الظلمات وتحت المصابيح هو الذروة في الملل والانتحار الجنسي، والحلقة الهامة المفقودة في سلسلة الانتحارات الأخرى. انهم يسيرون في الطرقات منفصلين يائسين، منكمشين كالمطاط على بضاعتهم وخضراواتهم، يتميزون غيظاً من دون سبب، في كل مكان وزمان. حتى في الأفراح وفي المناسبات القومية الكبرى، ليزدحمون ويصفقون ويهتفون، ولكن سقوط قطرة مرطبات على قميص أحدهم يكفي لان تجعله أكثر شراسة من ابن عرس حتى ولو كانت السماء تمطر.

ولذلك كان يحبهم لأنهم تعساء ومنفيون، وأحلامهم لا تتعدى الجوارب النظيفة والماء البارد قرب فطائر السلق. لقد تعودوا الهتاف

والتجمع في الساحات كما يتعود الانسان التدخين أو التجمع في فراشه أيام الصقيع والزمهرير.

ان العجز الحيواني في التفوق وبلوغ المأرب أشبه بهررة ترى قطعة من اللحم النيء خلف زجاج النافذة. لا هي تستطيع اختراقها، ولا هي تستطيع تجاهلها وانما تذهب وتجيء وتحوم وتموء بألسنتها الحمر الصغيرة حتى يدركها الاغماء وتدرك مرغمة على ان تلك القطعة الحمراء هي مجرد قطعة من اللحم.

وسمع مواءً حقيقياً لهرة قذرة أمام مبولة فندق، وأصغى الى أنين الغربان وهي تخفحف بأجنحتها المنهارة على ميازيب التنك.

تأمل صنابير المياه الصامتة وآثار العكاكيز والأقدام الصغيرة في الوحل. وتخيل قطيعاً عبر الرمال السافية الروث القاتم يتأجج كجوز الهند تحت الياته المهزوزة، قطيعاً جائعاً بلا أسنان، يواجه ريح الشمال وريح الجنوب، بسيقانه المرفوعة وأظلافه المشطورة الى قسمين، مخلفاً صوفه الأغبر على الحراب وجذوع النخيل. وصل الى جسر فكتوريا.

.. هنا تنهد شعبي. هنا تتكئ المرافق الهزيلة وتنظر العيون الغريبة الى نهر مشهور غريب.

هنا كان يتكئ ويسير مع حبيبته تحت المطر، يغسلهما غسلاً كالمصابيح والأشجار وأعمدة الهاتف.

« ـ هل تمطر السماء في افريقيا يا حبيبتي ؟ ».

« ـ حوالي نصف عام على الأقل ».

«اذن سنسير طويلاً يا حبيبتي. سنحمل جذورنا في حقائبنا ونمضي حتى نورق ذات يوم».

لقد رحلت «غيمة». رحلت ولا يعرف إلى أين. ان المرأة هي المكان الوحيد الذي يجعل من الجهات الأربع جهة واحدة لا يمكن تحديدها.

* * *

كان قد اجتاز مسافة طويلة على الرصيف المحاذي للنهر، معطلاً أحلامه وأحلام الآخرين بزفيره المتواصل. ولذلك جلس على أحد المقاعد الفارغة باتجاه النهر، وبنطاله يقطر بالماء الموحل. كانت الريح محملة بالأمطار ورائحة الشؤم. وتذكر ليالي حيث تزدحم هذه الضفاف بالنساء المحجبات وقد جلسن على الياتهن الرجراجة بينما يقابلهن على الضفة الأخرى صف من المراهقين والبؤساء والمهجورين وقد استلقوا على بطونهم كجنود الحرب حتى لا يفوتهم منظر السراويل الفاقعة والأفخاذ المنتوفة بالملاقط عندما تنهض امرأة أو تجلس أخرى، متألمين ومتلهفين، عيونهم ملأى باليأس والقناعة بعدم جدوى كل شيء بينما تشع أمامهم عن الضفة الثانية الأقراط الذهبية والركب التي تسطع عن فتل الجوارب ورفع السراويل المنزلقة في أثناء الجلوس.. بينما طرابيش أزواجهن تلمع كالجلطات الدموية في ضوء القمر، وأطفالهن ينتشرون على ركبهم وظهورهم كأغصان العليق دون أن يدرك أحد، ما في حقل هذه الظروف الحالمة المخدرة ان من هذا الخليط العجيب.. من هذا اللحم والقماش والجوارب المفتولة، ينبت أبطالنا كالفطر في كل عام.

وحثّ الخطى فجأة نحو قبر مظلم مهجور في وسط المدينة، نحو المطبعة التي شهدت مجده الخاطف فيما مضى. كانت المدينة مغلقة بشكل عجيب في تلك الأيام لم يألفه متسكع واحد من قبل. صحيح ان المدينة كانت تغلق دائماً في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل الا انك كنت

تتوقع باستمرار ان ينفتح باب أو نافذة ما ليلقى أحدهم شيئاً أو ليكلم جاراً. أما في هذه اللحظة فقد كانت الأبواب مغلقة اغلاقاً محكماً كأنها ضعفت بقوة حتى تساقط الكلس عن جدرانها لأنها لن تلقي شيئاً بعد الآن لأن كل شيء استهلك واستنفد، وان أفضل شيء في هذا العصر هو ازاحة الستائر قليلاً والنظر قليلاً في الحالات القصوى لان ما قد يمكن ان يراه الانسان قد رؤي مئات المرات. ولذلك ان تكون خارج منزلك في مثل هذه الساعة، فمعنى ذلك انك منفي أو هارب، يشمئز منك حتى مطاردوك.

***

لم يجد صعوبة تذكر في دخوله الى المطبعة المختومة بالشمع الأحمر اذ كان يعرف الكثير من الأبواب الخلفية والسراديب الجانبية التي يستعملها الحمالون وندل القهوة. وكان الموظف المنوط بالحراسة يقعي على كومة من الحروف المستهلكة والملمومة جانباً على الرصيف.. حروف قديمة فرزت من الحروف الجديدة كما يفرز القمح عن الزوان. ولذلك كانت تبدو وهي مكومة على الرصيف انها استنفدت فعلاً وما خلقها الله الا لتستنفد، ويجلس عليها موظف أرهقه النعاس.

كان الدرج الذي يؤدي الى المطبعة متعرجاً ومظلماً كفوهة البئر، ولكن نور الفجر الأحمر ينفذ من الكوى كالسهام مما يجعل المخارط وآلات التوضيب أشبه بمستودع كبير للأجنحة المحطمة.

تأمل الجدران والزوايا الملطخة وحثالة الدهان الأحمر في الزوايا. كان كل شيء على منضدة التصحيح : الشاي المتجمد في قاع الأقداح،وبالات الورق جاثمة تخترقها رؤوس الحراب.

داعب الحروف الصامتة بيديه.. الحروف الرصاصية، وهي مزدحمة

كالبعوض على ألواح متسخة بالزيت والغبار. وعلى الأرض صفحات غير كاملة للطباعة تهتز بعد أن استعملت لمسح الأيدي فيما مضى.

اذن من هنا كانت تهب رياح الكذب. من هنا يتقد جليد الشهرة ونور النسيان.. سطوره المختارة، عيونه المغرقة بالنعاس.. من فوق الدرج الكئيب الفارغ، كانت تصعد رغبات الشعب وسطوره المختارة على الأكتاف. هنا كانت صدور العمال العارية تخفق وتهتز تحت السوط ونور الفجر، وهم يصبون الفكر في الصناديق، يفرشونه على الورق بالأصابع. غلمان وكهول يبحثون عن الكلمات الجريئة بالسبابات، يذهبون ويجيئون طوال الليل والنهار من أجل رجل واحد لا يراهم ولا يرونه، يقبع هناك في الدور السابع من بناية أخرى، يشعل لفافته بذات «المئة» ليفكر في هموم الشعب. يلبس نظارات ذهبية الاطار، يطعم عشرين عائلة ليرى بوضوح أشد أقصر الطرق لانقاذ الشعب. أين الشعب الآن في هذه اللحظة حيث الريح تصفر وتخترق بهذه المسننات والحروف الجاحظة حتى الأرصفة ؟

أين النظارات الذهبية والدخان المتصاعد في هذا الفجر الصامت الحزين؟

أجمل الأصوات وأكثرها عنفاً وفروسية كانت تنفجر خلال صمت الصباح على شواطئ غرناطه وأمام الساحات المخضبة بالدم تحت قناطر روما.

أين الابهامات المشققة والآذان المملوءة ببرادة الحديد؟ أين التلامذة الفينيقيون الذين تمزقوا ارباً بين القمع والهتافات ؟

إنهم راقدون في سفنهم الطويلة، يفركون أعضاءهم التناسلية على الشراشف المغسولة بأيدي الشقيقات والأمهات.

قلّب الحروف بيديه، ومسح أصابعه بالجدار كأنها تلوثت بالدم. ودار للمرة الأخيرة حول المطبعة، وانبثق الى الخارج.

كانت الريح ما زالت تصفر، ولكن المطر قد انقطع، والموظف المنوط بالحراسة مازال ممسكاً بندقيته كأنها زنبقة وهو راقد على عمود المصباح بينما راح كلب ضخم يشم كومة الحروف المهملة. ثم ما لبث ان رفع قدمه بشكل أفقي كأنه يؤدي تحية، وبال عليها ومضى يهرّ بغضب.

نظر الصحفي القديم الى ذيل الكلب وهو يختفي عند المنعطف، ثم مرّ أمام الموظف النائم في معطفه، وتأمل بندقيته المخيفة الفوهة، وتمتم: لقد آن فطامك أيها الرصاص.

ومضى من حيث مضى الكلب.. الى أقرب مخفر.

***

اذا أردت أن تستشير فتاتك، حوّم بشفتيك على وجهها.. حوّم طويلاً حتى ترتجف شفتها السفلى كورقة الريحان وتغور مخالبها في ثيابك ولحمك الى الأعماق. أما اذا أردت أن تستشير القدر فارتم عليه مباشرة كأنه سرير أو مقعد، فسلامتك مضمونة كزر في عروته لأن القدر الشرقي ليس كأسد السيرك يهمهم ولا يفترس من طول المران وعذاب العادة بل لأنه قدر جبان. ولذلك لم يرتم فهد التنبل على قدره فحسب بل جلس بارتياح في أحضانه. ولولا سوء الفهم وسوء التأويل من قبل البوليس لصفق بيديه طالباً جريدة أو قدحاً من المثلجات يشربها نخب الفزع والتراجع لأنه توصل الى نتيجة لا تقبل الجدل،وهي أن العين بامكانها أن تجابه لا مخرزاً واحداً فحسب بل عشرين مخرزاً اذا كانت العين لا يهمها على الاطلاق ان تبصر الأشياء المحيطة بها.

وكان على كل حال قد قرر منذ أن فكوا القيود عن يديه أن يجيبهم عن أي سؤال حول أي موضوع لولا ان أحدهم ألغى هذا القرار فجأة والقاه في سلة المهملات.. لولا ان هذا «الأهم» صفعه على وجهه.. على المناخ الوحيد لكبريائه، فالأطراف البشرية الأخرى يمكن اخفاؤها بطريقة ما. أما الوجه فلا يمكن بأي حال من الأحوال اخفاؤه بقميص أو سروال. ولذلك عضّ على شفتيه، ودفع دموعه الى حوصلة سرية في أعماقه كما يدفع القرد لقمته من فك الى آخر، وصمم على المجابهة بعينين لا تعرفان الرحمة.

***

ليست هذه المرة الأولى التي يدخل فيها السجن لأسباب سياسية، ولكنها المرة الأولى التي لم يستقبل فيها بتلك الهالة من التشفي التي كان يحلم بها حلم المتنبي بالحمى. لقد تجاهلوه. ادخلوه في مئات الأمكنة وأخرجوه منها دون أن ينظروا الى وجهه ودون أن يكلفوا أنفسهم مهمة التأكد من أن هذا الشيء المخفور هو انسان أم بالة من القطن. وكل ما كان يحسه هو أنهم يسلبونه شرفه ومبرر وجوده قطرة قطرة وهم منشغلون في موضوع آخر كالمرأة التي تحلب بقرتها وهي تتحدث مع جاراتها عن عزق الباذنجان.

يذكر الآن وهو يترنح في باحة السجن بانتظار تفتيش ثيابه انه لم يضرب في الوكر الذي أعلن استسلامه فيه، ولم يصفع كما كان يتوقع بل انهم استقبلوه دون دهشة كأن ذلك شيئاً طبيعياً في ذلك الجمرك البشري. حتى ان الرئيس الذي فتح له باب الزنزانة قال له رأساً وكأنه يتم حديثاً سابقاً: «لا توجد أغطية كما لا يوجد طعام، ولكن اذا شعرت بالجوع فكلْ قطعة من حذائك».

فامتقع وجه فهد التنبل، وجلس على شيء حاد كالخازوق. ربما كان

أنفاً أو كوعاً ما بينما خاطبه صوت من الزوايا : «لا تبتئس يا أخ. لقد اقترح علينا يوم أمس أن نأكل قضبان النافذة».

فرنّت كلمة «علينا» في أذنيه رنين الجرس الذي يبشر بأن ثمة قطيعاً كبيراً وراء الكبش. اذن هناك كثيرون في مكان ما. والتفت ليسأل الصوت الذي خاطبه واذا به يجد عدداً لا يحصى من الرؤوس تبرز من تحت الأغطية.

« ـ حسناً. اقترب يا أخ. كلنا أخوان دون شك. واذا لم نكن اخواناً في الوقت الحاضر فسنصبح كذلك فيما بعد. لا لا. تعال الى هنا».

ثم أشعلت اللفائف، ودوى صوت البابور، وأعدت الفناجين، وتحلقوا حوله كالراوي وقد أذهلتهم ثيابه المدنية الأنيقة وشعره المسترسل حتى شحمة الأذن بينما سأله أحدهم بامتعاض وهو لا يفتأ يصفع ذبابة تحوم حول وجهه : «لماذا أتوا بك الى هنا ؟ ما قصتك ؟».

«ـ معتقل سياسي».

فهمهم الجميع، وغيروا من أوضاع جلساتهم كأنه قال لهم «حدثت حرب عالمية» بينما قال أحدهم وهو في دورة المياه : «لعنة الله على السياسة!».

«ـ وما قصتك أنت؟».

فأجاب الذي ينكش رأس البابور دون أن يلتفت اليه : «نكح ولداً وسيخرج قريباً».

فأجابه آخر : «الولد كان بالغاً والا لأنجب أكثر من ولد في هذا الوكر».

«ـ هو الذي أغراني».

«ـ لا لست بحاجة الى اغراء. موهبتك في هذه الأمور موهبة فنان حقيقي».

وسأل الفهد عجوزاً يحاول قدر الامكان أن يجعل من صمته وشروده نقطة تحول تاريخية في الموضوع: «وأنت أيها العجوز؟».

«ـ رفضت دفع النفقة لزوجتي، وسأظل رافضاً حتى تركع عند قدمي. كرامتي قبل كل شيء».

«ـ وهل طلقتها منذ زمن بعيد؟».

«ـ نعم. منذ أن نبت قرني الأول (وأخذ يحك جبهته وهو يضحك مع الآخرين) هجرتني مع أطفالي من أجل صعلوك كان يعاشرها وراء الستار في حانوت معلمه».

وسأله أحدهم: «وكيف عرفت ذلك؟».

فأجابه بطريقة تدل على أنه روى هذه القصة مئات المرات: «حسناً يا أولاد الزنا. انكم تتلذذون بهذه الرواية، ولم أتوقف عن روايتها لحظة واحدة. ومع ذلك سأقصها مرة أخرى من أجل ضيفنا الجديد لا من أجلكم، ولكن بامكانكم أن تستمعوا اليها: كنت عائداً من عملي في وقت مبكر اذ أصابني مغص مفاجئ حتى خاف ربّ العمل ان ألد بين يديه، وأمرني بالانصراف قبل الموعد بساعتين. وقبل أن أصل الى البيت خطر لي أن أمرّ على الحانوت...».

فقاطعه أحدهم قائلاً: «لتشتري تنباك».

«ـ ومن الصدف التي لا تصدق الا في الروايات هي ما ان ولجت باب الحانوت حتى رأيت زوجتي تخرج من وراء ستارة في الداخل وهي تسوي ملاءتها، يتبعها صبي الحانوت وهو يدفع قميصه داخل سرواله الفضاض،

ويقول لها : انك لذيذة جداً في هذا المساء.وصرخت كمن وضع فلفلاً في مؤخرته : من هي اللذيذة يا ابن الداعرة. وصعق الاثنان».

ثم تفل بعض التبغ من فمه فجاء بعضه على وجه فهد التنبل، وتابع حديثه : «لا تتصوروا موقفي أيها الأصدقاء. فقدت صوابي وطار عقلي كالعصفور. ولم أتناول قطعة من ذات الكيلو أو الكيلوين بل تناولت الميزان برمته، وأهويت به صارخاً : يا زانية يا أم الأطفال ! ولكن هل تصدقون بماذا أجابتني وهي مازالت ترفع ملاءتها : لا ترفع صوتك. لقد سمعك كل من في الشارع. سأروي لك كل شيء في البيت. فصرخت بها : لا منزل لك بعد اليوم يا داعرة، فقالت باكية : ليأخذني الله الى جهنم اذا كان هناك ذرة مما تفكر فيه.كل ما هنالك أنها شعرت بوهن أثناء اعداد الطعام، ولذلك حملت أنبوباً من الابر المقوية، وذهبت الى صبي الحانوت كي يزرق لها ابرة كأنه طبيب أو صيدلي في احدى الصيدليات.

ثم أخذت تولول وتؤكد بأغلظ الايمان انه غرس الابرة في فخذها من فوق الملاءة. وقد أكد الصبي ذلك، وقال لاهثاً : نعم نعم من فوق الملاءة. فقلت له : حسناً يا دكتور. انك لن تفلت من يدي على الأقل. أما أنت أيتها العنزة الجرباء هيا أمامي الى المنزل. وفعلاًراحت تتمايل أمامي مسرعة كالعنزة التي تركت تيسها وحده بالمرعى. وفي المنزل انقلب الموضوع رأساً على عقب، وتركز كل هذا الموضوع العظيم المتشعب والمليء بالذيول والمفاجآت في شيء واحد بسيط. هي تقول انه ضرب الابرة من فوق الملاءة، وأنا أقول من تحتها حتى جفّ حلقي ولم يعد صوتي يخرج الا بصعوبة. وفي الحقيقة أثرت بي دموعها كثيراً حتى خشيت أن أكون مبالغاً في تصوير الحادث وهي التي كانت رائحتها كالياسمين طوال

حياتنا الزوجية، غيورة علي وعلى أطفالي ومنزلي الى درجة لم تعرفها الغجريات ذاتهن، ولكني صرخت فجأة : ولماذا كان يرفع سرواله ؟ فأجابت وهي تخبط على صدرها : انه ليس سرواله. إنه لأخيه الكبير. لأخيه الكبير يا ظالم يا عدو الله.

وارتمت على السرير بطريقة كأنها تقول : رجل يا محسنين لله.

فاندفعت اليها كالسنجاب لأنهي هذا الموضوع الوسخ. واحتضنتها من الخلف، وأخذت أتنشق رائحة شعرها الأجعد القصير. كانت حارة وشهية تجعل أي تبرير لخيانتها السرية مقبولاً ومستساغاً كقطعة السكر، ولكني ما ان هممت بتقبيلها أو ما يشبه ذلك حتى تذكرت ذلك الصعلوك، فنهشتني الغيرة نهشاً وأنا أتخيله ملتصقاً بهاوراء الستارة ولذلك دفعت يدي بلا تردد تحت ثيابها.. ».

وهنا أشعل الجميع لفائفهم واقتربوا منه جيداً. ويبدو انه شعر باهتمامهم الشديد بهذه المرحلة التاريخية من الموضوع، فأعاد مكرراً : «نعم.. دفعت يدي تحت ثيابها علّني أجد بعض الرطوبة أواللزوجة حتى أفصل في الموضوع نهائياً، فطار صوابي اذ لم أجد سروالها اطلاقاً.. »

وهنا أشعل الجميع لفائف جديدة من الأعقاب الأولى بينما عيونهم محدقة الى شفتيه. وقد أردف بصوت غاضب : «نعم.. طار صوابي وقفزت من السرير وأنا أصرخ : طالقة طالقة طالقة.. ». ثم أردف قائلاًوقد تهدج صوته : «وهكذا انهار كل شيء. لي ولد في الاصلاحية، وآخر تخرج منها، وبنت صغيرة تعيش عند عمتها، ولا يستبعد أن تموت وهي تكنس لها فضلات زوارها يوماً بعد يوم، ولكني سمعت أن أميراً عظيماً قد وقع في غرامها. يشتري لها كثيراً من المجوهرات والثياب، ولكنها لا تزورني

أبداً لأنها تخجل مني. لقد كانت طفلة حنونة ورائعة، تحب الخوخ الأحمر كثيراً. أذكرها عندما كانت حبة واحدة تملأ فمها..».

وطفق يبكي، عند ذلك نهض أحدهم، وأسدل عليه غطاء أزرق، ثم التفت الى فهد التنبل قائلاً: «انها قصة من اختراع بنات خياله ليس فيها أي ذرة من الحقيقة. ومع ذلك فهو يرددها كل يوم. لقد قبضوا عليه وهو يتلصلص على امرأة من نافذة الحمام. المرأة قبيحة جداً، ومع ذلك كان يتلصلص عليها باستمرار الى ان قبضوا عليه».

وتذكر فهد التنبل كيف تكوم بثيابه في احدى الزوايا، وفتحتا أنفه قريبتان من أنف الرجل العجوز، وقد انفصل عن ماضيه انفصال الرأس، وراح يدخن بكثرة، يمتص اللفائف امتصاص الحوذية والسكيرين حتى شعر بأن النيكوتين قد أخذ يرتفع في بلعومه ارتفاع الزئبق في الأنبوب.

ان ذكرياته عن الأيام المشمسة وصفير الغلمان في الشوارع والموسيقى الحزينة في آخر الليل بل ان مأساته الفكرية كلها لن تكون في الأيام القليلة القادمة الا جلبة بعوضة كسيحة بين هذه الرفوف المتراصة من العقبان الشاردة.

***

جثا على ركبتيه يتأمل خصل الشعر الكستنائي تنفثها ماكنة الحلاق من رأسه الى الأرض، فشعر بأسى عميق عميق اذ كانت هواية «غيمة» المفضلة ان تعبث له بشعره وتغرس فيه أصابعها بعد أن ينتهي من تسريحه. ولذلك كان ينظر ضاحكاً الى خصل الشعر المقذوفة على البلاط وكأن أصابع «غيمة» بترت معها.

إنه يكره كثيراً أن يلمس أحد شعره لأنه ملك لأحبابه. فالشعر

بالنسبة له ولأي شرقي خالي الوفاض كالغيوم بالنسبة الى السماء.. كالأوراق الخضر بالنسبة الى الأغصان. ولذلك عندما قدمت له المرآة دفعها بعيداً بيده لأنه تكهن سلفاً بالهيئة المرعبة التي آل اليها. وحسماً لكل شعور بالتقزز والهستيريا، انتصب على قدميه وسار بهدوء بين موظفين عملاقين الى غرفة صغيرة جداً يجلس في زاويتها موظف ما يجفف جوربيه على لهب المدفأة.

«ـ اسمك ؟»

«ـ الفهد التنبل».

«ـ عمرك ؟».

«ـ بين ٢٣ و ٢٤».

«ـ بالضبط»

«ـ لا أعرف».

«ـ عملك؟».

«ـ متشرد».

«ـ مكان الاقامة؟».

«ـ كما ترى».

سار الموظف على كعبيه باتجاه الفهد، وصفعه بقوة على وجهه. قائلاً: «اذهب وقل لذلك الموظف أن يأخذك الى الجحيم».

«ـ نعم الى الجحيم. ألم تسمع؟».

وصفعه مرة أخرى على وجهه، ثم مضى الفهد الى موظف كان يتأمل وجهه في مرآة صغيرة وقد نفخ خديه كطفل في عيد الميلاد.

«ـ نعم.. ماذا تريد؟».

«ـ يقول لك حضرة الموظف أن تأخذني الى الجحيم».

«ـ حسناً».

ومضى به الموظف الصغير وهو يشده من أذنه كالجرذ عبر ممرات وأبواب ودهاليز العودة منها أكثر صعوبة من العودة الى أيام الطفولة. والموظف ما انفك يضربه عند هذا الدهليز، ويقرّعه عند ذاك: صحفي.. صحفي كلب. ماذا تكتب عن الكلاب، وأهلك من صفوة الكلاب؟».

«ـ انك تكاد تقتلع أذني».

«ـ يا للرقة! هل يؤلمك هذا الغضروف اللعين. اذاً كن على ثقة بأنك لن تخرج من هنا حتى تتلاشى آخر ذرة منه على ابهامي هذا».

ثم فتح له كوة صغيرة، ودفعه اليها مبشراً: «لا تظن أن هذا هو السجن. لا. انه محطة. محطة صغيرة سننقلك منها في أي لحظة عندما يصفر القطار».

«ـ أي قطار؟».

«ـ قطار صغير ذو شراع بحري، ينقل الفراشات الى الحقول، والأرز الى الطيور المحاصرة تحت الثلوج. قطار من الوحل والدم.. من العظام والغدد المسحوبة بأصابعي هذه. سيمر بك بعد ساعة أو ساعتين نافثاً دخانه الأسود في وجهك الذليل، تنطلق منه بعد أجيال عبداً أسود بلون الليل، تطلق سهامك المضيئة في الشوارع، صارخاً عبر المكاتب وصالات الرقص: أنا الصحفي الشهير.. هل من مبارزة؟».

ثم أدار المفتاح في قفله ثلاث مرات على الأقل، وانصرف يقهقه.

***

وقف الفهد مذهولاً وسط الزنزانة، زنزانة صغيرة وعارية عري

البغايا، تضجّ بأشباح الرؤوس الحليقة المرتطمة بجدرانها فيما مضى. وكان في جانبها الأيمن مصطبة منحدرة من الاسمنت، فصعد اليها وتكوم على نفسه في الزوايا ثم وضع ذقنه بينه وبين ركبتيه كأنه يتحفز للوثوب على العالم.

وكانت ثمة أصوات بشرية في الخارج. أصوات هامسة تتدفق في أرض لا مبرر لوجودها أصلاً. لقد زار هذا المكان من قبل، ويعرف ان هذا الوقت هو وقت تناول طعام العشاء، الوقت الذي يقضم فيه الانسان خبزه بمرارة كأنه يقضم قلوب أطفاله. وتذكر الشوارع المزدحمة عند الغروب، والجلوس المريح وراء زجاج المقهى. لم يكن جائعاً، فأبعد صحنه جانباً، وراح يتأمل السقف والأرض والجدران، فلم يجد شيئاً سوى عرق الرؤوس وبعض الذكريات المحفورة بالأظافر وذبابة حمراء ترفرف حول المصباح الباهت وتحوم بأجنحتها المضحكة كأن ذكرها محاصر داخل الزجاج، فاستمتع بمراقبتها بل وضع يده تحت ذقنه وراح يراقبها بذات البهجة التي يراقب بها بدوية تحوم حول فارسها المقيد الأطراف، ولكن استرخاء أجفانه جعله يسارع الى وضع حذائه تحت رأسه والاستسلام للنوم.

ولكنه استيقظ فجأة على صوت الموظف وقد فتح باب الزنزانة وصرخ به قائلاً: «لماذا لم تعمل في مدبغة.. في تنظيف الشوارع بدلاً من الكتابة؟ لقد مات أبي ولم أشترك في جنازته لأن مطاردتك ومطاردة غيرك لم تسمح لي بذلك. انكم ضد الموت كما أنتم ضد الحياة. وعلينا أن نوازن بين هذين الهدفين كما توازن كرة على رأسك الأصلع هذا. حسناً. فشلتم في كل شيء، أصبحتم أدباء. وكل ما تفعلونه هو ان تخربشون قليلاً وتقلبون الدنيا رأساً على عقب لدرجة ان يموت والد أحدنا ولا

يستطيع أن يشترك بجنازته، ثم نبحث عنكم في كل مكان، وصوركم في أذهاننا تفوق الوصف. أحرار. عمالقة. يسيرون على ذرى الجبال وفي مقدمة الصفوف، ولكننا أبداً لم نقبض على واحد منكم فوق قمة أو عبر شارع بل خلف صندوق أو تحت سرير».

ثم نفث سحابة من الدخان الأزرق كأنه يريد أن يعيدها الى أنفه، ثم تابع قائلاً : «زميل لك قدم لي صورة زوجته وهي نصف عارية من أجل لفافة. ولكن هل تعرف ماذا قلت له؟ لقد قلت له أن يشعل اصبعه ويدخنها. وعندما كان يتبختر بقميصه النظيف وسرواله اللماع. أين كنت أنا أو مليون شخص على شاكلتي؟ كنت أتنكب هراوتي الحديدية والريح تسلخ جلدي سلخاً وأنا أدور وأدور حول جدران السجن خوفاً من أن يهرب أرنب منكم. تصور رجلاً مثلي تصرف عليه الدولة أو بالأحرى صرفت ما يعادل وزنه ثلاث مرات كي يدور فقط حول جدران سجن في الريح خوفاً من أن يهرب أرنب منكم. نعم.. أقول أرنب وأنا أكز على أسناني لأنكم كلكم أرانب، تربضون في الزوايا وتحت الأغطية وهدفكم الوحيد الغالي بعد كل الهتافات والخطابات سيجارة. ثم تنتحبون كالنساء من أجل المحافظة على شعركم كأنه لن ينبت أبداً. لقد رأيتك جاثياً تتأمل شعرك المسفوح على الأرض كطفل حطمت دميته أمام عينيه. لماذا يا كلب؟». ورفع قبعته، وشد شعره بأصابعه صارخاً : «إنه ليس أكثر من شعر. شعر ينبت كالقمح في كل لحظة. المدير نفسه حليق الرأس حتى ان شعرك هذا أطول من شعره. كشطه بالموس أمام أعين الملايين، ولكنه مرح دائماً ويحتسي الخمر باستمرار. كان من المفروض أن يحضر هذا المساء، ولكنه لم يحضر. من يجرؤ على سؤاله؟ ربما حضر الآن بعد اغلاق الحانات. ربما انبثق من هذا

الجدار فجأة ليحقق معك. كن حذراً معه.. حذراً جداً والا ستقضي بقية حياتك بلا أنف أو أذن أو أي شيء تطاله يد ممدودة من وراء الطاولة. إنه يمقت المسكنة في الوجه. يكره الرجال الذين لا يصرخون. يحب أن تبكي وتصرخ بكل طاقتك بمجرد ان ينظر اليك. انه يحب بكاء الرجال بصوت مرتفع. يحب العويل الطويل عبر القاعات الصامتة، والأوراق المتناثرة هنا وهناك. ويأمرني دائماً بأن تفتح النوافذ كي تذهب فضلات الأصوات كما تذهب فضلات المقاهي والمطابخ. يبدو انك غير مكترث بما أقول، بل وتكاد تنام. حسناً. هل ترى شاربك هذا ؟ سوف تتركه في أي وقت في اضبارتك وتعود وفمك ينزف دماً كعرف الديك. كاتب. كاتب وصحفي. حقيرون. مات أبي ولم أحضر جنازته لأني كنت أبحث عنك وعن أمثالك من الأرانب..».

وتمتم الفهد في سره : خير ما فعله أبوك انه مات بعد أن أنجبك الى هذه الحياة.

وبينما كان الموظف يهمّ بالخروج اصطدمت الذبابة بوجهه، فثار ثورته القصوى، وظل يثب ويقفز ويخبط على الجدران حتى جندلها. ثم مضى صافقاً الباب بقوة وهو يسوي قبعته على رأسه.

وعند ذلك شعر الفهد بأسى عميق لموت الذبابة، وأطفأ المصباح.

الفصل الثالث

تأمل يده المتدلية في حجره بشعرها الأشقر الناعم وعروقها المنتهية في الأصابع انتهاء الأنهار في البحر، فاشمأز منها كالحشرة. ثم ما لبث ان هزّ رأسه شفقة معللاً. لقد كانت يده على كل حال. إنه يتفرد بها على كل حال. اذْ ما من انسان في العالم له مثل هذه اليد بأصابعها وأظافرها وشعرها الأشقر الناعم. هذه اليد التي امتلأت بالمعول والقلم والنهود والدحل وتذاكر السينما وشعر الرفاق. إنها ذابلة كوردة في الصحراء، فارغة ومغلقة كفم بلا أسنان؛ وأقل حركة تسقطها على الأرض.

ترى هل يستطيع الكتابة بعد الآن؟ إنه يشك في ذلك، فملامح الاحتضار واضحة عليها، وسمات الجنون والعزلة تبرقعها من جميع الجوانب.

ثم هذه القدم المفلطحة والتي كثيراً ما تشبهها «غيمة» بسفينة دمرتها العاصفة. إنها عالم قائم بذاته. تاريخ مفلطح، لا رواة له ولا مستمعين. سفينة من اللحم.. بل من الحقد والتراجع. بها صعد السلالم وهبط في الآبار. تسلق أشجار المشمش الخضراء. ركض على الأرصفة وبين الحافلات. ثلاثون عاماً وسيور حذائه تقفز ذات اليمين وذات الشمال.. سياط بمستوى الأرض، تجلد الأيام المقبلة والأيام المدبرة، فوق وبر السجاد

وحصى الاستعراضات المحصنة بالخيول. وهاهي الآن وحيدة بائسة قرب حذائها أشبه بحشرة خارج صدفتها.

إنه مجزء مبعثر كزجاج نافذة قذفت بحجر، شامخ ومليء بالعهر والرضوخ، يموت عطشاً كي يكون امرأة.. امرأة في كوخ.. ذبابة في ميدان.. حذاء برتقالة.. طفل أعمى.. قرد في غابة، وليس رجلاً متسمراً بين أرض وسقف.

جميل ورائع بهذه البذلة المنتقاة والقمصان التي غسلت ونشرت مئات المرات أمام أعين المارة، ولكنه بحاجة الى شيء آخر.. خارج الجلد.. شيء ضبابي مفعم بالثقل والطاعة، لا يقفز ولا يهيم بل يلتصق ويتسمر من أجل الشكوى وهزّ الرأس كالجواد.. وردة من الجنون.. من الهستيريا.. تحفحف بأوراقها وتصغي. مكنسة تلم قشها كالذيل وتقعي قبالته تماماً أمام الفم والحاجبين لتراقب الفهد المحطم وهو يزحف كدودة القز على ورق الصحف ودورات المياه في سبيل التخلص من المثالب والشعارات الطاعنة في السن.

ناكح ولد أو ناكح جدار، رئيس شركة أو راعي غنم.. أي شيء يريد رفقته، يتشمم رائحته، ويقول له: كنت أحب وطني يا رجل. ليتهم يحققون معه الآن! في هذه اللحظة وهو يحوم كالعقاب فوق الآلام المتفجرة كسدادة الفلين. لتلك الآلام الكثير من الأشياء والقصص التي يود قولها.. أشياء لاتخطر ببال رجل شرقي. لأنها ليست في الذاكرة بل حولها.. تدور حولها منذ أجيال كلاب محنية الخواطر، عقبان ملتفة بأجنحتها، تعرف أن طرائدها في نقطة ما، وعليها أن تدور حولها وتدور حتى تنفجر الدائرة أو تتشقق أو تزول.. من المدرسة الى القمة الى ساحة الرمي.. شيء لا يحتمل.. شيء في

حجم وطنه وبؤسه وجنسيته يود الاعتراف به طرفاً وشهيقاً وخبطاً على الطاولات.. الآن الآن وفي هذه اللحظة والا انفجرت الدائرة وولت الطرائد.. الآن.. كأن هذه الأشياء التي سيتحدث بها عن وطنه وبؤسه وجنسيته قد ينساها فجأة كما ينسى حادث اصطدام في الشارع.

ولكنهم لم يأخذوه الى التحقيق ولا الى الحمام ولا الى الاعدام، ولم تهبط سلة من السقف ملأى بالأوراق والمهرجين. انه مازال وحيداً، مترامي الأطراف في هذه المملكة العجيبة، ولم يكن ليعكر عليه خلوته وأحلامه سوى الشرطي الذي يضع له صحون الطعام ويعود بعد قليل لأخذها ثم الحلاق الذي يحلق له ذقنه تحت رقابة شديدة.

كانت حلاقة الذقن في الصباح الباكر وبتلك الموسى الصدئة والماء المثلج عملية استشهاد حقيقية. ولذلك كانت أسنانه تصطك بين يدي الحلاق وهو يطبق فكيه فوق بعضهما كأسد تنزع لبدته أمام عينيه دون أن تكون له القدرة حتى على الشعور بالتوجع، أو الاشمئزاز.

وكان الحلاق كريهاً جداً وذا نفس شبيه بنفس الضبع، وعينين مليئتين بالعروق الحمراء الملتهبة، لا يعتذر ولا يرف له جفن. حتى ولو قطع أنفاً وأزاله مع الشعر والصابون لاعتبر ذلك من صميم اختصاصه، ولذلك كانت الجراح تتلو الجراح في وجه الفهد وعنقه وتحت جلد الحنك المهدد. جراح دقيقة تظلّلها بقايا الشعر والصابون. ولم يكن ليغسل وجهه أبداً، ولا يأكل ولا يتبرز ولا يتحرك. لقد قرر أن لا يقوم بأي مجهود يعيد الى ذاكرته تلك الحيوية التي يتمتع بها بضعة رجال صلفين يعدون على رؤوس الأصابع في العالم كله. الذاكرة الساطعة المستقلة.. كالمظروف الذي وضعوا فيه محتويات جيوبه.

وراح يضرب رأسه بالجدار. يتدحرج يميناً وشمالاً غارساً أظافره الطويلة في لحمه، رافعاً ساقه الحافية في الفضاء، مصغياً الى أظافره وهي تطوى وتتكسر على الاسمنت الأزرق العاري.

لقد انقلب فجأة الى فارس صغير من البلور، تحطم وتناثر في الزنزانة، ولم يبق منه الا السوط واللجام، وتلك الرغبة المحمومة في الركض، والقفز فوق العصيدة الجامدة وفضلات الموظفين المتدفقة في عروق الأرض.. عبر أسنان الموظف النخرة وأنين المرضى والمشوهين.

أبداً ترقد اليمامة على غصنها دون طبول وحاشية وجواربها تتأرجح على حافة المقعد، وافريقيا تثب كقطة من برتقال بين الأقفاص النهرية والفؤوس المعبقة بلحم العمال والمهاجرين، و «غيمة» مستقلة بكامل عريها وهياجها على سريرها العتيق مع زميلاتها العوانس، مضفورة الشعر، حزينة، تضرب اللحاف بكفها الصغير ثم تنهض وشاماتها الكرزية بلون رابطة نهديها الصغيرين، وغضاريف أذنها تأخذ لون البنفسج من كثرة ما تلهث بالقلم المبلل في أثناء الدراسة. كانت ترقد في حجره وتقرأ.. تقرأ عن الفلسفة واللغات الحية. وكانت دراسته الوحيدة هي ان يحك لها أسفل قدميها حيث تثور وتقاوم وتنتفض وتضرب وجهه بود ثم ما تلبث ان تمسح مكان اللطمة بيدها وتقبلها.. ثم تقذف الكتاب،وتشد ثوبها حتى الكواحل، وتعض في الزوايا تقاوم خلف الطاولة وكتابها بيدها ثم تصفعه على خده وهي تزمجر، ولكن ما ان يقابلها بتلك العينين الوحيدتين المقهورتين حتى تمسح مكان اللطمة بيدها وتقبله بشفتيها، ويذهبان الى الفراش وهي مزمجرة وعاصية ثم لا تلبث ان تهدأ كعصفورة تحت عصفورها.

وطار صوابه عندما صرخ صوت ما واخترق أذنه كالسكين..

صوت وحيد وشجي يؤكد لسامعه بأن للصمت ضريبة باهظة يجب أن تدفع في كل لحظة دون تردد أو مماطلة.

«ـ فهد التنبل».

«ـ حاضر».

«ـ هيا أمامي. وحذار أن تلتفت يميناً أو شمالاً. لا تأخذ شيئاً من أمتعتك. ستعود، واذا كنت في وضع لا يسمح لك بأن تدرك بأنك ستعود فعلاً سنخبرك بذلك.

لا.. دع حذاءك أيضاً فما من ماسح أحذية ينتظرك في الخارج. لا تتظاهر بالفزع والبله. هذا لا يمنعني من ضربك حتى تدخل الغرفة التي سأقودك اليها. نعم. انها رحلة ممتعة تحت المصابيح.. رجل أمام رجل..».

وأدرك أنه في أعماق الليل. نبش من أعماق الليل بطريقة بربرية مبرراتها أكثر عنفاً من دقات قلبه. رجل يرتجف أمام رجل. شيء رائع. شيء رائع. كأن تقول قرد يرقص أمام صاحبه. حرس متلفعون بمعاطفهم يذهبون ويجيئون،و الدهاليز المظلمة تنصرف بمشاتها كما تنصرف المضائق بقواربها. الأبواب تفتح بهدوء كأن الملائكة تفتحها وتغلقها. وفي الداخل يتبدل كل شيء، وتنفض الأمور كالقنفذ في الداخل. شيء يجري في الداخل له شرعيته ومبرراته. هاهو الماء يبلغ أرنبة الأنف، الأقنية الرومانية جاهزة للابتلاع بالأقدام الحافية والقميص المهدي من الحبيبة. وفي الداخل سيطفو كل شيء فوق التموجات الزرقاء.

ثم دفع من ظهره ليخترق فوهة ما بصعوبة بالغة تسلخت على أثرها خواصره وتمزقت ثيابه ليجد نفسه في طريق تحفه الزهور ونوافير الماء حيث

جلس عدد من المدنيين باسترخاء كامل يدخنون ويلعبون الورق. ولم يعيروه انتباهاً لا هو ولا الموظف المرافق له.

كل ما يعرفه أنه كان يتعثر ويرتطم وهو مسحوب من ياقته في الاتجاهات والممرات التي يجيدها المرافق ثم اختفت الزهور ونوافير المياه. فجأة أبنية متهدمة من اللبن وأكوام من الدواليب والأقذار والروائح الكريهة ونساء شمطاوات يغسلن ثيابهن في ضوء القمر بينما الكلاب تنبح وتعوي في مراقدها بينما راح عدد من الصبية القذرين المنبوشي الشعر، يتأملونه وهم يمضغون عرائس الذرة.

وصرخ الموظف : «انها تنتظرنا هناك... ».

«ـ ما هي».

«ـ السيارة».

ثم راحت السيارة تترنح وتتمايل بهما في طرقات وعرة مليئة بالأوحال والقطط الميتة، والسائق يغني، ويشعل لفائفه ويغني، الى أن توقف أمام بناء شامخ يحيط به الحرس المدججون بالسلاح. وترجل منها الفهد يصحبه الموظف المرافق الى الداخل، وهولا يفتأ ينبه عليه : حذار أن تلتفت يميناً أو شمالاً. انظر أمامك فقط. حركة واحدة وأفرغ هذا المسدس في رأسك. كان مستعداً. يسير مغلق العينين طالما أنه سيستجوب بعد قليل ويفرغ ما في أحشائه من أجوبة تكاد تنبثق من بلعومه، ولكنه لم يستطع. كان يرى من زوايا عينيه أشياء تقشعر لها الأبدان.. أغشية مخاطية حمراء وأعناق ملوية برؤوسها على الجدران، والسنة حمراء ناتئة من بين الأسنان، تفوق القدرة على النطق والحيوية التي تتمتع بها مثل هذه القطع من اللحم، وأشباح أخرى تئن فوق الأغطية وتحت الأغطية التي

ازدحمت بها الممرات والزوايا ومواقف السيارات التي تثاءب سائقوها خلف مقاودهم، ولكنهم جاهزون في أي لحظة للانطلاق ذهاباً واياباً. كان مرحاً في المقاهي. وسعيداً في باحة المدرسة وخجولاً في المبغى.

وكان الذباب يطن على شمع المحطات والأذرع الرفيعة المضمخة بالدم، وضوء القمر يشع ويتقلص عبر الكوى والطاقات الفارغة المظلمة التي يقابل بعضهابعضاً.

انها مقبرة كبيرة خاشعة لبرودة الشتاء، مجلدة ومهجورة تحت رحى الصلوات. العظام وحدها تتلألأ بما يسيل عليها أمام تلك الزمرة المنائية من الاتهام والبراءة، من الخوف والظلمة. جنون مطبق أن يقول شيئاً وأن يتجاهل شيئاً، ولكن عزاءه الوحيد أنه سيفرغ ما في أحشائه من أجوبة ونعوت وذكريات.

ثم دفع الى غرفة طويلة.. طويلة جداً ولكأنها نهاية العالم. وأغلق المرافق بابها بهدوء وخرج بعد أن أدى تحية نظامية للرجل الجالس في نهاية العالم.

وكان الموظف الكبير شاباً وسيماً أنيقاً لدرجة تجعل منه وسط هذا الخراب والفوضى شيئاً اسطورياً.

رفع رأسه عن أوراقه وسأله: «هل هناك ثألول في احدى يديك؟».

«- نعم يا سيدي.. ها هي».

«- خذه أيها الحارس الى مكانه».

وعندما أراد أن يفتح فمه مرة أخرى كان الموظف يغلق الباب بيده ويسحبه من ياقته باليد الأخرى.

وأعاده الى زنزانته من الطريق نفسها التي أتى منها. الطريق المزهرة والمتربة والمليئة بالدواليب والأطفال والنساء.

ولم يبق أكثر من ثلاث ساعات في غرفته حتى أعاده الى المحقق الجميل ذاته من الطريق المزهرة والمتربة نفسها والمليئة بالدواليب والأطفال والنساء ليسأله عما اذا الثالولة في يده اليمنى أم اليسرى. ثم أعاده الى زنزانته من ذات الطريق المزهرة المتربة والمليئة بالدواليب والأطفال والنساء. ولم يبق فيها سوى ساعتين حتى أعاده من ذات الطريق المتربة ليسأله الموظف الأنيق عما اذا كان اسم أمه لطيفة أم لطفية حتى اختل توازنه وكاد يفقد عقله،وأخذ يقضي ليله ونهاره وهو يحاول أن يتسلق الجدار كالعنكبوت، ويهوى على رأسه وأضلاعه الى ان هدأ في احدى الليالي هدوء الموتى. اسمي بالتفصيل.. أليس كذلك ؟ هي جريمة قتل أم قصة غرامية؟ كم ثالولة بيدي.. مائة مائتان.. مليون ثالولة.. ما علاقتكم أنتم. ثم وضع خده على الأرض وأخذ ينتحب. انه مسؤول فقط عن القسم الخارجي من الانسان.

ومرت الساعة تلو الساعة، ولم يقرع زنزانته أحد. كان غيظه يستمر، وتجاهله يستمر، مما أسبغ عليه طابع الحيوان المفترس. سأعطيهم درساً في الرجولة أولئك المتسترين بالأقمشة. سأجعل كل محققي السجون يتركون أقلامهم أمامهم ويصغون إليّ بعيون مشدوهة. رجل مقابل رجل، ولن يدع أي فكرة في العالم تعتريه وتسيطر عليه. سيتصرف بهذا الجزء اليسير من حياته كما يحلو له. سيدفع الفدية، ولكن هو ينتصب على مقربة من ضحيته.

وعند الساعة الرابعة صباحاً والهدوء يشمل كل الزنازين والغرف، سمع صرير المفتاح في باب زنزانته، فارتعش قليلاً. وعندما انفتح الباب وانتصب بين درفتيه الطاعون مات من الارتعاش.

***

تقدم الفهد بشكل متعرج نحو المحقق وهو يعبث بأزراره وطرفي سترته كطفل في أقصى حالات الدلال. وكان المحقق متحجراً وراء طاولته، عليها جهاز هاتف ومصنفات وحاملة أقلام، وقد أدخل سبابته في حلقة صغيرة تنتهي بحمامة نحاسية منبسطة الجناحين، وقد علقت القضبان على جانبين بواسطة حمالة خاصة كما تعلق الشوك والملاعق في المطبخ. وكان المحقق ذا عينين عسليتين وشارب أسود كثيف بلون الفحم وكأنه قد قبض على طائر سنونو في فمه منذ الصبا ولم يطلقه للآن.

ثم ارتفع الحاجبان قليلاً الى الأعلى، وانبعث من الوكر المختبئ بين جناحي السنونو صوت نسف كل الأوهام التي بناها الفهد عن قسوة الجلادين المعاصرين. صوت لا يصدر الا من تلك الأفواه التي اهترأت من ترديد الآيات البينات وتفسيرها للأطفال حول المدفأة: «فهد التنبل».

«نعم يا سيدي».

«ـ هل أنت خائف ؟».

«ـ جداً يا سيدي».

«ـ اذن يجب أن لا تخف بعد الآن. تفضل..».

وقدم له سيجارة وأشعلها له كضيف حقيقي. وعندما نفث كل منهما دخانه في وجه الآخر، عاد الصمت يخيم من جديد، الا أن المحقق فتح فمه وتكلم هامساً كأنه يحاول أن يتكلم دون أن يمس هذا الصمت المحبب في دوائر الأمن بأذى.

«ـ الأوضاع الاقتصادية مضطربة».

«ـ نعم مضطربة يا سيدي».

«ـ انه الفزع».

«ـ الفزع يا سيدي».

«ـ يريد أن يسلبنا حريتنا واستقلالنا، ولكننا لن نسمح له بذلك».

ثم نظر الى الفهد بعينين شاكيتين كأنه يخفي الحرية والاستقلال في جيبه.

«ـ نعم نحن لن نسمح له يا سيدي».

«ـ ولكن كيف..».

«ـ انني أحقق مع العشرات كل يوم. وكل واحد منهم يزيدني اقتناعاً بأنهم لو ولدوا خيولاً أو دواجن لكان خير خدمة يقدمونها لبلادهم. لقد قال لي أحدهم وهو مزارع من الشمال إنه يبيع كل استقلالات الدنيا ببيضة مسلوقة. يا للعار!».

«ـ يا للعار!».

ثم أشار بسبابته الى مكان معين وكأن هناك مئات الأشخاص في تلك النقطة بالذات:

«ـ كلهم أغبياء، ولا يستحقون الا الحجز والتهام الفاصولياء حتى تورق في معدهم. عفواً اذا كنت أرفع صوتي. انني أعتذر. ولكن لا تتصور كم تهمني حرية بلدي واستقلالها. ولكني لا أستطيع أن أضمنها اذا ما أغلقت مكتبي في الثانية بعد الظهر وهرعت لتناول الطعام ومضاجعة زوجتي. يجب أن يكون هناك من يسهر عندما ينام الآخرون والا انفجر كل شيء. وانني أحاول قدر الامكان أن لا أضرب أحداً، فالضرب للحيوانات كما تعرف، ولكن بعضهم يضطرني الى أن آكله بأسناني. أحد المفكرين بعد أن تهيأت للتحقيق معه وكدت موشكاً على اطلاق سراحه واذ به يقول: اننا نحن المحققين نقع دائماً بأخطاء «ميتا.. ميتافيز..». اللعنة على هذا الاسم كيف يلفظ دفعة واحدة. لا أعرف».

ثم قلب بعض الأوراق في مصنف جانبي، ثم قرب إحدى صفحاته الى وجهه قائلاً : «ميتافيزيقي نعم ميتافيزيقي. وطبعاً لم أتحمل هذه الاهانة. وجلد كالكلب. ولا يزال رهن التحقيق للآن».

«ـ انه يستحق يا سيدي لانه من المستحيل ان تخطئوا في شيء».

ونظر بحركة لا شعورية الى السياط المعلقة في حمالاتها :

«ـ ماذا كنت تعمل غير الصحافة؟».

«ـ في الشعر».

وقطب المحقق وجهه باهتمام كأنه قال له أنه يعمل في التشريح.

«ـ تكتب عن الجنس؟».

«ـ عن كل شيء يخطر في الذهن الانساني».

وقال له مشجعاً : «لابأس. لابأس ان يكتب الانسان قليلاً من الشعر. لقد سمعت مرة شاعراً في أحد الموالد. وكان معه زميل آخر يدق على العود وآخر يرقص. وقد جمعوا كثيراً من المال، وانصرفوا حتى ان والدتي رحمها الله نصحتني يومها أن أكون شاعراً. وعلى كل حال انها الظروف. كل يتجه وجهة معينة في الحياة. أين الآلة؟».

«ـ نعم ؟!».

«ـ الآلة».

«أية آلة يا سيدي؟».

وخبط المحقق بيديه على الطاولة حتى قفز كل ما عليها في الهواء :

«الآلة.. الآلة التي كنت تستعملها في غرفتك».

«انني لا أعرف عمّ تتحدث يا سيدي. أنا اسمي فهد التنبل قد يكون هناك شخص آخر».

«ـ محتمل.. محتمل، ولكن أمتأكد من أنك لا تعرف شيئاً عن الآلة؟».

«نعم يا سيدي».

«ـ وما هي آخر قصيدة كتبتها؟».

وابتسم الفهد بحياء كأنه بال على نفسه: «ريح المنفى».

«ـ وهل القلم الذي كتبت به تلك القصيدة موجود معك؟».

«ـ نعم يا سيدي. هذا هو».

وأخذ يشد القلم المستعصي في بطانته الممزقة بقوة وكأن قرادة التصقت بلحمه: «هذا هو يا سيدي».

وتناول المحقق القلم، ورفعه من طرفه في وجه الصحفي قائلاً بنعومة بالغة: «إنه قلم جميل. انه لك. أليس كذلك؟».

ثم قال صارخاً كالرعد: «هل ترى هذا القلم؟ انك تراه طبعاً لأنك لست أعمى. بامكاني أن أضعه مع محبرته في مؤخرتك اذا لم تقل لي أين الآلة».

وصعق الفهد، وأدرك ان الموضوع أخطر مما يتصور، ثم ازدرد لعابه قائلاً: ولكن هل من الممكن أن توضح لي ما هي تلك الآلة التي تريدها أن تكون في غرفتي».

«ـ لا تريد أن تعترف.. أليس كذلك؟»

«ـمعاذ الله يا سيدي، ولكن المهم...».

«ـ المهم أن أرى هذا الفم بلا أسنان.. وهذه الأسنان بلا لسان».

وهوى على وجه الفهد بالمحبرة الزجاجية بينما تابع الفهد والدم يقطر من ذقنه: «ولكن أية آلة يا سيدي؟ أريد لمحة عنها».

ومدّ المحقق يده كالسيف وهوى بها على فهد التنبل بشكل أفقي، فأصابته في عنقه، هوى على أثرها على ركبتيه وهو يعوي كالذئب، وتشبثت أسنانه بحد الطاولة الخشبي، بل غرسها غرساً في الخشب الصقيل.

ونهض على ركبتيه مرة أخرى. كانت النافذة محطمة الزجاج وراء المحقق. ومن خلالها تئن الأسلاك الشائكة ومخافر الحراسة.

جبال نجوم قمر.. جبال وطنه، نجوم وطنه، قمر وطنه، كلها بعيدة ومراوغة بينما لاحت له شجرة جرداء تنحني وتنتصب مع الريح، تخبط أغصانها خبطاً على التراب كأنها تبحث عن غرسة صغيرة فقدتها وهي نائمة:

«ـ أين الآلة ؟ ».

«ـ لا أعلم».

«ـ أين الآلة؟ ».

«ـ لا أعلم».

«ـ أين الآلة؟ ».

«ـ.....».

وهوى على صدره،وذراعه اليمنى ممدودة كقائد يهيب بفلوله ان تتقدم بعد ان صرعه العدو.

***

زرر المحقق سترته، ووقف باحترام بالغ للشخص الذي دخل في تلك اللحظة. ويبدو انه كان المسؤول المباشر عن القسم الداخلي للسجن. كان نحيلاً جداً، ويده اليمنى مقوسة تشكل مع ابهامها وسبابتها الملتصقتين

باستمرار ما يشبه الملقط. وكانت عروقها خضراء حية لا تترك مجالاً للشك في أنها مروية بدم وحشي لا ينضب، وسأل وهو يسحب كرسياً ويجلس عليه: «ألم يتكلم بعد؟».

«ـ أبداً.. انه يتجاهلها تماماً».

«ـ منذ متى أغمي عليه؟».

«ـ منذ خمس دقائق تقريباً».

«ـ من هشم حافة الطاولة بهذا الشكل؟ يجب أن تنتبه لمفروشات المكتب».

«ـ غافلني وعضّها بأسنانه».

«ـ هم هم. انتبه انه خطر».

«ـ بل جبان».

«ـ ولكن ألا ترى الى هذه الندوب البيضاء في رأسه؟ إن شعر الانسان كثيراً ما يخفي ماضيه».

«ـ إنني أراها يا سيدي، ولكنها كلها من الخلف كما تلاحظ. وهذا يعني أنه جبان وهارب باستمرار».

«ـ ولكنه لم يصرخ أبداً».

«ـ وهذا ما يحيرني».

«ـ بل انظر اليه كيف هو منتفخ: إنه مليء بالصراخ».

«ـ هل السيدة موجودة؟».

«ـ نعم إنها تشرب الشاي في غرفة الحرس».

«ـ اذهب وأحضرها. ولا تنس ان تغسل يديك من الدم».

وتثاءب الانسان البربري وهو يتأمل بقعة جامدة من النجيع تحت خد

الفهد. ودخلت في هذه الأثناء امرأة شقراء ذات ثديين كبيرين جائعين، فوقف لها المشرف العام مرحباً وباسماً، وسألها وهو يقدم لهامقعده معتذراً عن صلابته التي لا تتناسب وهذه الطراوة الملتفة في هذه الملاءة: «هل هذا هو الرجل الذي كنت تراقبينه من نافذتك؟».

«ـ نعم. انه هو بعينه».

ثم أشاحت بوجهها، عنيفاً، متصنعة الألم والشفقة لمنظر الدم المتجمد على فمه وذقنه، وقالت وهي ما زالت تلوي عنقها باشمئزاز: «نعم. إنه هو بشحمه ولحمه. وكنت أحار في أمره اذ لا يغادر غرفته مطلقاً. أقول عنها غرفة تجاوزاً مع ان الحمير لا يمكن ان تمكث فيها يوماً واحداً دون أن تفقد وعيها. أربعة أشهر وهو يذهب ويجيء في تلك الغرفة. يجلس خلف الطاولة وكأنه لن ينهض حتى الشيخوخة. واذ به ينهض فجأة ليحدق من النافذة من وراء ستارة خضراء، فشككت بالأمر بعد أن اقتنعت انه ليس مريضاً، ولكن شكي لم يتحول الى يقين الا عندما لاحظته مراراً وتكراراً منهمكاً في تلك الآلة الصغيرة، يفكها ويركبها ويقذفها ثم يعود لالتقاطها مرة أخرى وهو يهز رأسه، ثم يحضر شخص ما ليأخذها ويمضي».

«ـ هل هي كبيرة؟».

«ـ لا بحجم عصارة الليمون. ربما كانت أكبر، ولكنني كنت أراها».

وهنا قال المحقق الأول: «يجب أن لا تنسى يا سيدي المسافة التي تفصل غرفة السيدة عن غرفته».

وسأل المشرف العام: «هل كان ينبعث منها صوت؟».

«ـ لا أستطيع الجزم، فضجة الشارع لا توفر لي تقدير ذلك».

«ـ هل أنت متزوجة ؟ ».

«ـ نعم.. ولكن زوجي يعمل سائقاً في احدى شركات البترول. وقلما يحضر الى المنزل.واذا حضر فليبدل ثيابه ويعود الى الصحراء. ولذلك تراني ضجرة باستمرار الا ان مراقبة هذا الشخص روحت عني كثيراً. أوه لقد تأخرت. هل يمكنني أن أذهب؟ ».

«ـ سأوصلك بسيارتي ».

«ـ شكراً، ولكن اذا لم يكن هناك من مانع، أريد أن أتصل باحدى شركات التاكسي ».

«ـ بل سأوصلك حتى فراشك يا سيدتي. لقد قدمت لنا ولوطننا خدمة لا تنسى ».

وراح يلهث وهو ينظر الى نهديها الأبيضين الشهيين.

ودخل المحقق السمين وهو يتذمر: «اللعنة عليه ! دمه لزج كالدبس. هل تعرفت عليه السيدة؟ ».

أجاب المحقق النحيل : «فوراً».

«ـ هل تريد أن تستأنف التحقيق معه شخصياً؟ ».

«لا.. سأوصل السيدة الى منزلها. تولّ الموضوع أنت ».

«ـ الليلة ؟ ».

«ـ كما تريد ».

«ـ أظنني سأتابع التحقيق معه عندما يصحو ».

وانتصبت المرأة وهي تقول: «أتمنى أن أرى ولو مرة كيف تحققون مع المجرمين ».

«ـ في مناسبة أخرى ان شاء الله. حذار يا سيدتي ان يتلوث حذاؤك بالدم ».

«ـ أوه.. شكراً.. كاد يتلوث».

«ـ الى اللقاء».

«ـ الى اللقاء».

ومضت السيدة يتبعها المحقق النحيف الذي أخذ يحل ربطة عنقه كأنه يريد أن يخلع ثيابه منذ الآن. ثم دخل أحد الحراس وتعاون مع المحقق، فحملا الفهد من تحت ابطه وجراه خارج الغرفة بينما راح آخر يمسح بقع النجيع بممسحة مبللة بالماء، ثم أغلق النافذة، وأطفأ المصباح وهو يغني أغنية ريفية حزينة.

الفصل الرابع

كانت فقاقيع الدم المتناثرة على شاربيه وفمه قد انفقأت وأصبحت فارغة كقشور التين. وبحث فهد التنبل عن ذراعه دون جدوى اذ كان لا يعرف إن كانت مطوية تحت عنقه أم انه نسيها في غرفة التحقيق، ونظر بعينيه المتورمتين باتجاه الباب، فرأى طعامه وملعقته، فرفسهما بغضب. قلص ساقه كالصقر الذي ضرب فريسته في الهواء، وأخذ يصغي باشمئزاز الى رنين الصحن وهو يصطدم بالجدران والى مرق الفاصولياء الذي سال قليلاً وتجمد في مكانه.

«ـ ألا يعجبك الطعام؟».

«ـ يعجبني، ولكني قلبته خطأ».

«ـ اذن حذار مرة أخرى وإلا جعلتك تلعقه بلسانك». ثم جاء ممرض هزيل قميء، وسأله إن كان يشكو من شيء.

«ـ نعم. أريد غطاء أو قميصاً. بطني يكاد يتمزق من الوجع».

«ـ هذا ليس من اختصاصي أنا ممرض ولست خياطاً».

«ـ نعم هذا ليس من اختصاصك».

«ـ هل تؤلمك بطنك فقط؟».

«ـ بطني فقط».

«ـ هل تريد أن أغسل لك جروحك بالكحول؟ ».

«ـ لا شكراً. سأغسلهما بالماء صباحاً».

وضحك الممرض، وقال: «إنها الساعة الثانية عشرة أيها الكسول».

«ـ اذن سأغسلها مساء».

«ـ أأنت الصحفي الذي يهاجم الدولة في الجرائد؟ ».

«ـ نعم يا سيد».

«ـ لماذا يا بني؟ ».

«ـ لا أعرف. كنت أريد أن أعيش».

«ـ هل من خدمة أؤديها لك قبل أن أذهب؟ ».

«ـ نعم.. أن تسارع في الذهاب».

وانتفض الممرض قائلاً: «الى جهنم. عندما يريد الانسان أن يكون انساناً بالفعل، تلبطونه على خصيتيه. الى جهنم وبئس المصير.. ».

وقطع ثورته دخول المحقق النحيف بسروال نصف ازراره مفتوحة.

«ـ اذن تريد أن تتجاهل تلك الآلة ظناً منك بأن الصمت هو الوسيلة الوحيدة للخلاص؟ انك مخطئ. وقبل أن أقول لك ما هو وجه الخطأ، أريد أن أقدم لك هذه المفاجأة».

وفتح الفهد عينيه بصعوبة، وقال: «أية مفاجأة يا سيدي؟ ».

«ـ مفاجأة لن تحلم بها وأنت تقرأ الشعر المخنث لحبيبتك. إنها بصقة. خذها واذهب بها الى جهنم».

ورفرف الفهد بجفنيه طويلاً حتى استطاع ان يغلقهما ويتفادى ذلك الرذاذ الذي خلفه فم المحقق. وراح يزفر ببطء، ويخفي وجهه بيديه عندما رأى شرذمة من رجال الشرطة بما فيهم الذي مات والده ولم يشترك في عزائه قد عقدوا ما يشبه الطاولة المستديرة قرب رأسه وبدأوا يتحاورون:

«ـ انظروا الى الذي يكتب في الجرائد. لقد رفس طعامه قبل قليل».

«ـ آه الفاصوليا ء تؤذي بطنه».

«ـ يريد لحماً مفروماً. انظروا اليه. أدار رأسه كالجرو نحو الجدار. انه يخجل منا».

«ـ لن يرضى عنا الا اذا أحضرنا له امرأة مع كل وجبة».

«ـ كالتي رافقها سيدي المحقق».

«ـ لا أظن. انه «شكر» كما يبدو».

«ـ شكر»؟! يا لك من حمار! الأدباء ينامون مع أمهاتهم».

ثم اقترب أحدهم من الفهد، وحرك رأسه بواسطة عصا.

«ـ هيه. إنه نائم».

«ـ لا أظن. مغمى عليه».

«ـ الى جهنم».

وخرجوا وهم يشدون أحزمتهم المنتهية بالمسدسات، ويثرثرون في طريقهم الى مهاجعهم:

«ـ للمرة الرابعة يحققون معه ولا يتكلم. اشتركت أنا منذ لحظات في جلده حتى اخضر ذراعي ولم يتكلم عنها».

«ـ من هي؟».

«ـ الآلة».

«ـ أية آلة؟»

«ـ يا لك من دب! الدائرة كلها مشغولة بتلك الآلة وأنت تسأل ما هي».

«ـ هل أحرقتم جلده باللفائف؟».

«ـ أقول لك.. لم نترك وسيلة إلا واستعملناها بكل اخلاص ولم نفلح.

غرسنا الدبابيس تحت أظافره وأخذنا نضربها كالأوتار. أجلسناه عارياً على لهب البابور، وفي الماء المثلج. ضربته بمطرقة على أضلاعه. وهززت رأسه بيدي كالطفل ولم يتعلم».

«ـ ولم يعترف ؟ ».

«ـ ولا صوت حتى. وهذا أكثر ما أغاظ سيدي المحقق. إنه يكاد يجن. ولكنه كان يهمهم في بعض الأحيان بكلمات غاية في الغرابة. كلمات جعلت سادتي المحققين ينقلبون على أقفيتهم من الضحك حتى انهم سمحوا لنا نحن الأنفار ان نضحك معهم».

«ـ عن الآلة؟ ».

«ـ لا.. عن أشياء لا يقولها الا المجانين : لقد طار العصفور الأزرق.. لقد نامت الفراشة على حافة المصباح.. ولم تحترق لأن النار كانت خابية والريح تولول.. ».

وانفجر الجميع بالضحك، وتابع الشرطي : «كنت أضربه وأنا أضحك حتى أن المحقق أشار عليّ أن أرتاح قليلاً».

«ـ هل الضرب ممتع؟ ».

«ـ بل مسكر أيضاً وخاصة عندما لا تصرخ الضحية حيث يصبح عملك أشبه بنوع من البطولة الخارقة والمؤلمة.. أشبه بتحطم صخرة باصبعيك».

«ـ ولكن معظمهم يصرخون منذ السوط الأول».

«ـ بعضهم يصرخ، وبعضهم لا يصرخ. لقد رأيتهم مرة من النافذة يجلدون عجوزاً مسناً. لم أسمع الصراخ لأن النافذة كانت مغلقة، ولكني كنت ألمح على كل حال فم السجين وهو ينفتح وينغلق كفم الحوت».

«ـ بل يجب ان تشارك في العملية شخصياً كي تحس بنشوتها. مراقبة الألم من وراء الزجاج شيء مضحك كالأطرش الذي يسمع موسيقى. يجب أن تكون في الداخل رافعاً مرفقك الى أقصى ما تستطيع محدقاً بعينيك في الجلد المخضب والأرجل المرفوعة كأرجل الماشية في الهواء. بعضهم يتبرز في سراويله، وهؤلاء ندفعهم بالأقدام الى مكان آخر. وبعضهم يظل محدقاً اليك كأنك تضرب رجلاً سواه. مثل هذا المفكر اللعين. لقد أرهقني فعلاً. كانت عيناه زرقاوين جداً، وأهدابهما تنفض الدموع بتثاقل وتعالٍ. ماذا تظنون أنني فعلت عند ذلك؟ لقد جلدته على عينيه.. جلدته حتى اختفتا تحت الورم، ولم أعد أفرق بين أنفه وعينه، ولم يصرخ ابن الداعرة حتى انني اندفعت نحوه لأخنقه في احدى لحظات الانهيار اذ ما من شيء أكثر مدعاة للأسف والحزن من أن تجد أن معركتك بلا صدى وحيدة مكروهة. نعم اندفعت اليه لأخنقه كما أشار بذلك سيدي المحقق صارخاً : اخنقه يا عبد اخنقه. وعندما هممت بذلك، صرخ في وجهي بأعلى صوته : اخرج من هنا قبل أن أملأ أحشاءك بارودًا، كأنه يعتبرني مسؤولاً عن صمت هذا المأفون، كأنني أحتكر صراخه في جيبي. لقد عملت جهدي أيها الزملاء، ولكن دون جدوى. السوط الذي استعملته هذا اليوم كان بحجم اصبعي هذا. لقد ذاب على جلده، وعندما علقته بعد ذلك على حمالته كان رفيعاً كالسنبلة». ثم أشعل لفافة وهو يرتجف وتابع قائلاً : «لا أبالغ اذا قلت لكم انه لو جمعنا باستمرار قشور اللحم والسياط وكتل الدم المتجمدة المتدفقة من أفواه السجناء وملاقط المرضين لكان عندنا جبل كامل من هذا، ولكننا نمسح كل شيء حتى ليبدو كل شيء نظيفاً ولامعاً في الصباح كأنه صقل بورق الزجاج. سيدي المحقق يجب أن

يراها لامعة في الصباح. لقد وجد ذات صباح بقعة صغيرة وسط الغرفة. فهاج وماج كالثور، وصرخ : امسحها فوراً.. اكشطها بالمسدس. لتنزل اللعنة على رأسي اذا كنت أكذب.. لقد تكسرت أظافري وأنا أحاول ازالتها دون جدوى. وهل تعرفون ماذا كانت؟ ».

« ـ ماذا كانت؟ ».

« ـ ليست قطعة علك أو مربى العلب. لا أبداً. كانت دمعة.. دمعة سميكة معرقة بالدم، متشبثة بالرخام كالحشرة. وكلما لمستها تقلصت باستغراب كأنها تريد أن تبقى للذكرى. وحتى أخفيها عن الأعين أخفيتها تحت ساق الطاولة ».

ثم سعل سعالاً خانقاً حتى خاله زملاؤه سيفارق الحياة.

***

بعد أن أستُعمل كل ما في المنزل من بصل وتراب، صحت أم الفهد وانتصبت طالبة ملاءتها. الآن فوراً وإلا أطاحت بجميع الرؤوس المحيطة بها. يجب القيام بمحاولة أخيرة ومجدية لردعهم عن الاستمرار في تعذيب ذلك الطفل الصغير الغالي لأنه يكتب ويقرأ بعض الأشياء التي لا تروق للآخرين.

كانت أم الفهد تعرج بكبرياء وسط العاصمة، وحيدة ومتزنة وسط ذلك الخلل العظيم، مؤمنة ان من زرع حصد ومن سار على الدرب وصل. ولذلك شدت حجابها باحكام على وجهها رمزاً للشرف والفضيلة، وسفيرة حقيقية للريف المبتل بالقذى والهواجس في هذه المدينة البعيدة. ساهية بطبيعة تربتها وسلوكها وحشمة أجدادها عن نار الشهوة وحزام الغدر مع أن زوجها أوصاها بحرارة أن تحترس كثيراً من السيارات وسائقي

السيارات، وأن لا تمشي في منتصف الطريق، وأن تضرب ببابوجها أي شخص يحاول التحرش بها ومراودتها عن نفسها، وأن لا تترك في الوقت نفسه فرصة تفوت دون أن تسأل عن ابنها الفهد، ومن أين يأكل ومن يغسل له ثيابه وخاصة أولئك الذين يرتدون قبعات ويعلقون شيئاً ما على أكتافهم وصدورهم. لقد ألحّ عليها كثيراًوهو يناولها وعاء الاستفراغ محدقاً وجلاً الى الباص كأنه وحش قد يفترسه في أي لحظة بأن تشرح لهم الأمور بالتفصيل وتؤكد لهم بأن لا أحد لهم في هذا العالم سواه، وأن أباه مريض، وإلا لحضر شخصياً الى المدينة ووضع الأمور في نصابها، ولكنه لا يستطيع الحضور لأنه يدوخ من السيارة حتى انه لم يجرؤ على الاقتراب منها لتوديعها، بل تابع توصياته صارخاً والباص يزأر ويهتز بجميع ركابه : لا تسيري في منتصف الطريق وأغلقي الباب من الداخل حين تنامين.وإياك وأن تعودي إلا وطفلك معك وإلا سأذهب بنفسي ولو لفظت أنفاسي على رفراف السيارة لأقيم القيامة في دوائر الحكومة. أكدي لهم أن لا علاقة لنا ولابننا بتلك الآلة السخيفةالتي يبحثون عنها.

وبحثت من خلف حجابها الأسود عن رجل يفهم هذه الأمور، عن شخص يلبس قبعة ويضع على صدره تلك الأشياء التي تلمع، فلم تجد خيراً من شرطي كان يبدو في تلك اللحظة كأنه سيضع المسدس في أذنه وينتحر اذا لم تحدث معجزة تنظيم السير.

«ـ يا أفندي.. ».

«ـ....».

«ـ يا أفندي.. هل تعرف أين سراي الحكومة؟ ».

«ـ نعم أعرف».

«ـ أين هي ؟ ».

«ـ من هي ؟ ».

«ـ سراي الحكومة ».

«ـ لا أعرف أو بالأحرى أعرف. انها في جهنم في مؤخرتي إن أردت جواباً حاسماً على ذلك ».

«ـ شكراً يا بني ».

وغصت بالبكاء، ثم تمخطت، وسارت بخطوات أكثر بطأ مما مضى. تتلفت يميناً وشمالاً كأنها تتوقع أن ترى ابنها يطل من أي نافذة أو باب. أشاروا لها أن تذهب الى هناك، فذهبت الى هناك، فوجدت نفسها أمام بناء كبير يدخل الناس فيه ويخرجون منه بكميات كبيرة، فدخلت مع الداخلين وهي تحاول ان تلفت نظر الجميع الى انها دخلت، ثم راحت تبحث بعينيها عن رجل يلبس قبعة، فوجدته في نهاية الممر، فخفت اليه وخاطبته بعد أن رفعت حجابها قليلاً : «هل هذه الدائرة للحكومة يا بني ؟ ».

«ـ نعم يا خالتي. ماذا تريدين ؟ ».

«ـ ابني... ».

«ـ ما اسمه ؟ ».

«ـ فهد.. فهد التنبل ».

«ـ اذهبي الى الطابق الثاني واسألي عن محمود أفندي السكرتير العام ».

وأشار اليها أن تغرب عن وجهه الى هناك وهو يحيي شخصاً قادماً، فمشت بهدوء واتزان الى هناك حيث كان المصعد مفتوحاً والناس يدخلون اليه متمتمين معتذرين، فترددت قليلاً في الدخول اليه كأنه مرحاض الى

ان صرخ بها العامل المختص: «هيا يا خالتي.. هل تسيرين على بيض؟».

وأغلق باب المصعد، وشعرت ببعض الزهو والوجل وهي ترتفع عن الأرض مثل هؤلاء الناس تماماً. وتوقف المصعد وخرجت مع الخارجين. وسألت أول شخص صادفته في طريقها: «من فضلك.. محمود أفندي».

«ـ اسألي ذاك العجوز».

«ـ من فضلك.. محمود أفندي».

«ـ اسألي عنه في المكتب».

ودخلت الى المكتب، وسألت كل من في المكتب دون أن تعرف أين محمود أفندي.

«ـ محمود أفندي كان هنا. ولكنه الآن ليس هنا. اسألي عنه في الطابق الرابع».

وصعدت بالمصعد الى الطابق الرابع، فقالوا لها إنه في الطابق الأول. وهبطت الى الطابق الأول، فقالوا لها إنه في الطابق الثالث. وصعدت الى الطابق الثالث وهي متأكدة أنها قطعت مرحلة طويلة من مهمتها، وأن محمود أفندي لابد من أن يكون رجلاً مهماً طالما لا يثبت في مكان.

وكان الطابق الثالث فسيحاً نظيفاً، أقل ضجة وأكثر رهبة، تضجّ فيه أصوات الآلات الكاتبة والنداءات الطويلة الحاسمة، فخفق قلبها، وتأكدت انها وصلت الى المكان المطلوب. وسألت رجلاً جاوز الخمسين يؤكد لزميل له بأنه سيضع ساقه في مكان من أخت الوزير اذا لم يوقع له قرار تعويضه.

«ـ نعم ماذا تريدين؟».

«ـ محمود أفندي».

«ـ أي محمود أفندي؟ ».

«ـ محمود أفندي الذي كان في الطابق الثاني منذ قليل وصعد الى هنا ».

«ـ محمود أفندي.. محمود أفندي. اسألي عنه في الداخل ».

ودخلت الى مكتب فسيح يضم ثلاثة كتبة على جانبيه وواحد في الصدر يبدو من سيمائه انه محمود أفندي.

«ـ حضرتك محمود أفندي؟ ».

«ـ نعم.. ماذا تريدين؟ ».

«ـ ابني.. أريد أن أعرف شيئاً عن مصير ابني الفهد ».

«ـ وهل يعمل هنا؟ ».

«ـ نعم.. وهو معتقل من أجل السلامة العامة ».

«ـ يا خالتي هنا وزارة الزراعة ».

وعادت محطمة الى الفندق بعد أن سألت وتساءلت ألف مرة أين يقع ذلك الفندق محاولة قدر الامكان ان لا يمسها أحد ولا تمس أحداً من المارة من هؤلاء الوحوش، ثم أغلقت باب غرفتها من الداخل، ثم نزعت ثيابها وحذاءها، وأكلت بيضتين مسلوقتين، ونامت وفي قلبها جرح عميق.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت الى دائرة العدل كما نصحها نزلاء الفندق، فراحت تعرج بهمة ونشاط كأنها ستجد العدل يلف ساقاً على ساق بانتظارها، فصعدت بكل شوقها وآمالها الى الطابق الثالث،وعادت الى الثاني، وصعدت الى الخامس، ثم عادت من جديد الى الشارع في طريقها الى الفندق بعد أن سألت وتساءلت ألف مرة أين يقع ذلك الفندق، ثم أغلقت باب غرفتها من الداخل ونزعت ثيابها وحذاءها وأكلت بيضة واحدة فقط، وأوت الى فراشها.

وفي الصباح ذهبت الى الدائرة المسؤولة فعلاً عن مصير ابنها بعد أن استنفدت كل حنانها وفضولها في الاستفسار عن المكان الحقيقي لاعتقال الأشخاص الغرباء بعضهم عاملها باحترام، وبعضهم سخر منها، وبعضهم حاول التلميح لمفاتنها، فارتجفت أرنبة أنفها أكثر من مرة وهي تدق أرض العاصمة بينما وجهها صابر أليف. دخلت تترنح، محتقنة بالغضب واليأس. لقد نفدت نقودها تقريباً، واتسخ جورباها وملاءتها وهي تصعد وتهبط من دون جدوى. أين ابنها؟ هل قتلوه؟ هل يخبئونه في علبة؟ ماذا فعلوا بذلك الطفل الأشقر المسكين وسألت أول شخص صادفته يجلس وراء طاولة وروحها في رأس أنفها: «أريد ابني... ».

«ـ أي ابن؟».

«ـ فهد التنبل. أريد أن أراه الآن بدلاً من أن أراك أنت. لقد نفدت نقودي وسرقوا ما تبقى منها في وزارة العدل ثم سخروا مني وقالوا ادفعي مالاً لأحدهم كي ينادي على ابنك في الشوارع. لا لست مختلة كما تظن وعندي من العقل ما يكفي لغمرك حتى أخمص قدميك. ومع ذلك أقبل قدميك يا سيدي وقل لي أين هو».

ورفع الموظف رأسه بعد أن فرغ من كتابة شيء لا يمت الى الموضوع الراهن بصلة: «نعم والآن ماذا تريدين يا خالتي؟».

«ـ أريد ابني ابني. هل كنت أكلم الحيطان؟».

«ـ ما اسمه يا خالتي؟».

«ـ فهد التنبل».

وراح الموظف يقلب بعض الأوراق وهو يردد كالآلة: «فهد التنبل.. فهد التنبل.. نعم هذا هو فهد التنبل. موقوف ١٩٥٨/١٢/٩. التهمة لم تحدد بعد».

«ـ حسناً. لا تظن أني سأنصرف بمجرد أن أخبرتني ان اسمه مكتوب في أوراقك. أين هو؟».

«ـ ابنك موجود في مكان أمين، ولكن لا يمكننا الافراج عنه. وعليه أن يتحمل نتائج عمله».

«ـ وماذا عمل؟».

«ـ لقد كان يشتم الحكومة».

«ـ يشتم الحكومة! هه. ومن لا يشتم الحكومة؟ سائق السيارة من ساعة انطلاقه من القرية حتى لحظة وصوله الى العاصمة وهو يشتم الحكومة. الركاب جميعهم فعلوا ذلك. وفي الفندق أيضاً اذا طنت ذبابة في أذن أحدهم يشتم الحكومة. فما الجديد الذي أتى به ولدي فهد؟ أرجوك يا سيدي أن تأتيني به، فليس لي في هذه الدنيا سواه. واذا عدت الى القرية ولم يكن معي سيصاب والده بالجنون. انه بكرنا..».

وصرخ بها المسؤول: «كفي عن البكاء يا امرأة. ابنك خطر. ولا يمكننا الافراج عنه في هذه الظروف. إنه أكبر داعية باسم الاقطاعيين».

«ـ ابني يتعامل مع الاقطاعيين؟»! يا ويلك من الله. أنا التي تعرفه لا أنت. يخجل من النسيم. واذا رأى فراشة تموت بكى طوال الليل. إنه الوحيد في قريتنا الذي كانت لا تخافه عصافير الدوري بل تحط على رأسه وكتفيه، وتمتص لعابه من بين شفتيه. لا. ابني ليس خطراً، ويكره الاقطاعيين أكثر مما تتصور أنت يا من تعتقد نفسك عنوان الشرف والنزاهة لمجرد أنك ترتدي هذا البنطلون. أنا أعرف ابني. كان عمره تسع سنوات عندما قذف جواد الأمير بحجر، وكان يقصد جمجمة الأمير بالطبع لأنه قذف له أجرته من فوق صهوة الجواد. كان بالطبع سيأخذها لو أعطاه

اياها يداً بيد، ولكن ان يقذفها له والسوط في يده فهذا ما لم يحتمله ولدي الصغير، ولذلك قذف الأمير بحجر حتى صهل الجواد المغطى بالصوف والأجراس وظل يضرب الأرض المتربة بحوافره حتى أدماها وكأنه يطلب من فارسه العودة والانتقام من الطفل وهل تظن أن الطفل هرب؟ أبداً بل مكث واقفاً يلهث بأنفه الصغير أمام الأمير وسوطه وجواده. وكان قميصه الرقيق يخرج نتفاً على طرف السوط الذي انهال عليه فجأة. لقد ضربه حتى أدماه، وأصبح جلده مقلماً كسترتك تلك. ولم يبك بل كان يثب في الهواء لالتقاط طرف السوط وعضه بأسنانه إن أمكن. وهل تظن أن أحداً من رفاقه الصغار والذين يتقلدون أعلى المناصب الآن، فكر في انقاذه؟ أبداً انما تركوا الطفل يتخبط في الغبار وسارعوا الى مساعدة الأمير في الترجل عن الجواد وقدموا له سوطه ممسوحاً تحت آباطهم من دم الطفل...».

وأخرجت أم الفهد منديلاً بحجم الشرشف، وأخذت تتمخط به وتبكي.

«ـ يا خالتي هذه أشياء قديمة لا علاقة لها بالموضوع. إن اضبارته تقشعر لها الأبدان».

«ـ ماذا تقصد باضبارته يا ولد؟!»

«ـ لا حول ولا قوة الا بالله. يا خالتي.. ولدك موقوف باسم القانون، ولا يمكنني أن أفعل لك شيئاً سوى أن أردد أمامك: لا حول ولا قوة الا بالله».

«ـ كيف لا يمكنك ذلك يا ولد؟ ثم أي قانون هذا الذي يمنعني من رؤية ولدي حتى أصفعه بيدي؟ الدنيا كلها تقول ان لا قانون هناك. اللحام والسائق والسنكري وراعي الغنم.. كلهم يقولون ان لا قانون هناك، فبأي وجه تتبرع حضرتك وتؤكد وجوده؟».

«ـ أرجوك يا خالتي وكفاك عطاساً في وجهي. عودي بعد أسبوع».

«لن أتحرك من هنا».

ونهض موظف آخر كان لايزال صامتاً وهو يعمل على آلته الكاتبة في الزاوية القصية، واقترب منهما صارخاً بالموظف بطريقة معينة: «لماذا تعذب هذه العجوز يا رجل؟ دعها ترى ابنها. لماذا لا ترسلها الى حيث تجده بانتظارها؟ تعالي يا خالتي.. لا العفو..».

وسحب يده من بين شفتيها، وأشار اليها أن تذهب حيث يقف شرطي الحراسة بعد أن غمزه بطريقة خاصة.

وراحت تبتهل وتعرج حتى وجدت نفسها في الشارع، فصعقت، وعادت مزمجرة لتدخل من حيث خرجت الا ان الباب كان قد أغلق، والشرطي اختفى، وعقلها قد طار. وعادت تمشي بهدوء وهي غير آسفة لأن الفرصة لم تتح لها لأن تقول للشرطي ولكل شرطة العالم: ليتهم وضعوا بعض التهذيب في رؤوسهم بدل تلك القبعات. ولكن لا جدوى بعد الآن، فالتهذيب شيء عابر وقديم، له دفء الملاءة وصقيع الكهوف. الوحل سيد المكان والزمان. وعليها أن تكون الدجاجة المقاتلة لاستعادة نطفتها الصغيرة الغابرة.

***

الفصل الخامس

تتكون المدينة التي تحدث فيها كل هذه الفوضى حرصاً على السلامة العامة، من سلاسل طويلة من الأزقة العمودية، وسلاسل أكثر طولا من الأزقة الأفقية، ولذلك كانت تشبه الى حد كبير مسند الأرجل الذي يوضع تحت الطاولات. أما المآذن فكانت هي المسامير التي تدعم هذه الرؤيا والمعضلات البشرية، وتثبتها باحكام منذ مئات السنين، أما الحصى واللفت والأطفال والبوابيج فكانت أشبه بحشوة لهذه المدينة العظيمة كالحشوة التي تستعمل في السترات والمعاطف لتساعدها على توازن الكتفين والتمويه على السياح والمغتربين بتلك القامات المليئة بالفجوات وعقد النقص.

وتعيش المدينة منذ أمد طويل على الفطائر والقرآن الكريم، سعيدة بصيفها المحرق وشتائها المرير الكاسح، قانعة بمسابحها وكهولتها ودخان مطابخها. واذا صدف وهبّت إحدى نسمات البحر في يوم من الأيام، أغلقت النوافذ العليا بالعصي، واستلقى نصف مليون نسمة على الشراشف البيض المعطرة بالصابون، ونصف مليون آخر على الأرصفة المبللة بالوحل.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبينما كان أصحاب الحوانيت

يمسحون شواربهم من بقايا الجبن والمربيات بيد ويتلمسون مفاتيح حوانيتهم في جيوبهم باليد الأخرى، وبينما كانت النساء الجميلات الصفراوات يجمعن الخرق المبللة بدماء الطمث من بين المقاعد لنقعها في ماء الزهر او الماء المتدفق من أفواه الاسود الحجرية، وبينما كان الحراس وسائقو عربات الخيل يتبادلون تحيات الصباح ويختفون داخل الأبواب المطرزة بالمسامير المعدنية، وبينما كانت البغايا الرقيقات يدخن النراجيل تحت شجر النارنج او فوق السطوح المطلة على الأزقة، وكل منهن تحتفظ بصورة عشيقها ذي الشوارب المعقوفة والسروال المطرز داخل اطار من التنك اللماع بينما نصف مليون يتثاءبون منذ السابعة، متكئين على صرر زوجاتهم ويتحدثون عن أسعار الجبن والمربى والحروب المقبلة... كان نصف مليون نسمة آخرون يتثاءبون منذ السابعة، ويتكئون على أرصفة الجوامع، ويتحدثون عن ترميم الأبراج المتهدمة وشطف قبر صلاح الدين يومياً بالماء والصابون.

بينما كان مليون شخص ينحنون فوق زوجاتهم وسنداناتهم وموازينهم وغلمانهم ونراجيلهم كي تمر العاصفة بهدوء... عاصفة الشك واليقين، عاصفة الأمشاط والنظارات. انهار كل شيء، وتصاعد الغبار من الينابيع والنظارات والمطابخ، ونبت جيل جديد كالعشب، جيل غرير وحاد كشوك الصبار، منتصباً ومستلقياً وهارباً على مرفقيه وإليتيه دون انذار او تبرير، مثيراً جلبة القبور وشهوة الحبال التي قصفت اعناق الملايين، ماتت البغايا ذوات الأسنان الذهبية، وسقطت صور عشاقهن بأطرها المخلعة، واعوجت قرون الخراف، وانتشرت فقاقيع اللعاب حول الشفاه المطبقة على النراجيل والملاعق وخيطان الحذائين، وانطلق نحو أعماق الاسفلت المحمى

بصدى القباقيب وقطاع الطرق، لهب الانوف الصغيرة وصرير الدراجات الملطخة بدم الختان.

ضاحكة باكية، مستفهمة متجاهلة، سعيدة بصهواتها المباحة ورؤوسها المطرقة في حمامات الذكور، فأُغلقت الحوانيت، وتُركت المفاتيح تتأرجح في ثقوب المزاليج، وحُمل الكهول الذين كانوا يتكئون على ركب زوجاتهم فيما مضى في نقوش مغطاة بالقماش المقلم والمعرق، وأخذت أغصان النارنج وأنابيب النراجيل المفضضة تتمايل كأسلاك المذياع بين الانقاض الملأى بالأرامل والمحتضرين والأقدام الغائصة في المربيات.

من أجل السلامة العامة، من أجل الموت البطئ. لقد غلف كل شيء بغلاف رقيق شفاف كما تغلف السكاكر. وكان باستطاعة أم الفهد أن تثير ما تقشعر له الأبدان برأس بابوجها الحاد الا أنها كانت طيبة وغبية، ولذلك تركت لدموعها العنان كي تعيد الأمور الى نصابها.

كان جورباها قذرين وملاءتها وقمصانها بالغة القذارة والترتيب. وقد توسلت الى صاحب الفندق ان يواسيها بطريقة ما ويساعدها على الوصول الى الكراج، مؤكدة أنها لن تنسى له هذا المعروف أبداً. فلم يمانع بالطبع فحملت صرتها بما تحويه من بقايا البيض والخبز. وقبل أن تصعد الى مقعدها في السيارة، أعطت الصرة للخادم، وجلست تنفض ملاءتها ثم فتحت زجاج السيارة استعداداً للتقيؤ بمجرد أن تتحرك السيارة من مكانها.

لم تكن تعي ما حولها من ناس وشوارع وشرطة وحمالين وعجلات. كانت محطمة وناقمة أيضاً، ولذلك ما أن تذكرت شيئاً حتى دسّت يدها في صدرها وأخرجت رزمة من الأوراق الحمراء والصفراء والخضراء والتي

كانت تأخذها من مكاتب الاستعلامات والمقابلات، ومزقتها إرباً إرباً وألقتها من النافذة بغضب، وجلست تنفض ملاءتها وهي تلهث كأنها مزقت الحكومة نفسها وألقت بأشلائها من النافذة.

* * *

أما القرية التي تنشق فيها فهد التنبل أولى نسمات الحياة أو ما أشبه ذلك كما كان يردد في البارات فتتكون من الغيوم والأبقار والرياح. أما الكروم فكانت حوافرها الخضراء التي تتلقى عنها لسعات السياط الندية. كل شيء فيها رطب وحيّ وأخضر. يكفي أن تنكش سطح الأرض بظفرك حتى ينبثق الماء، أن تداعب صوف النعجة حتى يسيل من ضرعها الحليب.

قرية نائية وباسلة، تنظر الى وحلها ودخانها وعيونها المحمرة كما تنظر الفرس إلى أجراسها. أما التاريخ الرقم المتسلسل في المعارك الكبرى، فيظل في جيب المختار.

ولما كانت القبور تبنى كالمنازل، وتحفر داخل القرية... أي في البيادر وعلى مقربة من الحوانيت والكروم، يصطدم بها الرائح والغادي، فان موتاها كانوا يبدون كأنهم يشاركون في حياة ذويهم، يؤازرونهم في الزرع والحصاد، ولذلك كانت هذه القبور أشبه بخزائن ترابية بالنسبة الى الأطفال، ففي جوانبها يخبئون دخلهم ومسروقاتهم. وعلى حوافها تجلس الأمهات، ينقين العدس، ويفلين الجدائل الطويلة بأمشاط مصنوعة من عظام الخيول.

كان الموت طبيعياً في تلك القرية. ضروري ومتوقع في كل لحظة. وعلى هذا الأساس، كان أطفال القرية شرسين كالحشرات، ورجالها لا

يتورعون عن ضرب أشجارهم بالسوط لأنها لم تثمر في الوقت المحدد. حتى دجاجها كان يصرخ باستمرار كأنه مصاب بذات الرئة. وقلما تجد دجاجة حيّة أو ميتة إلا وعلى رأس منقارها قطرة أو قطرات من الدم. وكان أهالي القرية مستعدين للتزاوج مع الحيوانات شريطة ألا يتزاوجوا مع القرى أو العائلات المجاورة لا لشيء إلا لتكريس الدم القاتم واعطاء الشرايين الشخصية الزمن الكافي لكي ترتوي منه وتنمو. وعلى العموم كانت القرية نقطة زيت كبيرة في ماء الوطن. ولقد فكرت السلطات المتعاقبة جدياً في تقطيعها كالحية هي وكهولها وشبابها ومقابرها ووضعها داخل كيس ثم قذفها الى الجحيم.

ولكن أهل القرية استمروا في الحياة كبقعة زيت في ماء الوطن، فالمياه لم تكن رجراجة وصاخبة على كل حال، وهم يزرعون ويحصدون ويتزاوجون ضمن دائرة محصنة من الأمل في تجفيف المياه المحيطة بهم بنار الذرة والبنادق. لقد كانت سهولهم غنية بالأزهار، وبشقائق النعمان التي تذكرهم أبداً بجماجم الأجداد المحطمة تحت حوافر الرومان، وبالظهور التي نكئت جراحها عاماً بعد عام بأغصان التوت التي لامست الكثير من الخوذ المنتصبة والمدلاة على الصدور، إلا أنهم لم يضعوا الزهور على قبور موتاهم أبداً، ولم يسوروها كالأقفاص الخشبية كما يفعل الأمراء ذوو الدم الأزرق، بل تركوها مباحة وعارية، رمزاً لسموهم وبطولتهم حتى في الموت، واعترافاً منهم بذلك السور العظيم الذي يفصلهم حتى في موتهم عن أكلة المخللات والأرز المسلوق حيث المقابر تغلق وتفتح في ساعات معينة كالمطاحن.

ولقد حاول البدو في احدى سني المجاعة والقحط غزو القرية من

الشرق، ولكن طلائعهم مزقت تمزيقاً قبل أن تصل الى الضواحي بعد أن شطرت رؤوس أمرائهم بأطراف المعاول، وجلست نسوة على حواف القبور والعلالي الواطئة يزغردن بالأفواه للفلول التي فقدت فرسانها وسروجها خلف زوابع الغبار. لا لأنهم بخلاء كما يتبادر الى الذهن بل لأنهم لا يريدون أبداً أن ينهبوا بناء على تقاليد صحراوية... هم كحولها القاتل وسمها الزعاف، فقد كانوا يضعون قلوبهم وقلوب أبنائهم على موائد الضيوف، بدواً أو أمراء، ولكنهم لا يستسيغون أبداً أن يقدموا شيئاً وخيول الضيوف المحاربة تصهل في مزارعهم، وقد وجدت في عام ١٩٠٠ مئات الجثث في الكروم بسبب دجاجة.

وأخذت هذه الشجاعة النابية تطفو يوماً بعد يوم، وتتحول الى نزق وصراخ مرير على فوهات الآبار أو فوق عربات الحصاد المحملة حتى السماء، مؤكدة بطريقة لا تقبل الشك أن ثمة رائحة صليبية في الفضاء، وثمة منشاراً سرياً سوف يبتر أقنيتهم وأنهارهم، وينشرها ذات اليمين وذات الشمال، فاتحاً القرية الالهية على مصراعيها لأكلة الأرز المسلوق والمخللات بما يحملونه من عطش قديم ونزوات لا قبل لهم باحتمالها.

وقد أكد شيوخهم العجز مراراً والمسابح الطويلة في أيديهم أنهم رأوا بأم أعينهم الغيوم الرمادية تبتعد شيئاً فشيئاً عن القرية، والدجاج ينفق في الشوارع، وعجلات سيارة البريد تتلطخ يوماً بعد يوم بدم الكهول والأطفال.

وقالت الصبايا إنهن فوجئن ذات مرة برف من الغربان السوداء يندفع نحو أثدائهن، وينقرها باعياء إلا أنهم صرخن عالياً جداً، ففرت الغربان، ولم تأخذ في مناقيرها المفتوحة سوى القماش وخصلات الشعر.

وفي احدى أماسي عام ١٩٢٦ بينما كان الفلاحون عائدين الى بيوتهم يترنحون من التعب والإجهاد، والأجراس الحزينة ترن في أعناق الخيل المجهدة، والأمهات الضريرات يتأكدن من أغنامهن على ضوء قناديل الكاز، لمحوا فتى وسيماً يشعل لفافة على مدخل القرية، وينظر بعينيه الخضراوين الى أصابعه التي تحمي لهب الثقاب. كان أحد أحفاد الأمير عائداً من أوروبا، يلبس بنطالاً وقميصاً بلون الأرجوان. ووقفوا مشدوهين، ينظرون الى مؤخرته التي قسمها البنطال الى قسمين متساويين، وبصقوا على الأرض، وتمنى معظمهم ألا يأتي صباح اليوم التالي إلا وهو في القبر، وأخذت الجدران تتسلخ منذ صباح اليوم التالي، والأشجار المسنة الوقور تهوي على الأرض مع الماشية المربوطة بها، وراح فتيان الجيل الجديد يضعون أحذيتهم على جذورها، ويلمعونها بالمحارم، وأخذت القبور تحفر كيفما اتفق في سهول الاقحوان الغابرة، والكهول يعودون موتى على ظهور جيادهم أو في عرباتهم التي حطمت بالفؤوس بعد أيام قليلة، وأحرقت ابتهاجاً بانتصارات لا يعلمون عنها شيئاً حققها ذوو السراويل في المدن الكبرى. ونضبت الأقنية الرومانية في جوف الأرض. وحاول البعض ردمها والخلاص من ذكرياتها إلا أن الواعين منهم أبقوا عليها لأنهم كانوا واثقين بأنها ستمتلئ عما قريب بدموع المستقبل.

وقد أدرك «الفهد» وهوما زال في الثانية من عمره أية كارثة تنتظره، ولذلك ألقى برأسه الصغير الى الوراء وهو مضموم على صدر أمه، وراح ينظر الى السماء الشاحبة محركاً يديه الصغيرتين كأنه يود الانطلاق كالعصفور عبر السحب والرمال. وأطلقته أمه بعد سبعة أعوام ليرعى الخراف ذات صباح في ما تبقى من المروج النامية مصادفة بين المخافر. وعند الأصيل عادت الخراف، ولكن الراعي لم يعد.

وصرخ السائق: «تشبثوا جيداً بمقاعدكم وإلا انقلبنا رأساً على عقب».

***

كان أبو الفهد يقتعد حجراً قديماً داخل المنزل ويداه في حجره عندما سمع زئير الباص وتنشق رائحته، فانتفض كالملسوع، وهرول على الممشى الحجري مستنيراً بآخر شعاعات الأصيل الحمراء ليرى نفسه وجهاً لوجه أمام رفيقة عمره. احتضنها بذراعيه، وحكّ ذقنه الخشنة بوجهها، وقال وهو يشمشم ملاءتها:

«أعرف أنك لم ترينه، وأنهم وحوش ضارية لا أمل فيها».

فأجابته بصوت تخنقه الدموع: «ليس هذا فقط بل سخروا مني. لقد تورمت قدماي من الصعود والهبوط في تلك العلب الخشبية دون جدى».

وغاب صوتها في البكاء، فقال زوجها محتداً: «ألم تقولي لهم إنني قد أسافر الى الحكومة وأضع الأمور في نصابها؟».

«ـ قلت لهم كل شيء، ولكن لا أحد يسمع ولا أحد يرى، وكل ما يفعلونه هو أن يستمروا في الكتابة وتقليب الأوراق. لقد مددت لهم معصمي وقلت لهم: احبسوني معه إذا شئتم ولكن دعوني أتأكد من أنه ما زال حياً، فهل تعرف ماذا كان جوابهم؟ لقد ضحكوا كأنني ما قطعت ٣٠٠ كيلو متر أنوح وأهتز في تلك السيارة إلا لكي أمازحهم. إلا أن شخصاً واحداً تلطف لي ذات مرة وقال إنني خرفة. ليتني ولدت جرذاً ولم ألد ذلك الجبان! إنني أتمنى أن تفقأ عيناي هاتان مقابل أن أزرر له قميصه وهو جاث على ركبتيه أمامي. ومع ذلك فقد سخرت مني تلك الحكومة وأهانتني حتى العظام مع أنني كنت مهذبة جداً وصريحة جداً كما

اوصيتني. اسألهم بكل لطف وأجيبهم بكل أدب، ولكنهم كانوا يجيبونني كالوحوش. سألت واحداً من الذين يلبسون القبعات، سألته بصوت يكاد لا يسمع: أين سراي الحكومة يا بني؟ فأجابني وهو يصرخ: في مؤخرتي... في مؤخرتي هنا، وأشار براحة يده».

«ـ هكذا قال الكلب. لن أنسى ذلك أبداً، يجب أن أذهب فوراً».

«ـ لن تستفيد شيئاً أيها العجوز. كما لا أظن أنك طليق اللسان أكثر مني. انهم شيء رهيب لا يحتمل. يكلمونك وهم يكتبون أو يشربون المرطبات دون أن ينظروا إليك ولو رقصت أمامهم، تسألهم عن فلذة كبدك، فيجيبونك أنهم لا يعرفون شيئاً وهم ينظرون الى أكوابهم. إنهم يفضلون النظر ألف عام في قدح ما على النظر في وجهك ثانية واحدة. لا لن تذهب».

وراحت تمسك ثيابه كأنه سيمتطي السيارة في الحال. وكأن أبو الفهد لا يحتاج الا الى هذه اللمسة من يدها حتى يكف عن السفر ويهدأ بجوارها.

وأقبل في تلك اللحظة أولاد ابنتها: أربعة أطفال بذات القذارة واللمسات واللعاب السائل، و تكوموا في حضن جدتهم التي راحت تمسح على شعورهم بأصابعها.

«ـ لا فائدة من ذهابك أو ذهاب أي منا. سنترك الأمور لمشيئة المولى».

«ـ إنني أركع له، ولكن لماذا يعاملني بهذه القسوة؟ لماذا؟ لا بد أنك أخطأت في مكان ما. لا بد من وجود خطأ ما وإلا لما ذهبت رحلتك هباء منثورا. آه كان يجب أن أذهب بنفسي مهما كلف الأمر».

فأجابت محتدة: «قلت لك إني عملت ما بوسعي، وكافحت أكثر من عشرة رجال، ولكن الخطأ ليس مني بل منهم...»

وأشارت بأصبعها.

«ـ ومن هم؟ اعطيني أسماءهم»

«ـ كلهم... الرجال والطاولات والسيارات... كل شيء. قلت: كل ما أستطيع هو أن أسأل بلباقة والحاح، فإذا لم أفلح فما عليّ إلا أن أعود الى قريتي وأشكوهم الى الله».

«ـ وكأن الله دركي! هيا اشعلي الفانوس ودعينا نجلس في الداخل. هيا أيها الأطفال التعساء ابتعدوا عن جدتكم. أصبحتم كالبغال وما زلتم تنامون في حضنها. لماذا يخلق الله الأطفال؟ لا أعرف...»

«ـ لا تكفر يا رجل. هذه مشيئته عزّ وجلّ».

«ـ استغفر الله العلي العظيم. أعرف أعرف، ولكن لماذا يخلقهم بهذه الكثرة؟ نحن لا نستطيع أن ننظم حياتنا فكيف ننظم حياتنا وحياة غيرنا؟ يجب أن تتناولي عشاءك مع أنه لا يوجد عندنا أي شيء للعشاء».

«ـ لا... إنني متعبة وسأنام فوراً».

«ـ أما أنا فسأذهب وأرى ماذا أستطيع أن أعمل».

فصرخت بحدة: «وماذا تستطيع أن تعمل؟ وإلى أين تمضي الآن حيث لا أحد غير الغبار والكلاب الهائمة؟ تقول أن النسيم بارد مع أنني أكاد أشتعل في ثيابي. أين الدلو؟ هل تعرف أين الدلو؟».

«ـ إنني أجلس عليه. ماذا تريدين منه؟»

«ـ سأسقي هذه الزهور. إنها تكاد تموت عطشاً».

فصاح غاضباً: «لقد سقيتها البارحة».

«ـ يجب أن تسقى كل يوم».

«ـ كل يوم؟ ولماذا كل يوم؟ وهل هي مصابة بالحمى؟ دعيها وشأنها».

ونهض ممتعضاً وهو يقول: «لا أعرف لماذا تستمر مثل هذه المخلوقات في الحياة. سأقتلها جميعاً».

«ـ إنها على الأقل مسكينة وغير مؤذية».

وراحت تداعب الزهور بأصابعها، وتقلب أوراقها وسيقانها الملتفة بأصابعها: «لقد كان طفلي الصغير يحبها كثيراً. كان يجلس مثلك هنا على الدلو ويكتب».

ثم همست بجد: «اقترب. أريد أن أقول لك شيئاً».

فاقترب منها، و أخذ وضعية الاهتمام الخطير، جالساً القرفصاء امامها.

«ـ من هم الكادحون؟»

«ـ ما أدراني. لماذا؟»

«قال لي أحدهم إن «فهد» كان يشتم الكادحين، يشتم الشعب كله».

«ـ مع أنني لا أعرف ماذا يقصد بذلك إلا أننا يجب أن نسأل غداً صباحاً عن هذا الموضوع...»

وصرخ فجأة: «كفى كفى. ستميتين هذه الزهور بكثرة الماء. انظري. عليها اللعنة! إنها تشرب كالأبقار».

«ـ أظن أن أحداً جاء لزيارتنا».

وجاءت أصوات مبحوحة يتقدمها موكب من السعال: «ماذا تفعلان هناك؟ هل تتغازلان كأهل المدن؟»

وضحك العجوزان، ورحبا بالقادمين، ولوّحا لهم بالفانوس.

«ـ ومادخلكم انتم يا عجائز النحس؟! زوجاتكم ينمن كالدجاج منذ الغروب، وليس لكم إلا أن تغازلوا الأبقار».

وأصرّ الضيوف على الجلوس قليلاً فوق المصطبة. كانوا ثلاثة من الكهول المتعبين من ذوي الثياب الخلقة والأصابع التي تهتز عند لفّ اللفائف. وقال أحدهم بعد أن أنهى سعلة موفقة: «والآن... هل ما زال الفهد في قفصه أم عاد يهزج ويمرح مع بنات السوء؟».

«ـ بل لا نعرف في أي قفص حتى. اللعنة عليهم! ،من أين أبدأ وكيف أنتهي. ذهبت أولاً الى مكان ما، فقالوا لي: اصعدي الى الطابق الثاني، وعندما صعدت، قالوا: عودي الى الطابق الأول... وعندما هبطت، قالوا: الى الطابق الثالث، حتى تورمت قدماي دون جدوى. كلهم أنكروا معرفته».

«ـ طبعاً. لا بد أن يعرف أحد مكانه».

وصرخ ،أبو الفهد: «كان يجب أن لا أدعها تذهب. لقد أخطأت، وجلّ من لا يخطئ. كان يجب أن أذهب بنفسي».

«ـ وما الفائدة الآن؟ دعنا نسمع بقية القصة».

«ـ ثم قالوا لي: الى الطابق الرابع. وهكذا حتى آذن الظهر الى أن قال لي ،الشخص المسؤول إنني مخطئة وعلي أن أذهب الى مكان آخر. وفي اليوم التالي، ذهبت الى ،مكان آخر، وظللت أصعد، وأهبط الى أن قال لي المسؤول أنه لا يعرف شيئاً وعليّ أن أذهب الى جهنم».

«ـ على المرأة ألا تخرج من بيتها».

وصاح أبو الفهد: «لقد ضحكوا عليها».

«ـ لا لم يضحكوا عليّ بل كانوا لا يصغون اليّ، فهل عدم الاصغاء يعتبر ضحكاً؟».

«ـ بل ملل».

«ـ كانوا يعطونني في كل غرفة ،ورقة صغيرة ،حتى أصبح معي منها ما يملأ جيبي».

وصرخ زوجها: «وأين ،هي تلك الأوراق؟»

«ـ مزقتها».

«ـ اذن هذا هو السبب».

وقال أبو محمود: «لا يا أم الفهد، أنت ذكية وكان يجب أن تحتفظي بتلك الأوراق. وكل منا يعرف ما هي أوراق الحكومة».

فصاحت أم الفهد: «كانت أوراقاً لا نفع فيها، كنت استعملها في مقابلة الاشخاص فقط».

«ـ وليكن. كان يجب أن تحتفظي بها».

وصاح أبو الفهد: «لا تناقشوها. لقد وضح السبب. لقد مزقت الأوراق. لا حول ولا قوة إلا بالله!».

وقالت أم الفهد بنزق: «قلت لكم انها لا نفع فيها». وقد قال لي أحدهم عندما سألته ماذا أفعل بها: انقعيها جميعاً في قدح من الماء ثم اشربيه في الصباح الباكر».

«ـ وهل كنت تقرعين الباب قبل الدخول؟»

«ـ بعض الأبواب كنت أقرعها، والبعض الآخر لا أقرعه. في اليوم الأخير لم أقرع أي باب. كنت اقتحم الأبواب اقتحاماً لأنني كنت يائسة».

فقال أبو علي: «ربما كان هذا سبباً، من الأسباب».

فصاح أبو الفهد مغتاظاً: «وما علاقة هذه الأمور بولدي؟»

فقال أبو سليم: «ماذا تقول؟ أنا أراهن على، زوجتي بأن هذا سبب من الأسباب الهامة التي عرقلت مهمتها. كانت تدخل على الموظفين دون أن تقرع الباب...»

فقاطعه أبو محمود قائلاً: «اسكت اسكت. ليتك بقيت صامتاً!».

«ـ بل يجب أن تفهموا ما أعنيه وتقدروا أثره في أخطر، الأمور. لقد ذهبت مرة الى المصرف الزراعي من أجل نعجتي، فدخلت دون أن أقرع الباب، وما أن هممت بشرح قصتي حتى قال لي الموظف بلباقة: لا تتكلم ولا حرف، هيا اخرج واقرع الباب. وعندما خرجت وقرعت الباب ودخلت مرة ثانية قال لي الموظف: والآن اغرب، عن وجهي ولا تعد قبل ثلاثة ايام يا وقح».

فقال ابو الفهد بصوت غاضب: «لا أظن. ما علاقة ولدي بقرع الباب؟»

ثم أشار الى ضيوفه كي يقتربوا منه، وقال هامساً: «هل تعرفون من هو الشعب؟»

فصمتوا قليلاً، ثم تنحنحوا ولفوا لفائف جديدة بينما قال أبو سليم: «الشعب هو الذي يلبس البنطلونات. ولكن لمذا تسأل؟».

«ـ قالوا لأم الفهد ان ابني كان يهاجم الشعب».

«ـ أنا لا أعرف، ولكننا نسمع هذه الكلمة كثيراً في الراديو. يجب أن تكون مهمة. على كل حال اطمئن سأسأل عنها غداً».

فقال أبو محمد: «الفهد ولدكم أيضاً وأنتم تعرفونه جيداً».

«ـ نعم نعرفه. انه نمر».

«ـ ذات يوم كنت عائداً من الحقل فرأيته ينزل من السيارة. لقد حياني بيده. وكان لا يحمل شيئاً...».

فقالت أم الفهد معلقة: «كان دائماً يذهب ويجيء بلا حقائب».

«ـ وقذفت له عنقوداً من العنب فتلقاه بيده كالكرة».

فقال أبو الفهد: «كان يحب المشمش كثيراً. يأكله ولا يغسله أبداً بل يقول لنا إن غسل هذه الثمار مؤلم كغسل الميت. يجب أن تؤكل هكذا وآثار الرياح عليها».

وقال أبو محمود: «أبناء الحكومة يغسلونها حبة حبة. ومع ذلك تجدهم دائماً صفر الوجوه كالأموات».

«ـ لقد رأيت اسمه مرة في الجريدة وكنت في السراي، واذ ببعض الناس يتجمعون على قصاصة جريدة، وكان أحد أقربائكم يصرخ: ابتعدوا. هذا اسم ابن عمي...».

«ـ ورأينا صورته أيضاً. كان نصف وجهه أسود ونصف أبيض. وكان ينظر إلى فوق كأنه ينظر الى نقطة ما في السماء».

«ـ لقد كبر الآن وأصبح رجلاً».

وقالت أم الفهد باكية: «إنني لم أره يشبّ الا على الورق. لم أر شاربه ينبت الا في الجرائد».

وتثاءب الجميع، ووضعوا أيديهم على ركبهم ونهضوا باتجاه باب الخروج، وكانت لفافاتهم المعوجة تخبو رويداً رويداً في الظلام. وعندما وصلوا الى المضخة، ذهب ابو سليم مبتعداً ليتبول واقفاً، فاستغل أبو الفهد المناسبة وسأله: «كيف الموسم؟».

فأجابه ووجهه الى الحائط: «إنه أسوأ مما نظن جميعاً».

ثم عاد وهو يشد حزام سرواله باحكام بعد ان رسم ببوله على الجدار الأبيض ما يشبه شجرة الصفصاف العارية، وتابع كلامه: «إنه عاطل

جداً. الأرض لا نفع فيها في هذه الأيام. الأرض مريضة ولا ينقصها الا أن تعصب رأسها بمنديل وتنوح على الأيام الماضية».

ثم جلس على حافة البئر، واشعل لفافة جديدة: «كان الزرع زرعاً فيما مضى. كانت الفرس تقف على طرف الحقل وتأكل دون أن تحني رأسها. أما الآن فلو لبست نظارة لما وجدت شيئاً للمضغ. سأهجر هذه الأرض، فإذا انحنى العشب الطويل فهذا شيء طبيعي. أما عندما ينحني العشب القصير وينكفئ على بعضه فقل أن الدنيا ليست على ما يرام. فأنا ذاهب الى الحقل صباح غد، ولكني خجل جداً كأنني ذاهب الى المبغى».

فقال أبو الفهد: «فهمت فهمت. ولكنك تعرف حالتنا، وقد نحتاج الى شيء ما من أجل الفهد. أشياء ضرورية لا أكثر».

ففكر أبو سليم قليلاً ثم قال: «يا ريت! صحيح أن الفهد ولد جوهرة، ورأيت اسمه في الجريدة، ولكن يا ريت...».

وفيما بعد، عندما انفرد أبو الفهد بزوجته، قال لها باهتمام:

«ـ هل تعتقدين أن تمزيق الأوراق أو عدم قرع الباب سبب من الأسباب؟».

«ـ من يعرف؟ لا أحد يعلم ماذا يهم الحكومة وما لا يهمها».

«ـ لا بد أن هناك أموراً أخرى».

ثم مضى متجهاً الى باب الخروج، فصاحت أم الفهد: «الى أين تذهب في هذا الظلام؟»

«ـ سأجلس أمام الباب قليلاً، وأعزف قليلاً على الناي لولدي الفهد».

«ـ لا لن تعزف شيئاً في مثل هذه الساعة. ستوقظ الجيران».

«ـ وهل سأنهق؟ سأعزف له قليلاً. كان يحب عزفي عندما كان طفلاً، ثم جلس على حجر عتيق أمام البيت وأدخل طرف الناي في فمه، وأمال رأسه باتجاه الشرق، وراح يعزف ويبكي بينما راحت الكلاب تهرّ في الأزقة مرتطمة بالجدران والعربات».

الفصل السادس

كانت المدينة قد قسمت كالتفاحة الى أربعة أقسام متساوية:

قسم يبكي باستمرار،

وقسم ينوح باستمرار،

وقسم يولول باستمرار،

وقسم ينهمك باستمرار في المختبرات لإحالة هذا البكاء والعويل الى طرب حقيقي يوزع بالبطاقات مع حليب الصباح من دون أي أمل في العافية وتورد الخدين، ولكنها محاولة تقتضيها ظروف الانهيار المدني لاقناع الآخرين بأن أصفرار الوجه هو خير لون في العالم، وأن موت الأطفال على مقاعد الدرس واغماء الامهات في الصيدليات واحتضار الآباء في المصارف الزراعية هو النقطة الضرورية لحرب البطولة والكفاح من أجل لا شيء.

ولكن «غيمة» التي تحمل بكالوريا علوم، شدت عزيمتها، وشدت شعرها تمهيداً لنقض هذه النظرية جملة وتفصيلاً لا لأنها تحمل بكالوريا علوم فقط بل لأنها تحمل أيضاً حباً عظيماً وغامضاً ينوء بحمله أجمل القطارات وأحلاها صعوداً وهبوطاً بين التلال.

كانت في الرمق الأخير على كل حال، تنشب مخالبها الصفراء في

الوسادة، وتضرب اللحاف بكعبها يميناً وشمالاً لأنها لا تستطيع الرقاد لا تحت اللحاف ولا فوق اللحاف. لا تستطيع أن تفعل شيئاً على الأطلاق سوى الاتصال بهذا وذاك، بهذه الدائرة وتلك من دون أن توفق بشيء. أربعة أشهر وهي ترتدي معطفها النبيذي العتيق، تشد حزامها باحكام حول خصرها كزنجية بيضاء تشد سهامها على كتفها وتمضي. أيها السيد هل تعرف أحداً يعرف أحداً؟ أيتها السيدة هل تعرفين أحداً يعرف أحداً؟ أيها الصدر البعيد الغالي... كن عريناً لأزرارك المقطعة. لقد قالت له مئات المرات فوق اللحاف وتحت اللحاف: إنك كمن يضحك في جنازة. سيتخلون عنك في أية لحظة. إنني أعرفهم، في الصيدليات، في حوانيت الخضار. إن تاريخهم منقوش في الصيدليات وحوانيت الخضار. وكان يضحك ضحكته القوية الهادرة، ويصفعها على مؤخرتها بجريدته المطوية.

يا لك من أرملة في الثامنة عشرة من عمرها! وما الذي نملكه في حياتنا هذه سوى الكلمة؟ قولي فقط ماذا نملك. وأقلب لك حياتي رأساً على عقب كهذا القدح. آه إن الكلمات تئز في رأسي كطرود العسل.

وها هي الآن تلعق مشهد الذكريات بلسانها، تخترق المدينة من أقصاها الى أقصاها دون جدوى. لو كان هناك ثمة غربان تحوم لعرفت أين جثته. ولكن هناك بلابل فقط... تولد مفتوحة المناقير وتموت مفتوحة المناقير دون أن تنشد الأغنية التي تريدها، تولد على أغصان الصنوبر وتموت في مكاتب الطيران.

أين أصدقاؤه القدامى؟ كلهم غازلوها أو تجاهلوها.

أين أصدقاؤه وأمه وأبوه واخوته... أين هم؟

كنت ألعب الورق مع علي عندما رأيتك في الباص.

كنت أمزح مع سعيد عندما رنّ جرس الهاتف.

وأين هو الآن؟ في مكان ما، يعض على ضحكته القوية الهادرة كما يعض الكلب على عظمته، مبصبصاً بعينيه المتورمتين الى الوطن الذي أحبه والسماء التي عبدها.

عندما كان طليقاً وضاحكاً في المسارح والمقاهي، لم تكن لتعتقد أن فراقه سيولد هذا الشوك في البؤبؤين... هذه الابر العارية في لحم الفؤاد. إن رائحة صدره تملأ أنفها، وضحكته البرية ترن في أقصى عظامها.

لقد رفضوا السماح لها بزيارته لأن الدولة لن تتعامى أبداً عمن يجلس في حضنها وينتف في ذقنها، ونصحوها بالنسيان السريع والابتعاد ما أمكن عن النوم بين المقابر. وكان لا ينقصهم الا أن ينصحوها بأن تذهب الى أقرب قابلة لتجهض ذلك الحب العظيم.

لقد ودت في تلك الساعات أن تضرب الدولة كلها بيدها الصغيرة... تلك الدولة التي تعتبر أحرارها كسوراً جبرية لا مبرر لوجودهم.

لا تستطيع أن تتصور حبيبها يقضي كل هذا الشتاء العاصف الجميل من دون أن يلمح قطرة مطر واحدة، من دون أن يداعب شعرها الطويل بأصابعه الموشومة بالسلاسل والغزلان.

كان يحب شعرها طويلاً ولامعاً. وعندما قصته ذات مساء بناء على نصيحة عابرة في ندوة الجامعة، نظر اليها مشدوها، وقال لها: «ما هذا؟ لقد قصصت عنقي».

كان قاسياً في بعض الأحيان، ولكنه بليونة الاسفنج في أحايين أخرى. لم يكن يقبلها على فمها بل كان يدغدغ حافتي الجرح بشاربيه ثم يبتلع نهدها في فمه حتى يكاد يختنق ثم يصرخ: «إنني وحيد يا غيمة».

ثم استعملت غيمة هاتفاً في الشارع، وراحت تصرخ بصوتها الرفيع الحاد: «نعم نعم... إنه أمر هام. هل احضر حالاً؟ شكراً والى اللقاء...».

واستقلت سيارة أجرة، وانطلقت لغزو العالم بصوتها الرفيع الحاد.

***

كانوا أربعة متناثرين في الصالون: ياسين محرر أدبي في مجلة الدولة الرسمية، وزكريا موظف في قسم التأليف والترجمة والنشر، وصبحي مراقب البرامج الاذاعية، وطالب جامعي يشترك في ندوات تلفزيونية. وعندما أطلت غيمة من مدخل الصالون، وقفوا جميعاً وأقداحهم في أيديهم ليؤكدوا لها أنهم موجودون فعلاً في الصالون. جلست باقتضاب وحشمة على مقعد، منفرد وفي مواجهة الجميع كي لا تفوتهم كلمة مما ستقوله لهم... رفاق الفهد وخلانه الأوفياء.

ومهدوا للجلسة ببعض النكت وتقديم اللفائف والوسائد لسند الظهر أو المرفقين، فشعرت أن العالم هو العالم، وأنه من غير الفهد فارغ وسخيف منذ العصر الحجري وحتى الآن. قالت بعد أن وضعت منديلاً على ركبتيها: «أعرف أن الفهد سيغضب لو علم أني اتصلت بأي واحد منكم بسببه. ومع ذلك اتصلت وسأتصل ولو بقطاع الطرق لانقاذه. هل تسمعون بالله؟ إنني أحبه كالله تماماً بكل غروره وهزره ووحشيته. أما لماذا فسأوجز ذلك بكلمة صغيرة. أولاً لأنني احبه. ثانياً لأنه لم يؤذ أحداً في حياته...».

فأجابها ياسين مقاطعاً: ولم يقم بخدمة لأحدفي حياته.

«- لم تسمح له الظروف بذلك».

وقال زكريا: «أو بالأحرى ليس مهيأ بطبيعته لهذا النوع من الخدمات».

وقال صبحي: «إن مبرر وجوده الوحيد ،أنه كاتب مبدع إذا اعتبرنا الأخطاء التي ارتكبها والحفر التي هوى بها شيء كان يمكن تفاديه ببعض الحكمة».

وقال زكريا: «إنه مجنون... مرح ومجنون».

وقال ياسين: «بل هو مهرج».

فقالت غيمة بغضب: «لا أظن أنه من اللباقة أن تتحدثوا عنه بهذا الشكل. إنه لم يكن مهرجاً في يوم من الأيام، وإن مخيلاتكم كلها لن تتصور قطرة واحدة من حزنه. صحيح أنه كتب بعض الاساءات تجعل الثكلى مضطرة في بعض الأحيان الى أن تحفر قبر فقيدها كي يشاركها الضحك، إلا أنه كان يريد شيئاً آخر من ذلك».

وسألها ياسين: «وما هو هذا الشيء؟».

«ـ شيء... وشرح هذا الشيء أكثر فظاعة من شرح التاريخ البشري».

قال زكريا: «أعرف ذلك جيداً. ولقد حاولت كثيراً أن أجد نقطة ضعف في هذه الدولة لانقاذه فلم أجد».

«ـ لم تجد؟ هذا منتهى الغرابة».

«ـ لماذا؟»

«ـ لأنها كلها نقاط ضعف».

«ـ وأنا حاولت أيضاً وفشلت. وهناك شيء بينه وبين الناس، لا أدرك تفسيره»

قالت غيمة: «أنا أقول لك هذا الشيء. فجوة... فجوة كبيرة كالتي تحدثها الزلازل في الأرض الخصبة، ولقد حاول ردمها بشيء اسمه الضحك. ففشل، فهل نطلق عليه الرصاص لأنه فشل؟».

فأجابها صبحي: «طبعاً لا».

وقال ياسين: «ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نتقي الرصاص عنه بصدورنا طالما لم يترك لأي واحد منا ذكرى واحدة تشجع على ذلك. كان عدواً لأي تيار، مغرماً بالوحدة والتفرّد. إن مركبات النقص التي كانت تعصف برأسه لا يمكنني تعدادها الآن وأنا جالس على هذه الأريكة، والجمهور ليس مضطراً الى أن يحصد ما زرع هو طالما أنه نثر بذوره بملء حريته. لقد عاد من المنفى غازياً ومقتحماً لأسرارنا وآمالنا. أثار النعرات وأهان المقدسات بتلك النكات ذات النابين الجارحين. يجلس معي في المساء فيهاجمني في الصباح. يتناول غداءه على مائدة فلان ويفضح أسراره على مائدة فلان».

فقال زكريا: «لقد كان طفلاً متهوراً».

وصرخ ياسين: «بل عديم الوفاء. عندما جاء من المنفى اشتريت له سروالاً وقميصاً وربطة عنق، وعرفته على وجوه الجيل الذي كبر في غيابه. فما أن كسا الريش لحمه وأصبح عنده أكثر من سروال وقميص وربطة عنق حتى تنكر لنا، وراح يعبث بصداقتنا بملء حريته مبرراً ذلك بأنه يسعى وراء الحقيقة. أنتِ نفسك... ألم يهجرك ذات يوم من أجل ساقطة؟ ألم يكن يخونك، مع الخادمات وحاملات الخبز الى الأفران؟»

وشعرت غيمة بأنها تجر من طرف عنانها الحقيقي الى الجهة المقابلة لحبيبها، فرفعت رأسها صاهلة ومتحدية: «اذا كان قد هجرني فقد هجرني ولكنه عاد اليّ لطيفاً وحنوناً وباكياً. هجرني أكثر من مرة، وإنني لسعيدة بذلك لأنني أفهمه كفنان لا كشخص عادي يتناول طعامه ويذهب الى دورة الحياة في ساعة محددة. إن حبيبي ليس رجل مطبخ وحمام وصالة استقبال. إنه فنان. ولكي يبدع، علي وعلى جميع من يؤمنون به أن يتركوه

هائماً على وجهه وإلا أصبحنا كمن يربط مصباحاً في حافر جواد غاضب، ويقول له: هيا اصعد هذه التلال الصماء، وعدْ دون أن تحطمه».

وقال زكريا بهدوء: «أنا معك من هذ الوجهة. ولكن كان عليه أن يولد في عصر آخر».

«ـ ولماذا يولد في عصر آخر؟ لماذا تخطئ الطبيعة وتصيبون أنتم؟ الخوف وحده هو الذي يجعلكم أقرب الى الحيوانات منكم الى البشر... خوفكم من تقييم الآخرين لكم هو الذي يضطركم الى أن تظهروا بكل الوجوه ما عدا وجهكم الحقيقي. إنكم تصورون هجره لي ككارثة تقض مضاجعكم مع أن معظمكم لم يحرك عينه عن بطة ساقي. وأقولها بصراحة: إن أحداً منكم غيّر مكانه أكثر من مرة بحجة التقاط شيء لم يقع منه مصادفة كي يحدق الى ما هو محرم شرعاً وقانوناً».

وتكلم الطالب الصامت لأول مرة، وكأن صبره قد نفد: «اسمعي أيتها الآنسة... هناك ثورة حدثت في هذا الوطن، ونحن منها ولها، وهي ليست من الفراغ وكثافة الوقت بحيث ننصرف إلى مثل هذه الأمور. أنا لا أعرفه على كل حال، ولكني سمعت عنه في مناسبات عديدة. ومهما كان في الماضي، ومهما كان وضعه في الحاضر، ما هو إلا فرد. والخروف يعرف ما هي قيمة فرد بسيط بالنسبة الى ثورة كبرى...».

ثم زمّ شفتيه وحدق الى السقف، فأجابته غيمة بانفعال:

«اسمع أيها السيد... هل تعتقد أن المشكلة انتهت بمجرد أن تزم شفتيك هكذا وتحدق الى نقطة ما في السقف؟».

«ـ يا آنسة... كلنا فداء للثورة. إنها جائعة، وإلا لما أعلنت عن نفسها، وهي لن تنمو ما لم تجد لقمة هنا ولقمة هناك».

«ـ لتتغذ بنفسها إذا كانت جائعة الى هذا الحد. كل يتغذى بنفسه. ما من قوة في العالم تبيح هذا السطو . حتى مشيئة الله هي اكثر ما تكون موضعاً للتساؤل والتذمر. ماذا تسمع في المقابر وخلف النعوش؟ لقد كان طفلاً بريئاً، فلماذا أخذته يا الهي؟ أو كان عاملاً مسكيناً يعيل عشرة أطفال وامرأة ضريرة فلماذا حرمته اطفاله وامرأته منه؟ يقولون هذا إلى الله فلماذا لا يقولونها لانسان؟ ».

«ـ هذا ليس موضع بحث. كل ما أعرفه أن هناك ثورة جائعة، وكان الفهد في طليعة من أسهموا في تجويعها .. عليها أن تنمو».

«ـ الثورة الجائعة تولد جائعة وتموت جائعة لأنها لن ترتوي من شيء... قروي نهم في مطعم يغص بالأطباق، ستزداد شهيته كلما سمع رنين الصحون وارتطام الملاعق. وهذا ينطبق على الأشخاص كما ينطبق على غيرهم. سأعطيك مثلاً واقعياً لا عليك ولا على الآخرين بل على الفهد نفسه. هل تعلم كم جورباً عنده؟ لن تصدق إذا قلت لك: ما يكفي لنصف سكان طوكيو. إنه يشتري تلك الجوارب باستمرار، وبشغف وحقد أيضاً. هل تعرف لماذا؟ لأنه قضى كل طفولته ومراهقته وهو يلبس جوارب مرقعة».

وعاد الطالب الصغير الصارم، الى الحديث، وقد التهب صدغاه من الحنق: «أيتها الآنسة... ما تقولينه لا يغير شيئاً من واقعنا. الفهد ومئات غيره هم طعام ضروري لثورة قامت لنقض مبادئهم ونسفها بالحجارة. ومع افتراض أنهم لم يكونوا موجودين أمامها، فيجب أن يوجدوا بطريقة ما. إننا نمر في مرحلة انتقالية، ويجب أ ن نتقشف الى حد كبير بهذه الكماليات الفكرية حتى يهدأ روع الثورة على الأقل».

«ـ منذ عشرات السنين و نحن نمر في تلك الفترات الانتقالية كأننا دجاج أو أرانب في قاعات المختبر. ليذهب كل شيء الى جهنم. منذ خمس سنوات وأنا ألبس مشداً مهترئاً، وزميلتي تفطر بيضة مسلوقة، وزميلي يرتدي قميصاً حائل اللون. لماذا؟ ستقول لي: لم يحن الوقت بعد. ومتى يحين؟ لا تعلم لأنه سر. لا ليس هناك أسرار في هذه الأمور. وتشيخ زميلتي وزميلي، وكل منهما يأكل بيضة واحدة ويلبس قميصاً حائل اللون. والشيء الوحيد الذي يفضح هو أنتم. الحاكمون أنفسهم هم الثورة. إن عافيتها المسلوبة من خد الطفل وغرام العاشقة وحنين الكهل تتحول الى انتفاخ كريه في مكان ما من الوطن... الى غدر وارهاب وجشع لن يتوقف حتى تتوقف ملايين القلوب والأفواه. وهذا ما لن يحدث أبداً».

وقال الطالب بحنق لا يوصف: «لا إرهاب هناك ولا جشع، والحرية أكثر وفرة من الشعير في قراكم».

وهمس زكريا: «أرجوكم... اخفضوا أصواتكم».

ونهض لاغلاق النوافذ.

«ـ حسناً. لا شيء هناك سوى المرح والكرنفالات في الشوارع، والثورة غانية بعمر الورد تخطر على دراجتها في الهواء الطلق، وتغص بالبكاء، ولكن أرجوكم أن تقوموا بعمل ما من أجله. إنهم يعذبونه في الليل والنهار».

وقال ياسين: «هذا كلام مبالغ فيه. نحن نقرأ الصحف دائماً، والتحقيق يجري في جو ملئ بالنزاهة والحياد، وصوره التي تنشر بين الفينة والفينة تؤكد ذلك».

«ـ ليكن ذلك صحيحاً، ولكني أشك في ذلك لأنه حتى الوجه الممزق بالأظافر يبدو في صور الصحافة كأنه وجه يسبح في العرق لا أكثر».

وقال زكريا: «سنقوم بمحاولة أخرى».

وقال ياسين: «هذا بديهي، وإذا كنا قساة في حديثنا عنه فلأننا نحبه ونتمنى أن يكون أكثر صلاحية في المستقبل».

وقال صبحي: «علينا أن نعرف في أي معتقل هو».

وفجأة انفتح الباب، وأطل منه الفهد.

***

بعد عشرة أيام أو عشرة قرون، لا يعرف بالضبط، حاول الفهد أن يفتح عينيه، فلم يفلح. كانت الأهداب والحواجب مطلية بالعمش والدم وقد تماسكت كمسننات الساعة. وعندما حاول استعمال يديه لم يفلح أيضاً اذ كانت محطمة وخفيفة كالهواء، ولذا فقد زحف غريزياً نحو صنبور الماء وفتحه على وجهه بعد أن فتح فمه كالدجاجة. فتح الصنبور بقوة حتى انتشر رذاذه الى السقف وبلله من رأسه الى أخمص قدميه، ثم فرك وجهه وعنقه فركاً عنيفاً متواصلاً وكأنه يريد أن يمسح تقاطيع وجهه من الوجود ثم رفرف بجفنيه حتى أبصر الصنبور والماء والسقف ودورة المياه، وابتسم إذ لايزال يحيا في ذلك الشرق اللعين. وصرخ به المحقق فجأة كأنه هبط من السقف: «أين الآلة؟».

«ـ ...».

«ـ أرجوك قل لي أين الآلة».

«ـ ...».

«ـ قل لي أين هي وسأسعى لإرسال غيمة إلى أوروبا».

«ـ ...».

«ـ قل لي أين هي وما هي وإلا أرسلتك إلى القبر يا ابن التي بطنها غابة من الأطفال الغرباء».

ولم يجب الفهد أيضاً بل ظل ملتفتاً إلى الوراء متكئاً على ركبتيه ويديه أمام الصنبور كطفل يتساءل ببراءة عن السبب الذي يحرمه من رضاعة ذلك الثدي الحديد. وفجأة انهار على قوائمه ودفن رأسه بين يديه. كان اسم الآلة يؤلم قلبه لأنه تردد في أذنيه أكثر مما تردد اسم الرسول في عرفات من دون أن يعرف ماذا يقصدون بهذه الآلة التي يسأله عنها المحقق بلهفة حقيقية.

وتمتم الفهد: «أية آلة يا سيدي؟».

«ـ الآلة... الآلة التي كنت تصلحها في الليل يا بني، وتصب فيها المحاليل، ثم تضعها على الأرض، تتأملها واقفاً أو جالساً يا بني».

«ـ لربما كانت آلة شخص آخر».

«ـ ربما، ولكني أراهن يا بني على أن ملامحك لا تشبه ملامح أخيك، وملامح أخيك لا تشبه ملامح أمك، وأمك في أحسن التقديرات ليست أكثر من إحدى بنات الليل. حسناً أنت لا تعرف عما أتحدث، وأرجو ألا تعرف لأنني بعد ساعة سأعيدك إلى بطن أمك مهما أعيتني الوسائل. أتفهم؟».

صرخ ذلك وهو مكشر، يسحق أصابعه بكعب حذائه حتى قفز منها الدم بعد أن برزت عظامها بيضاء كالحليب.

ولما كانت التلميحات والغمزات بطرف العين أو عض الشفاه فلسفة قائمة بذاتها في ذلك السجن الرهيب، فما هي إلا هنيهة حتى أقبل «العبد» بكامل أبهته وزركشته، مندفعاً إلى العمل كأي رب عمل. وكان الفهد يعرفه جيداً بل كثيراً ما رآه في منامه وفي منام منامه، يحرمه النوم واليقظة والضحك والبكاء وكل شيء أو بالأحرى لقد افتتن به.

وتقدم العبد بتلك الخطوات الطفولية الرائعة ناشباً أصابعه سلفاً في الهواء، يتقدم زمرة لا تقل عنه طفولة ووداعة. وكل ما يذكره الفهد هو أنهم أطبقوا عليه كالغطاء. اقتادوه بينهم في مسيرة طويلة لا تحتمل. كل ما يتذكره بعد ذلك أنه سار أو قفز أو زحف حوالي ستين متراً بين صفين من الأقفاص المتقابلة على أرض مدهونة بالبترول، وفي كل قفص غابة من الشفاه المتدلية. كل ما يذكره ستون متراً من الضمادات والدم والذباب المتجمع في زوايا العيون. ستون متراً من الصمت واللهفة والسفلس والغيوم الرائعة المطلة من النوافذ. أحذية فارغة، وأخرى مقلوبة كتذكار للتوقف عن المسير، مقلوبة بحقد كأنها تعرض تراب الوطن القديم إلى الله وإلى وجوه المحققين. ثم دفعوه لاهثاً إلى غرفة مزدحمة حتى سقفها بالوجوه اللاهثة والأفواه المفتوحة كالثقوب، تمطره أسئلة وتمحيصات عن الآلة. وعندما فتح عينيه، تتابعت الوجوه وكأن لكل واحد منها عشرة أفواه متراصة ومفتوحة تحت الشوارب:

«ـ أين الآلة؟».

«ـ يا بني قل لنا أين هي ونطلق سراحك الآن».

«ـ وسآخذك بسيارتي إلى أفخم حمام في المدينة».

وتمتم الفهد باكياً: «أقبل قدميك يا سيدي. أريد غطاء أو ممسحة أمسح بها جسدي».

كان يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه وقد أضاف صوت الريح وسقوط صفائح التنك في الخارج اهتزازاً جديداً في عظامه. وحك أنفه بالأرض الباردة الصماء، واشتهى أن يقبلها ولكنه ما أن لمح أحذية المحققين وجواربهم النظيفة الدافئة حتى اشمأز، وأغمض عينيه. إنه يريد أرضاً أخرى.

«ـ خذ. هذا معطف كامل. زرره جيداً وتصبح كأي واحد من الحرس».

«ـ هل أنت طفل حتى تخاف من البرد؟ أين رجولتك ومقالاتك العنترية؟».

«ـ إنه مسكين جداً...».

«ـ أو خنزير جداً...».

«ـ أو بالأحرى طفل... طفل كبير لا تنقصه سوى دمية في جيبه وبعض اللعاب على صدره».

ورنت كلمة «طفل» في أذنيه رنين الجرس البعيد... طفل أسمر، يقف عند عتبة رجل غريب واصبعه في فمه، ماداً يده بلعبة معدنية ذات عجلات: «تقول لك ماما ان «تثلح» لي لعبتي. وقعت على الدرج ولم تعد تمشي».

«ـ هاتها واجلس هنا بعد أن تبكل أزرار بنطلونك حتى تخفي عنا آلتك».

الشفتان الرقيقتان تضحكان واليدان الصغيرتان السمينتان متحفزتان أمام اللعبة الصغيرة وكأنها فراشة قد تطير في أية لحظة.

وصاح الفهد بصوت حاد أذهل المحققين: «سيدي...».

«ـ نعم... هل تريد أن تعترف؟».

«ـ نعم يا أبت...».

وصرخ بأعلى صوته: «نعم يا أبت ولكن بشرط واحد».

«ـ ما هو؟».

«ـ أولاً... عندي مقدمة قبل الاعتراف، أود أن أرشقها في وجوهكم بحذافيرها. ولكن بمجرد أن يصرخ بي العبد أو يرفع أي واحد منكم اصبعه في وجهي سأتوقف عن الكلام. هل تعطوني وعداً؟».

«ـ نعم... تعطيك».

«ـ وسيكارة؟».

«ـ وسيكارة».

ونفث الفهد دخانه في الهواء وهو متكئ على مرفقه، وقال: «أولاً لا أريد أن يطلق سراحي بعد الآن. وإذا حاولتم بعد ذلك سأقوم بمجزرة. أما لماذا؟ فلأنني لا أريد أن أحيا في بلاد لا ينقص مسؤولوها إلا أذنان بطول خط الاستواء. وإذا كان هذا السجن يعلق مصيره على معرفة سر هذه الآلة فأنا لا يهمني مصيره، كما لا يهمني مصير حشرة السونة. نعم هناك آلة كنت أصلحها باستمرار في غرفتي، وكان إصلاحها هاماً جداً بالنسبة إلي وإلى الطفولة...».

وصرخ محققان: «وما هي؟».

«ـ لعبة. نعم لعبة أيها السادة، والمرأة التي وشت بي لم تكن كاذبة لأنه كان هناك بالفعل شخص ما يحضر لأخذها وهو على أحر من الجمر، ولكنه شخص صغير، صغير جداً بطول سوطك هذا...».

وحرك المحقق سوطه بحركة عفوية.

«ـ لأنه طفل... طفل صغير يا سيدي. ولذلك فالمرأة الواشية لم تخطئ إلا في حجم الإنسان الذي كان يحضر إلى غرفتي. وكانت عنده دمية على هيئة أرنب صغير، في داخله زمبرك، يعبأ كالساعة، ويقفز كأرنب حقيقي بمجرد أو يوضع على الأرض. ومن دون أن يعبأ لا يتحرك قيد أنملة ولو أطلقت عليه كلباً سلوقياً. ولم يكن باستطاعة الطفل تعبئة الزمبرك، وأمه دائماً منهمكة في حفظ النوع. ولذلك كان يلجأ إلي باستمرار واصبعه في فمه. وكنت بلا عمل، وليس عندي لا أرنب ولا نمر ألعب به وأمرح. ولذلك

كنت أقوم بهذا العمل الدقيق الموجز... من أجلي لا من أجل الطفل، فأنا أكره الأطفال، وأتمنى إبادتهم جميعاً بمسحوق ما. هل تعرفون لماذا؟ لأنكم كنتم أطفالاً فيما مضى. ابصقوا عني على الأرض. لقد جف حلقي».

«ـ ولكن الآلة لم تكن تنط كما قالت المرأة».

«ـ بل كانت تنط».

«ـ المرأة صادقة، وأكثر صدقاً من ثلاثة أطنان على شاكلتك».

وهنا تكلم المحقق الآخر قائلاً: «على كل حال سنبحث هذا الموضوع في جلسة اليوم».

«ـ ولماذا كنت تسدل الستائر؟».

«ـ لأن نافذتي كانت محطمة والريح باردة حتى في أيار».

«ـ ولماذا كنت تطل من نافذة المطبخ؟».

«ـ حتى أبصق».

«أهذا كل ما في الأمر؟».

«ـ لا... هناك أشياء كثيرة تجهلونها. كنت أفرك أسناني وأغسل وجهي بالماء، والماء ينزل من الصنبور، والصنبور مثبت بالحائط، والحائط مثبت بالبناية، والبناية مثبتة بالشارع، والشارع مثبت بالأرض، والأرض مثبتة بالأقدام ورؤوس الحراب».

«ـ يكفي يكفي أيها المجنون. هذا عن الآلة، وأما ما يتعلق بك شخصياً...».

«ـ أما فيما يتعلق بي شخصياً فإني أكرر طلبي. لن أخرج من السجن. وإذا أخرجت بالقوة فسأضع ضمادة سوداء على عيني حتى لا أرى شيئاً في طريقي إلى المطار وحتى تحزمني المضيفة بالحبال. وإذا لم تعطوني

جواز السفر، سأذهب إلى حدود وطني ومعي موسى مفتوحة لأقطع قطعاً من لحمي ووجهي وقدمي وأقذفها خارج الحدود حتى لا يبقى مني سوى الأصابع التي تقبض على الموسى».

«ـ لن نمنعك من السفر أبداً بل ستدفعك دفعاً إلى حيث تشاء، ولكنك ستعود...».

«ـ سأعود، ولكن في نعش».

الفصل السابع

وبينما كان المحققون يرتدون قبعاتهم استعداداً، قال المحقق الصغير: «ولكننا لم نستجوبه في بعض القضايا الأخرى».

«ـ أية قضايا؟».

«ـ الوطن الحرية الديمقراطية وبعض القضايا الأخرى».

وأطرق رئيس المحققين برأسه قليلاً كأنه يتذكر مثل هذه الأشياء للمرة الأولى: «لابأس. اعطه قلماً وورقة وليجب عن هذه الأسئلة هنا ريثما تدور السيارة».

فقال الفهد لرئيس المحققين: «سيدي... لابد أنك تمزح».

«ـ أمزح؟! أمزح معك يا ابن الداعرة...».

«ـ ولكن من المستحيل أن أضع ورقة صغيرة على ركبتي وأكتب لك عن الحرية والوطن».

فقال له محقق آخر ظل صامتاً طوال فترة الاستجواب وصوته أشبه بالاستغاثة: «وماذا تريد؟ آلة كاتبة؟».

وصفعه بقوة على فمه، ثم أخذ يحك أصابعه كأنه صفع جداراً.

«ـ والآن... هل تريد شيئاً آخر؟».

«ـ لا».

«ـ إذن لماذا تتذمر من اعتقالك كأنك شيء ما؟ وإذا لم نعتقل أمثالك فمن نعتقل؟ الأشجار والصيصان؟».

«ـ لقد أخطأت يا سيدي. لست شيئاً ما».

وصرخ رئيس المحققين: «وماذا تريد إذن يا بني؟».

«ـ أريد أن أموت».

وعندما حاول المحقق الصامت صفعه مرة أخرى، كان الفهد قد انطلق محني الظهر، متهدل الذراعين، وأخذ يدق رأسه بالأرض كديك ذبح بسكين قاطعة، فأمر رئيس المحققين أحد الحراس صارخاً: «اخف هذا المنظر حالاً. ضعوه في مكان مريح. أعطوه ورقاً وسجائر، ليكتب ما يشاء. ومن يزعجه بكلمة سأطلق عليه الرصاص».

***

أظن أنه لا داعي إلى ذكر الطول واللون والشعر والعلامات الفارقة لأنها موجودة في هويتي. ولما كنت قد وعدتكم أنني سأقول الحق ولا شيء غير الحق، فأعلمكم أن هويتي ليست معي. لقد فقدتها في أحد المخافر التي أوقفت فيها إذ كان بعض رجال الشرطة يصنعون ورق لعب من الورق المقوى. وكانوا في تلك اللحظة بحاجة إلى بعض الأوراق الأخرى لتكتمل اللعبة، فأعطيتهم هويتي لأنها من الورق المقوى، وسرعان ما مزقوها واستعملوها لورقتين هما الدام والآس على ما أذكر. ولا أنكر أني استغربت أنهم لم ينظروا إلى ما هو مكتوب فيها عندما بدأوا تمزيقها، ولكني عندما رأيت بعد ذلك أن نصف الورق الذي أعدوه سابقاً هو من هوياتهم الشخصية، زال عجبي واستغرابي.

ولست آسفاً لذلك أبداً لأني لم أكن أحس بوجودها إلا عندما أفتح

محفظتي لشراء تذكرة سينما مثلاً. وعندما تمعن النظر في سيرتي الذاتية لن تلومني أبداً بل ستتساءل: لماذا أبقيت عليها حتى ذلك الحين؟ ولماذا لم أسد بها أية نافذة محطمة في المنفى؟

عدت في نيسان من المنفى مع ثلاثة عشر منفياً في شاحنة تابعة للسلطات الشقيقة. وكانت الريح المحملة بالثلوج تعيقها عن الصعود أو الهبوط، وتتشبث بدواليبها كما يتشبث الطفل بذيل الكلب.

كانت العصافير تغرد فوقنا وهي تقفز على ورق السنديان الأبيض ونحن نلتف بالحرامات الممزقة ونميل يميناً وشمالاً كالنساء المغربيات ورشاشان صغيران تابعان للسلطات الشقيقة مصوبان إلينا. وكنا سعداء رغم ذلك، فجبال الوطن وسهوله الرائعة تلوح لنا من خلال الثلج الكثيف العاصف... سعداء بأسلاك الهاتف التي تحمل الثلج والعصافير وأصوات شعبي الحبيب. لقد كان الجميع يا سيدي يبكون من شدة البرد. أما أنا فكنت أبكي من الفرح. وفجأة ألقينا في الوحل. لقد وقفت الشاحنة وكنستنا رشاشات السلطات الشقيقة كنساً إلى أرض الوطن. ورحنا ننهض ونرتمي كاللقالق نحو مكتب التفتيش ووجوهنا ملطخة بالوحل. وكنت أعتقد أن الموظف المختص سوف يلوح لنا بيده، ويسألنا عن أحوالنا وأحوال سوانا ونحن نفرك أيدينا على لهب المدفأة، ولكنه أبعدنا عنها وهو يسأل متى يضرب المدفع ولماذا يضرب المدفع. لقد كنا في شهر رمضان. واعترتنا الدهشة ونحن نراقب بهلع الموظف المختص وهو يقوم بالاجراءات والكشف على لوائح الأسماء ولسانه مشقق مليء بالبثور وكأنه سيأكلنا أو يأكل لسانه إذا لم يضرب المدفع في الوقت المناسب. وفي تلك اللحظة دخل كلب هرم موحل، وراح يحتك بسيقاننا وهو

يبصبص بعينيه الضيقتين إلى عيوننا ويهدر بكآبة كأنه يسألنا إذا كنا رأينا بعض أبنائه وأحفاده في المنفى أو إذا كانوا قد أرسلوا إليه عظمة في مغلف. وأمر الموظف المختص وهو يعيد اللوائح إلى مكانها بأن يطلق سراح الجميع ما عداي. لماذا ما عداي؟ لماذا؟ هل صلبت المسيح؟ هل نهبت الجوامع وقصفت المنازل الآمنة بالحجارة؟ وأردت أن أسأل مستفهماً إلا أن ضجيج زملائي وفرحهم المباغت ضيعا عليّ الفرصة. ولما قال له زملائي إنهم لا يملكون مالاً للعودة إلى قراهم ومدنهم أشار عليهم بأن يركبوا بعضهم بعضاً إذا شاؤوا.

وعندما فتحت فمي لأسأله تبريراً لحجزي دون الآخرين، دوى المدفع، فانهار كل شيء، واندفع الموظف المختص إلى مائدته المعدة قرب المدفأة، يكتسحها اكتساحاً، فازدردت لعابي مرغماً، وشعرت بأن كل الإهانات التي قاسيتها يمكن أن تزول بلقمة واحدة، ولكني عندما تأملت أسنانه وهي تبرز وتختفي ونقط الحساء تسيل على حافة عنقه، ابتعدت قليلاً خشية أن يأكلني.

«ـ ماذا كنت تكتب في المنفى؟».

«ـ نعم؟!».

فكرر سؤاله وفمه مملوء بالطعام.

«ـ أكتب في جريدة».

«ـ لماذا؟».

«ـ كي أعيش».

«ـ وماذا أحضرت من المنفى؟».

«ـ القمل يا سيدي. ثمت في تسع نظارات موحلة للآن دون أن أعرف السبب».

نعم يا سيدي لا أعرف السبب، وهو لا يعرف السبب، والذين في الطابق الثاني لم يعرفوا السبب، والذين في الطابق الرابع يبحثون عن السبب، والذين في الطابق العاشر ينتظرون أن يبرق إليهم بالسبب. ثلاثة أشهر على الحدود وأنا ألمح المطر على المعاطف والشبان على دراجاتهم والفلاحين على خيولهم وجسدي قاعة استقبال يعدها القمل الوطني للقمل الأجنبي. وبعد ثلاثة أشهر لم يعرفوا السبب، فأطلقوا سراحي. وبعد عام واحد اعتقلوني بسبب السبب الذي لم يعرف ولن يعرف أبداً.

ولدت في الثالثة والعشرين من عمري كما تعلم. وقد حاولت بكثير من السهر وحك الأصداغ أن أتذكر أهلي وأحبائي فلم أفلح لأنك لا تعرف المنفى يا سيدي. اسأل أي طائر إذا كان يريد العودة إلى المنفى. سيرفض ويبحث عن أقرب مقلاة إليه ولا يعود. ولذلك انتصبت على تلك الأرض الغريبة بقوة، غارساً حصاها حتى الأعماق، مصمماً على أن لا آكل فحسب بل أحتل صدر المائدة وأبطش بأي يد تريد أن تحرمني من طعامي.

كان التاريخ يا سيدي يلفظ أنفاسه الأخيرة في المطابخ المتنقلة ذات الصفير الحاد. ولما كانت شقوق الأرض كالجروح فقد اشتريت حذاء مدبباً وسروالاً كحد السكين، وأطلقت خطواتي الأولى عبر ضباب المستقبل وبطش التاريخ.

كنت ضد التيار وآماله الراكدة في الشوارع، لا أتورع عن إطلاق الرصاص على أي طفل سيثب على رماد الصحف وأنقاض الموسيقى، وألهث غضباً وراء زجاج المقهى لأن الوجوه لا تبتسم والأعلام لا تخفق والسماء لا تمطر سهاماً وأجراساً ومشانق. كان يلوح لي كل شيء وقد افترق عن الآخر إلى الأبد في هجرة لا أفهمها، وان أي تضامن بينها أشبه

بلصق رؤوس الأصابع بصمغ، وأية وخزة دبوس في أسفل القدم ستجعلها تنفصل وتتلوى منفردة ولاهثة.

أقول لك ذلك وأنا أمضغ لقمة من الخبز. الخبز الخبز يا سيدي... الياقة النظيفة والشعر المسرح إلى الخلف. أما ما تكتبه الصحف وما يدبجه المفكرون فهو وسيلة لكسب العيش. لقد قضيت عشرة أعوام أكتب في الصحف، أطويها وأبوبها وقد أبيعها في المستقبل لا أعلم. ومع ذلك لم أقرأ مقالاً حتى نهايته أو افتتاحية حتى منتصفها، لأنني أعرف أن الأمور واضحة كضوء الشمس. هناك حرية، وهناك عبودية. وكل منهما ليس بحاجة إلى سمسار أو مدير أعمال يفتح للترويج لهما في الأسواق. ولأنني أعرف أن تلك الترهات عن الفقراء والبائسين قد كتبت بأصابع مجففة لتوها من العطر والحليب، وأنها ليست إلا أفكاراً لذر الرماد في العيون. إنها أغشية الطغيان يا سيدي... أغشية رقيقة وشفافة تتراكم يوماً بعد يوم لتصبح عظاماً في المستقبل. عظاماً تكرس على مرافق المحققين. ثم لتذهبوا إلى الجحيم، فإذا كان الخبز هو شاطئنا البعيد فإن الفخذ والبظر هما شراعاه وسفينتاه. إن أمة تقضي حياتها بين المطبخ ودورة المياه يجب ألا تتحدث عن القامات المشوقة والأذرع الملوحة على سطوح السفن. إن نصب السجاجيد على مداخل المدن والمكاتب الحكومية أصبحت عادة كعادة اللواط، ولا يمكنها أن تخفي القبح المختبئ وراء السجاجيد والجدران المزينة بالصور والنقوش. اغمر كل مواطن أياً كانت فصيلته ولونه وسياراته بالقشدة والقمح. ضع على رأسه رحى طاحون، فإنه لن يلبث أن يهجر كل شيء من أجل امرأة... امرأة عارية في مجلة.

كانت الشمس تحرق الأخضرين، وثيابي ملتصقة بلحمي كالقصب.

عرق وصمت ودخان. وعندما التقيت بها، يمامة من السماء، رفرفت على حافة المجرة وقالت: هل أستطيع أن أشرب، فصرخت: اشربي يا يمامتي... ارتوي من هذا السم الجميل الراكد.

كان في عينيها رغبة جامحة في دخول عالمي المغلق المتهور، وفي صوتها نبرة فتاة أرهقها الخوف وهدها الطيران. وإذا أردت الحقيقة تماماً يا سيدي، فهي لم تكن سوى فتاة عادية لا تزن أكثر من خمسة وأربعين كيلوغراماً مع حقيبتها وشعرها وكتفيها ووطنها، ولا ينبعث من عينها أي رغبة جدية في دخول الجامعة. وجاءت تتوسطني في هذا الموضوع لأنها لا تحوز على شروط الانتساب كاملة، فاهتممت فوراً بالموضوع كأنه شروط مناقصة لا أكثر.

«ـ اعتبري الموضوع منتهياً».

«ـ شكراً».

«ـ كيف أهلك؟».

«ـ بخير».

«ـ كيف البحر؟».

«ـ بحر؟!».

تثاءبتْ وتثاءبتُ.

«ـ هل تشربين شيئاً بارداً في المقهى؟».

«ـ لا. شكراً. لا أخرج مع أحد. وسأمر عليك غداً للبدء في الموضوع».

وانصرفت، ثم أنهيت مقالي، ولملمت قداحتي وعلبة تبغي وأقلامي، وقصدت المقهى.

وعندما التقينا في اليوم التالي، أطريت فستانها كأي رجل عادي،

فاحمرت أذناها، وقالت متلعثمة: «ما الخبر. لقد أصبحت «جنتلمان» بالفعل؟».

وعندما سألتها عن معنى كلمة «جنتلمان»، انفجرت ضاحكة، وقالت: «الآن تأكد لي أنك لم تتغير... تماماً كما عرفتك».

ثم فترت حماسة اللقاء، فأسرعنا إلى الذهاب إلى الجامعة حيث قدمنا بعض الأوراق، وأخذنا تعليمات دقيقة حول بعض الأوراق الأخرى. ولما كنت ضجراً فقد دعوتها إلى المقهى مرة أخرى، فرفضت مباشرة وقبلت في آن واحد.

وجلسنا في مقهى منعزل ومقفر أيضاً كطائرين في قفصين متقابلين. هي تحب الخريف والمطر وأنا أعبد الخريف والمطر، وأخذنا نتحدث باقتضاب ونضحك بافتعال. وراقبتها باهتمام وهي تمتص المرطبات بقصبتها الرقيقة. كانت شقراء نحيلة كالهيكل العظمي. وإذا لم تحرك ساقها حركت يدها. وإذا لم تحرك يدها حركت شعرها حتى لتخالها مستعدة للسفر في أي لحظة إلى مقهى آخر أو إلى أقاصي الدنيا. وفي عنقها ندبتان صغيرتان تلتهبان في القيظ كأنهما آثار قبلتين قديمتين. وعندما طال صمتنا وأخذ الارتباك يكتسحنا اكتساحاً، قالت إنها ضجرة، وقلت أنا كذلك. وبعد أن قذفت ذلك الاعتراف شعرت بأني حقير وتافه أمام الآخرين، واستجمعت قواي وزررت سترتي لأقول لها شيئاً مسلياً، وتذكرت نكتة، وعندما شرعت في سردها تلعثمت. وطبعاً أخذت النكتة كنقطة أولى وروتينية في غزو المرأة، ولكن ما أن لفت انتباهها لرواية النكتة ومهدت لها بضحكة متقطعة حتى نسيتها عن بكرة أبيها كأن لصاً اختطفها من فمي، فزمجرت صارخاً على الخادم كي يغير غطاء الطاولة وأن يعيد تسخين الشاي حتى يغلي، وصببت جام غضبي على ذلك الخادم المسكين الذي كاد يستشهد في سبيل خدمتنا وتأمين راحتنا.

وفاجأتني بصوتها الغامض الحاد: «لقد تغيرت. أصبحت عنيفاً».

«ـ إنها الأيام يا غيمة».

ثم ودعتها على باب المقهى، وسارعت إلى مقهى آخر، أتعثر بالخجل والغيرة من الناس ولباقة الناس. لقد كشفتني ووجدت أن لا شيء وراء ذلك القناع سوى الفراغ، وحتى الغوستابو لن يعيدها إلي بعد الآن. ولكنها فاجأتني بزيارة مبكرة في اليوم التالي واليوم الذي يليه بل أصبحنا نلتقي كل يوم، نذهب إلى الجامعة ونعود إلى المقهى... ذات المقهى، غائصين حتى ركبنا في الارتباك وإخفاء التثاؤب مما جعلني أفقد صوابي وأفكر في كثير من الأحيان في إنهاء تلك العلاقة بأي وسيلة، مقتنعاً أنه من المستحيل أن يترعرع أي حب ما بذرته الملل وشق الأحناك بالتثاؤب.

وأصبحنا نقضي معظم أوقاتنا في الجامعة حتى خالني البعض مدرساً فيها مع أن عدداً قليلاً من الناس يعرفون أنني لا أحمل أي شهادة. ولما كانت تعرف أيضاً أني أمقت الأجواء الثقافية مقتاً شديداً فقد كانت تذهب هي إلى المقهى كتعويض عن ذلك.

وذات مساء، دخلنا أحد المطاعم كعادتنا. وبينما كنت أدفع لقمة كبيرة في فمي، سألتني: «ماذا تحب؟».

فأجبتها دون وعي: «البفتيك».

ورنت ضحكتها في أذني حتى اخترقت الطبلة، ونظرت إليها وتلك اللقمة في فمي تمنعني من إعطاء أي تعبير لوجهي عدا الرجل الرقيع المتخبط غضباً لتوقفه عن المضغ. وأنهت ضحكتها بمفاجأة: «ما هي أحب الألوان إليك؟».

فأجبتها وأنا أدفع لقمة أخرى إلى فمي: «الأخضر... البنفسجي...».

وقلت في سري: أي شيء لا يجعل العينين في حالة ذعر لا نهاية له.

وفي صباح اليوم التالي، جاءتني كأنها بركان صغير يمشي على قدمين صغيرين، فقلت: لا ينقصك سوى الذيل أيها الغلام إذا كنت تشك في مشاعر هذه اليمامة تجاهك.

وبينما كنا نحضر أحد الأفلام المرعبة ذات مساء، وفي مشهد من المشاهد المرعبة، شعرت بيدها تبحث عن يدي وتتشبث بها بتوسل وهي تشهق كأن الممثل سوف يخنقها، وراحت تفرك يدي كزمبرك الساعة وأنا أهتف من أعماقي: مزيداً من الرعب أيها المجرم العظيم! وأتلمس يدها بهدوء. كانت ناعمة وصغيرة جداً بحيث كنت أحتفظ بها باستمرار لأتأكد من أنها مازالت موجودة. وعندما داعبت أظافرها وجدت أنها حادة جداً.

«ـ إنني أعتذر. لقد كان فيلماً مرعباً، ولذلك لم أجد نفسي إلا وأنا أمسك يدك».

«ـ لقد أرعبني أنا أيضاً. ولو لم تمسكني يدك لكنت سأتمسك برأس الذي بجواري».

ويبدو أن حادثة السينما كان مهيأة من القدر ليفك عقدة لساني، فصرنا نحضر كل يوم فيلمين ثم ندخل الفيلم أكثر من مرة، ويدها في يدي باستمرار، ترفد يدي بتلك الكهرباء الزرقاء التي نحس بعنفوانها ولا نراها. وعندما كنت أحاول تقبيلها في المصعد، كانت تصدني رافعة رأسها إلى الأعلى كأن أنفي حربة ستنغرس في خدها.

واشتعل حبنا اشتعالاً بعد ذلك. نترنح ونضحك ونهز أيدينا في الشوارع ونخبطها على أفخاذنا كقادة الحروب. كنت أقبلها في زوايا المطاعم وخلف ستائر الحوانيت، وأقدامنا الغبراء اللاهثة تضرب ذلك المجد الحجري

في الشوارع الكبرى، وتلقح الأرصفة الطويلة بالغبار. واستأجرنا غرفة صغيرة فوق أحد السطوح، وعشنا أياماً لا تنسى بصورة غير شرعية والفم فوق الفم والذراع يطوي الذراع، ونحن نتعانق كالزواحف عراة أو بكامل ثيابنا، مهووسين حتى العظام، فائضين كالسيول الرجراجة حتى كان أي عابر سبيل يستطيع أن يصعد إلى غرفتنا ويغرف ما يشاء من الحب والمطر والإرهاب.

وإذا ما تأخرت لحظة عن الموعد، كنت أجلدها يا سيدي بالحزام على صدرها النحيل العاري وهي تصرخ وتغطي وجهها بيديها. كانت تلهث في نهاية السلالم، وتفتح ذراعيها على مداهما وتضمني وتزفر فوق عنقي كراع يزفر في نايه العتيق. الخريف الخريف يا حبيبتي... يجب أن نستنفده حتى آخر زهرة، ونضطجع على البلاط البارد بعيدين عن الأرض، منقبين عن السماء والشعر والمطر... طوقنا الوحيد فوق زبد الخوف والضحايا.

أظنك يا سيدي لا تهتم بالحب جيداً، ولكنك إذا كنت تعتقد أنه إسدال ستائر وفك أزرار فقط فيجب أن تذهب إلى أقرب حفار قبور. الحب رحيل كرحيل الطائر وعودته في ذات اللحظة. إنه الخوف... اللهاث في نهاية السلالم... العري الكامل فوق الأغطية وفولاذ السرير. لقد قتلني الحب يا سيدي، ونثر عظامي ملحاً وصداً على جراح الآخرين.

كنت أضربها بيدي وبحزامي حتى يبح صوتها من البكاء والتوسلات. ولما هجرتني، تركت قلبي مفتوحاً على مصراعيه والدم يقطر من قلبها وثيابها وعنقها كما يقطر الدمع من فوهة المزمار.

لقد انقلبت حياتنا إلى جحيم. وبمجرد أن نهبط عن السرير. ننقض على بعضنا بالأيدي والكتب، ولكنها لم تدرك الحقيقة المذهلة والفاجعة

وهي أني ضد الثياب، ضد السرير والأغطية، ولا أعتبرها إلا مطيتي نحو العري الكامل والمشانق المفتوحة الفخذين. كانت تعتقد أن هناك امرأة أخرى. وبإمكانك على كل حال أن تقنع صخرة بأنها سحابة، ولا يمكنك أن تقنع امرأة ما بأنها محبوبة وأنها الوحيدة فقط. ولو كنت مريضاً في الرمق الأخير وبعثت إليها برسالة مع الممرض تؤكد لها فيها أنك تحبها وتعبدها، وأن العالم كله يساوي فردة حذائها، لأجابتك غاضبة: ولماذا تجاهلت الفردة الأخرى؟.

قد تزمجر الآن غاضباً يا سيدي وتصرخ: ولكن أين المغزى السياسي في كل هذا؟ حسناً. ليذهب المغزى السياسي إلى الجحيم. سيأتي في النهاية. إنه رنة الجرس الأخيرة خلف هذا النعش الكبير. أما الآن فسأغوص بك إلى سخافات أخرى أشد سخافة مما يحلم به رأسك اليابس هذا.

قمنا بزيارة مفاجئة إلى فتاة تربطها بغيمة صداقة قديمة. وكانت المرة الأولى التي تتنفس المقاهي والشوارع الصعداء منا. كنت أكره هذا النوع من الزيارات التي تضطرني إلى أن ألبس ربطة عنق وأدفع غيمة أمامي في كل باب تلجه، متميزاً غيظاً من هذه اللباقة التي جعلتني أكثر شراسة من الحيوان عندما نعود إلى المنزل.

استقبلتنا صديقتها وهي تتمطى في سريرها يميناً وشمالاً كأن ثمة رجلاً قد نهض لتوه من فراشها. كانت شهوانية وذات ماض يزخر بجميع الألوان ما عدا الأبيض. ولما كنت أجهل ذلك فيما مضى فقد أخذت تتصرف معي كطفلة بجديلتين.

ألحت على أن نزورها باستمرار وخاصة أنا لأن هناك أشياء وأشياء

ستشرحها لي. وكانت تبتسم بين الفينة والفينة تلك الابتسامة التي تجعلك تؤمن بأن العالم مليء بالأسنان. ولما وجدتني غير مكترث بهذه البادرة الطفولية، أخذت تتحرك بشكل جنسي، وتبحث بيدها عن شيء ما تحت لحافها وكأنها تبحث عن أثداء إضافية لتلصقها على صدرها لإثارتي.

وفي الطريق، قالت لي غيمة: «كانت تنظر إليك باستمرار».

«ـ أما أنا فكنت أنظر إليك».

«ـ أعرف يا حبيبي، ولكن يجب أن تحترس فأسنانها حادة وقاطعة».

«ـ يا لك من غبية! هل نسيت أن لحمي تغطيه الدروع؟»

وطوقت خصرها، وصعدنا إلى الغرفة. وكان ثمة غراب يقف على حافة النافذة.

***

«ـ إنك تحلمين».

«ـ رائحتها على ثيابك».

«ـ إنك حتماً مصابة بالزكام».

واتخذ النعيق بادئ ذي بدء صفة الإنذار، وأخذ نهدا غيمة يتصلبان ويكتسيان بالوبر الذي ينبت على الصخور المهجورة، ولقد لعب الصيف الحار فيّ دوراً كبيراً في انتحالي شخصية المثقف المفتوح الأزرار في الشوارع الصفراء الملتهبة.

وذات مساء، قمت بزيارة لصديقتها، فوجدت في زيارتها أحد أصدقائي المزقين فكرياً وعاطفياً، يجلس على مقعد صغير بجوار سريرها، فاستقبلتني بحماسة كبيرة وتنهدت بارتياح كأنها تقول: جئت في الوقت المناسب. لقد كاد يجهز عليّ بحديثه الفلسفي الطويل!

وطلبت لي قدحاً من الشاي. وعندما كنت أرفع قدحي إلى فمي، نظرت إليها من خلال البخار، فوجدتها تنتفض وتتمنى لو كانت قطرة شاي على حافة القدح، وصديقي ينظر إليها كأنه يسألها أين وصلنا في حديثنا. كان شاباً دميماً يعاني أزمة جنسية جعلت عينيه تفضحان ذلك السر الخطير. وكان يعتقد أن الحب يجب أن يأتي إثر نقاش طويل وجدل بين المرأة والرجل، وكانت هي تعتقد أن الحب يجب أن يولد فوراً وبأي وسيلة. كانت شهوانية أو روحانية، ولكنها تخفي هذه السمات اللعينة تحت غشاء رقيق من الطفولة الخادعة كما تخفي الأفعى الصغيرة أجراسها تحت الحشائش. ولم تكن تثيرني على الإطلاق لأنني كنت قد شبعت فيما مضى أفخاذاً وإليات رجراجة. ولذلك وضعت قدمي الحافية على رؤوس الحشائش وخطوت الخطوة الأولى متنهداً وشاكراً لها الشاي الحار، ومذكراً إياها بموضوع حبيبتي المهم، فوافقت بالطبع، وأخذت تحثني على زيارتها حتى ينتهي ذلك الموضوع، مستنفدة كل حيويتها وطاقاتها في أن تصرعني وهي راقدة على سريرها تحت لحافها، ترفع صدرها كالقبة ذات اليمين وذات الشمال حتى سئمت النظر إليها وفكرت في إحدى اللحظات أن أصرخ بها: «إلى الجحيم أنت وهاتين القطعتين الكبيرتين من اللحم على صدرك. لو وضعت مصباحاً كهربائياً بينهما فلن أكترث».

وهرعت إلى غرفتي لأجد غيمة تذهب وتجيء كالخفير، تنحت خنجر الفراق وتصقل نصله بالدموع، وصرخت: «كنت عندها».

«ـ نعم».

«ـ لماذا؟».

«ـ من أجلك».

«ـ إنك تكذب».

«ـ إنها الحقيقة».

وانخرطت في البكاء وهي تقول: «هل سئمتني؟ إنني لا أستطيع أن أغريك مثلها. لا أعرف تلك الطرق. أعرف أنني نحيلة ونهداي صغيران ذابلان، ولكني قد أسمن عما قريب...».

وأخذت ذقنها ترتجف، وتنظر إلي بتلك العينين العسليتين الحمراوين وكأنها تقول لي: هكذا خلقها الله نحيلة ودميمة، وانني إذا هجرتها ستنتحر.

فقلت لها وذقني ترتجف أيضاً: «سنحل الأمور في وقت آخر. أما الآن فمدي لي سجادة كي أصلي لهاتين العينين الجميلتين».

فامتلأت فجأة بالحيوية، واكتسى لحمها بتلك الخضرة الرائعة التي تتركها شمس الغروب على الأشجار. أقول الغروب لأنني بعد يومين كنت أقيم الدنيا وأقعدها بحثاً عنها. لقد عدت إلى الغرفة فلم أجد أحداً. بعض الصور والمحارم والقطن الذي ينمو في قاع الحقائب مكوم على المنضدة. أما ما جعل ذقني ترتجف رأساً فكان ذلك التذكار الوحيد الذي كانت تعتز به وتفتخر، سلسلة تنتهي بنسر من القصدير وقد محا عرق أصابعها مخالبه وأطراف أجنحته. نظرت إليه برعب متوقعاً في كل لحظة أن يهب حطام ذلك النسر وينشب مخالبه في فمي صارخاً: لماذا لم تقل لليمامة الجريحة وداعاً؟

وبعد ساعة، كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي. حطمت المرآة، وخلعت الخزانة، وقلبت السرير، ونثرت الأوراق والأدراج، مدركاً في الوقت نفسه أن قطرات دمها استطالت أكثر مما يجب حتى أصبحت ريشاً للسفر وقوادم للفراق.

كانت السماء تمطر في كل مكان... في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ولكنها لم تكن تمطر في غرفتي، فاندفعت حاسر الرأس إلى الشوارع، ورأسي يميل على الجانبين كرأس القائد المصفوع على وجهه. لا أعرف ماذا أعمل وبماذا أفكر وإلى أين أمضي بهذه السترة المقلمة والجذور المكتسحة على وجه الأرض. لقد برز الأعداء، وأطلت الأنثى المحاربة أمام المستسلم على سريره.

كانت قطرات المطر تتجمع على جمر لفافتي، وتطفئ الفتوة المشاكسة واليأس الضارب جذوره في الأعماق ليعيد الطفل الثائر العاري إلى وطنه المقطوع الذراعين.

كنْ بلا رأس أو أنف أو ذراع، ولكن لا تكن بلا مال أو امرأة في هذه المدينة. إنها تصك نقودها بملاقط الشعر. إنها عتباتها المغسولة عند الصباح... العيون التي تحدق إليك من شقوق الأبواب... الأجسام البضة في أحواض الاغتسال، تجعلك لا تضرب رأسك بالجدران بل تعتبر اختراع الرادار والالكترون والغواصات شيئاً لا معنى له. صوت القباقيب والأساور في أحواض الاغتسال، تجعل أي محاولة لبلوغ الأهداف القومية العليا كبلوغ القمر على دراجة.

كنت أربض لها عند مواقف الباصات، وعلى طريق الجامعة، وأمام ساعة المدينة، تلوح لي في كل شيء وجهاً حبيباً وعظاماً نحيلة وفارغة كالقصب بعد أن جف فيها نخاع الحب، وعلى شفتيها طمي الدموع وغبار البزر. نسيت أن أقول إنها كانت مولعة بالبزر. ولذلك عندما أقبل العام الجديد احتفلت بها وأنا رابض على قمة الحطام. كانت مائدتي بسيطة للغاية: شمعة وبنفسجة وصحن من البزر وآخر من المطر. وكانت حبات

البزر معتمة أشبه بالعيون المفقوءة، وقطرات المطر سوداء كأنها شويت على النار، وكان لساني يلمع ويتراقص بين الشفتين. وعندما أطفئت الأنوار، أشار عصفور عاشق لحبيبته: لا تغردي عند هذه النافذة يا ملاكي، فهنا عاشق لم يقل لحبيبته الجريحة وداعاً، ثم طوقها بجناحيه ومضى.

كانت الجيوش النازية تزحف على ركبها نحو الفيلبين وكوريا، وأنا أزحف على ركبتي فوق السطوح، متلصصاً على عري العائدين والزوجات الوحيدات، منكفئاً على الوحل والقذارة والعادة السرية، ثاقباً الجدران بالمسامير، ولاعقاً آثار القباقيب لأعيد إلى ذاكرتي عذابها وجوهرها بعد أن غطاها الهجر.

كان الطلبة الوهميون ينطلقون من بوابات المدارس كالعجول، والدم يقطر من دفاترهم وأقلامهم، ويلتئمون في الساحات المعتمة سبعين مليوناً تحت ذقن رجل واحد.

وكنت ألهث في الشوارع بحثاً عنها. لقد أخطأت منذ البداية. الكلمة الحلوة يجب أن لا تقال إلا للنعش. عندما تتعرى المرأة أمامك بتلك البراءة الدامعة، اجلدها... اضربها بذراعك المحني وسوطك المائل، فإنها ستثب نحوك لا لتمزقك بل لتزداد قرباً منك والتصاقاً بلحمك. اهجر عندما يكون اللسان حول اللسان والذراع حول الذراع. لا تقذف السمكة الصغيرة في المنقار بل لوح بها فقط حتى ينهار الجناح. وعندما يكون الجبين واضحاً أمام فوهة البندقية، اضغط الزناد واحمل فريستك دون عصيان إلى سريرها.

أيتها اليمامة المكسورة الجناح... كيف تطيرين؟ ألم تخنقك رائحة الفضلات والريش المتعفنة؟ لك الزناد والبندقية... لك راية العرين وعشب المقابر، ولكن عودي يا يمامتي الحبيبة.

أظن يا سيدي أن أجمل يوم في حياتك هو اليوم الذي تقبض فيه راتبك، هذا طبيعي من رجل سيصل شخيره إلى الهند الصينية، ولكن أجمل يوم بالنسبة إلي هو يوم رأيتها في الزحام. صرخت: غيمة، فلم تجب. صرخت وصرخت، ولم تجب. كانت تعدو بحذائها الرقيق المتسخ بالغبار. خبطت بقدمي وراءها وأمامها وحولها دون أن تنظر إلي ودون أن تنطق بكلمة كأنها تحمل بين شفتيها رصاصة لو انطلقت لصرعت نصف الشارع.

وعندما وصلت إلى الباص، صعدت درجته الأولى، والتفتت إلي، وقالت: «أيها الوحش!».

ثم أدارت عنقها كالغزالة وصعدت.

قمت بعد ذلك بشجار كبير مع شرطي السير، ومعركة دموية في الجريدة، ومجزرة في المقهى حتى كدت أفقد آخر ذرة من عقلي.

والتقيتها مرات كثيرة بعد ذلك، فكانت تهينني وتذلني وأنا أهز برأسي مستسلماً كالجبان. كل همي أن أحتفظ بكل قواي على كفة الميزان حتى يعود التوازن بين الضحية وجلادها.

ورأيتها مرة تسير مع عملاق هائل. وما أن وقعت عيناي عليه حتى غاص قلبي وراح يئز كالبعوضة بين جوانحي. يا إلهي... من أين بعثت إلي تلك المصيبة؟!

تأملت صدره العريض وقبضته القوية، فتأكد لي أنه ما أن يهوي علي بلفافة حتى يحطمني كالفخار. ولذلك اكتفيت بمطاردتها محافظاً على مسافة معينة تكفل لي التواري والهرب، ولكنهما أوقفا سيارة تاكسي ومضيا بها، فما كان مني إلا أن أسرعت إلى حيث كانت تقف تلك

السيارة ورحت أمحو آثار عجلاتها بقدمي، وعدت إلى غرفتي معفراً بالتراب، وحيداً وباكياً.

أنا كاذب كاذب يا سيدي. لم يكن هناك عملاق يسير معها، ولم تكن لها صديقة تغار منها، وما كنت أجلدها وأفرض سلطاني عليها، ولم تهجرني لأن النساء كن يرتمين عليّ. لقد هجرتني لأنها ضبطتني بنفسها وأنا جاث على ركبتي أتلصص على نساء المنزل المجاور وهن يغسلن ثيابهن. لم تكلمني ولم تصرخ بل تركتني مصعوقاً كمن ضبط فوق امرأة في فندق مشبوه. «نذل» هي الكلمة الوحيدة التي قيلت في هذه الفاجعة.

إنك ستصرخ الآن غاضباً. وما علاقة كل هذا بالسلامة العامة؟

وأنا سأصرخ غاضباً مثلك: وما علاقتك أنت وسلامتك العامة بي؟ إنكم حظرتم عليّ تدخين لفافة من أجل مجرى التحقيق، فأي تحقيق هذا الذي يتأثر من إشعال عود ثقاف؟

حرمتموني شهراً كاملاً من غطاء أستر به جسدي، فأي وطن هذا الذي يتأثر من دفء بطانية أو وسادة؟

إنها الرغبة الوراثية في الذل... المتعة السادية في تأمل العائلات الممزقة والإصغاء إلى ملايين الأفواه التي تصرخ: النجدة النجدة!

لقد أحرقتم المراكب وجعلتم من أشرعتها عمائم وقلنسوات للتنابل. قصفتم جذع الشجرة، وتركتم سبعين مليوناً يحمون صلعاتهم الملساء بالصحف وراحات الأيدي. لقد نهبتم الأرض خيرة فلاحيها وسواقيها، والشوارع زهرة أحبابها.

إنها الرغبة الوراثية في الذل، المتعة السادية في الإصغاء إلى ملايين الأفواه التي تصرخ: النجدة النجدة، ولكني سأكون القروي الوحيد الذي لن

يصـرخ أبداً لأنني أعـرف إلى أين يذهب صـوتي... لأنني أعـرف مـا هي السلامة العامة. إنها مصلحتكم أنتم... الأجداد المكدسون كالبضائع في نهاية القطيع المندثر تحت أغصان النخيل... البقايا المقذوفة من قمامة إلى قمامة عبر التاريخ.

وبينما كان الفهد في ذروة حماسته، يلتهم الورق التهاماً، ويحاول وضع السدادة في فوهة الجرح، جاء شرطي مسرع، وزمجر بغضب: «ألم تنته بعد من هذه القاذورات؟».

«ـ نعم انتهيت ولم يبق إلا التوقيع».

«ـ وقع على البلاط».

وأخذ الشرطي أوراق الفهد، ومضى.

الفصل الثامن

في صباح أحد الأيام، أعلن الراديو أن الشعب هو العمال والفلاحون... أن الفلاح المعروق الوجه الذي يرفع مجرفته تحت الشمس أو العامل الذي يهوي بمطرقته في أعماق الأرض هو ابن الشعب لا غيره.

وبعد عشرة أيام من إذاعة النبأ سمع به أبو سليم بينما كان يلتهم التمر في أحد الحوانيت، فانتفض واقفاً، وأخذ يلمس وجهه المعروق ويديه النحيلتين ويصرخ مندهشاً بمن حوله: «إذن نحن الشعب. ألم تسمعوا بعد بما قاله الراديو؟».

ثم اقترب من صاحب الحانوت، وقال له هامساً: «هل الأفندي يحمل مجرفة؟».

فأجابه: «أنت مجنون. ليس له نفس كي يشم الورد فكيف يحمل مجرفة؟».

فقال أبو سليم: «إذن كيف تفسر هذه الأمور؟ شيء غريب!».

وقبض على ذقنه برؤوس أصابعه، وراح يسأل: «هل هو شخص عادي؟ يأكل ويشرب ويبول؟».

«ـ يا لك من مجنون! طبعاً».

«ـ إذن ما هو شغله؟».

«ـ يأكل متى يشاء ومتى يريد، وينام متى يحلو له ويستيقظ متى يحلو له. لا زوجة توقظه إلى الفلاحة، ولا جواد يصفعه بذيله في الغبار».

«ـ إنه محظوظ. هل تعتقد أنه هو الذي كان في الراديو وقال ما قال عن الشعب؟».

«ـ طبعاً لا. هو الذي يأمر الراديو بأن يقول ذلك».

«ـ شيء يحير العقول».

ثم مسح يديه كيفما اتفق، وهرع إلى منزل الفهد.

«ـ أبو الفهد... أبو الفهد... هل تعرف من هو الشعب؟ نحن. لقد أذاع الراديو ذلك. ولذلك ما عليك إلا أن تتريث قليلاً قبل أن تطلب مني معونة لابنك فهد».

وفي بقية القرى والدساكر، كانت الطليعة الغازية تفتح أبواب المنازل... منازل العمال والفلاحين بحثاً عن أعداء الشعب، وانكمشت العائلات على بعضها كما ينكمش الأخطبوط إذا لمس بالأصبع، وأطبقت الشفاه، وكثرت تجاعيد الأرض والوجوه، وأخذت الرياح الرمادية تلمع بين أغصان المزارع، وانتشرت رائحة الآباط المرفوعة عبر آفاق الوطن مع الصراخات المكتومة والنداءات المعادة بقوة الراحات لتكون أسناناً أخرى على مرمى المائدة والرغيف المطارد.

لقد تسلط رعيل الطفولة، وراحت المخصصات الاستثنائية ترصد على عجل، والسيارات المصفحة تتأرجح بين الجبال ومصابيحها الغريبة تشع بذلك النور الواثق من نفسه ليكشف عن أطنان من المواطنين بألبسة النوم ونظارات الدراسة، مخلفين الصحون التي لم تمس، والأرغفة التي لم توضع على الركب بعد بينما امتلأت منازل الآخرين بالعجز من المراجعين

والزوجات المهجورات والأطفال الذين ذهب آباؤهم مع مجارفهم ولم يعودوا، طالبين أوراقاً حمراء أو صفراء لمعرفة ماذا حلّ بذويهم وماذا لم يحل.

لقد كانت أم الفهد رائدة في هذا المضمار، حجراً صغيراً يهدد زجاج المصباح ونور الأشرطة. لقد بللت بمخاطها ذقن الصحراء. بللتها جيداً. فركتها كصحن بدموعها وآهاتها بعد أن أدركت بحس الريفية المتعبة والمهانة أن بخار الدم هو الرائد والمجلي لا بخار القدور والملاعق، وأن موسى القدَر لا تسنه بعيداً على كل حال عن شعر الصدغين، وأن تلك النزوات الكثيفة من الأرواح والقلوب وفلذ الأكباد، لابد من أن تزال بحد الموسى عن وجه الصحراء العاري، وجه القطيع الذي أحرق صوفه بمشاعل الانتصار، وراح يمشي عارياً وسط ثلوج لم يحتملها أجداده من قبل، وينشر رائحة الحريق والشواء البشري على سروج الدراجات وأمام مقاعد المقاهي. إن أسنان القدر تصل، والمطارق تلمع في قبضات الطليعة، وقبور الأطفال والجدات المسيجة بالزهور البرية سندانات ترنّ عوضاً عن عظام موتاها، واللقالق هاجرت بمناقيرها المفتوحة بحثاً عن مستنقعات ووحل أكثر إنسانية وصفاء مما ألفته حتى الآن، والغيوم تجعدت واصفرت وهوت كصفائح التنك على الأرض على رؤوس الفلاحين وعلى رؤوس المحاريث المغطاة بالقش ومناديل الأبناء الأسرى، وأزيلت الكروم، وحطمت جرار العسل والملح لسد شقوق الأرض بحطامها، وراحت الأصابع الخجلة المحدودبة تلتقط كسرات الخبز وأعقاب السكائر وسلاسل التذكارات المعدنية تتأرجح على الصدور التي جفّ شعرها وذبل من الغبار والجفاف حيث سيارات الإسعاف الملطخة بالدم تطوف على مكاتب التحقيق صباح مساء كعربات الحليب لتفرغ

حمولتها في المستشفيات التي مازالت تنبعث منها رائحة الدهان، ومكبرات الصوت تدوي في الريف وقلب المدن معلنة انتصار الشعب وأبناء الشعب بينما الأمهات يمسحن اباهيمهن من الحبر على الجدران وصوف الأغنام بعد أن وقعن العرائض، وأسهمن بطريقة ما والمكنسة بأيديهن في صنع هذه الحقبة الخائنة من الزمن. أما في المدن... المدن الصلبة المظلمة التي تحيا على الأسنان الذهبية وأوراق الجوز الخضراء، فقد هُددت بالقصف عن بكرة أبيها إذا لم تنفجر ضاحكة من الأعماق. ولقد أخذت الأيدي المتعبة ترفع الطرابيش وتحك جلدة الرأس بالأظافر كأنها تتساءل ماذا فعلت حتى انتهى كل شيء إلى هذه الحال.

واستشرى البغاء بين الطيور، وتفاقمت عمليات القسوة في عمليات التوليد حتى أصبحت شراسة الأطباء فريدة في ذلك العصر، وإن نظرة واحدة إلى ملاقطهم المتسخة بالدم منذ البارحة، تؤكد أن الجريمة أصبحت شيئاً ضرورياً للمعاطف الكلسية التي يرتدونها طالما أن الفرصة لضمان طفولة سعيدة ومهذبة قد انقرضت وزال مبررها.

لقد عاش الآباء والأبناء حياتهم كما رسمت لهم. وكانوا سعيدين بذلك، ممتنين لله لأنها لم تنحرف ولم تشذ عما كتب فوق الجبين إلا أن حدّ الخوذة قد محا كثيراً من تلك النصوص. ولتفسير الكلمات المجهولة، ينبغي للمواطن أن يقضي بقية حياته مستنطقاً الله لماذا خلقه ولماذا لا يميته.

لقد قدموا أفخر وأجمل هداياهم للسلطة وما ترمز إليه منذ أن كانت الأمور تدار من فوق الهودج إلى أن أصبحت تدار من فوق الرادار. وأعطوا الخبز والدهن والجبن والعسل والمربى، محافظين بطريقة غير شرعية

وضرورية على الحد الأدنى من روح الملكية كرصيد للسفر أو الانتحار إذا شاؤوا إلا أنهم عندما طولبوا بمزيد من الأشياء، بالمدخرات السرية، تذمروا وتساءلوا دون إدراك لما يجر التذمر من كوارث وظلمات. على كل حال، لا تنظر إلى لون السماء أو إلى الأزهار في الوطن الذي تزوره للمرة الأولى بل انظر إلى أصابع أبنائه، فإذا كانت صفراء فقل إن الأمور ليست على مايرام. ولذلك ضاع الفهد ووالد الفهد في هذه الظلمات، وامتلأ السجن الذي اعتقل فيه الفهد بالوجوه المفزعة والمعاصم المربوطة بالحبال، وهي التي كانت تحك جلدة الرأس خلف الموازين وجامات الزجاج.

لقد نفدت الأصفاد. وما تبقى منها كان واسعاً جداً على تلك المعاصم الصفراء، ولم يكن المارة على كل حال أو ما تبقى منهم ليستغربوا ذلك. لقد كانوا يعلمون إلى أي حد قد تبطش القوات الاستعمارية بهذا الوطن. ولكي لا تكون الضربة قاسية ومحكمة، راحوا يلوحون بأيديهم المعروقة عشرين ساعة في اليوم على رؤوس الهضاب المبثوثة كغرف النوم. كانوا يدركون أن هذه السنة لن تكون على أية حال شارة الانطلاق نحو التدمير الكامل وفتح قبور جديدة وإضافية بجانب القبور المكسوة بورق الجوز الخضراء لأن لحم الفتيان الصغار مازال غضاً، ولابد له من أن يتصلب ذات يوم ليكون جديراً بالانتقام بالموت العريق الرائع بين غابات البنادق والنجوم وأصابع الطباق المحترفة قرب الأفواه الفاغرة تكفيراً. أما الشعر، والكلمات الحلوة، فستظل بعيداً عن مكتبة الألغام والرصاص. ولذلك عندما دخل «العبد» وهو يحمل إفادة «الفهد»، قال له المحقق: «ما هذا؟».

«ـ إفادة الفهد».

«ـ الفهد... نعم الفهد. ضعها هنا. لا. خذها إلى دورة المياه».

وعند المساء، فتح باب زنزانة الفهد بقوة، وقال له الشرطي: «هيا أسرع مع ثيابك واتبعني».

وذهل الفهد، وراح يبحث عن أغراضه كأنه فعلاً يملك بعض الأغراض. وانطلق وراء الشرطي وهو يصيخ السمع مدهوشاً إلى أصوات الشاحنات والحبال المقطعة، وإذا هو وجهاً لوجه أمام عالم آخر لا يحتمل. غابة من الوجوه والصرر تبحث عن راية حمراء لتندفع إليها. وجوه تحمل جنون الفلاسفة وزهو الأكاديميات، أيد مصطبغة ومحملة بما لم تعد قادرة على حمله ولذلك انهارت وتأرجحت بينما الآخرون الصغار يسيرون كأنهم سيجلسون على عروشهم بعد لحظة.

لقد أطلق الخروف الأبيض في القطيع الأسود وانتهى الأمر.

انتهى الأمر... لا... لقد بدأ.

***

بعد أن أبلغ أبو سليم كل من في طريقه أن الشعب هو الفلاحون، وأنه واحد من هؤلاء الفلاحين، قفل عائداً إلى البيت ليمتطي عربته إلى الحصاد، ولكنه ما كاد يقترب من منزله حتى وقع بصره على جمهرة من الناس وسمع صوت زوجته يشق عنان السماء. وما أن رآه بعض الغلمان الحفاة والمتربصين دائماً لأخبار السوء حتى وضعوا أطراف جلابيبهم في أفواههم وانطلقوا لقذفه بتلك البشرى السارة، والغبار يحوم فوق رؤوسهم:

«أخذوا ابنك».

«نعم... أركبوه في السيارة».

«شدوه من شعره وأركبوه في السيارة، ثم عادوا بذات السرعة».

وما أن سمع أبو سليم ذلك حتى اندفع هائجاً في مقدمتهم وهو يصرخ: «ابعدوا... ابعدوا. ما الخبر؟».

فاقترب منه رجل مسن محاولاً أن يكون واعظاً أكثر مما يكون مخبراً: «يجب أن تسلم أمرك لله وأن تكون عاقلاً».

«ـ حسناً. إنني رهن إشارتك، ولكن قل لي ما الخبر، ولماذا زوجتي تنعق بهذا الحماس».

«ـ أخذوا سليم».

«ـ ومن الذي أخذه ولماذا؟ وإلى أين؟».

فأجابه أكثر من أربعة أشخاص على الأقل: «أخذه رجال الشرطة. لقد شتم الشعب».

«ـ لعنة الله على الشعب».

وصرخ أبو سليم بزوجته التي كانت في تلك اللحظة تهش الغبار عن وجهها وثيابها: «كفي عن هذا يا امرأة وإلا دفنتك في الحال. هيا أيها الأولاد الوسخون من حولها. ماذا تنتظرون؟ لقد اعتقل ابني فاسرعوا وحنّوا مؤخراتكم».

ولكن أحداً من الأولاد لم يتحرك بل أخذ كل منهم ينظر إلى رفيقه كأنه ينتظر منه المضي أولاً.

فقال لهم أبو سليم: «حسناً لا تريدون الذهاب لأننا سنقدم لكم الحلوى بعد قليل، وإنني آسف أن أحرمكم من هذا المنظر اليوم. انظروا إليها كم هي سعيدة وهي ترش التراب على وجهها، ولكن بالله عليكم من يتبرع ويخبرني لماذا شتم الشعب وهو يعرف أننا سنمضي إلى الحصاد».

وانطلقت عدة أصوات دفعة واحدة لتخبره وهي تلهث إلا أن الرجل

المسن أشار إليهم غاضباً أن يسكتوا، وتقدم من أبي سليم كأنه ما خلق إلا لأداء هذه الرسالة في الحياة، ثم ربت على كتفه، وقال له: «كنت ماراً من هنا عندما طلب مني ولدك أن أساعده في سرج الجواد إلى العربة. وكان غاضباً جداً لأن ميزان العربة مختل والدواليب تتأرجح وأية حصاة في الطريق قد تجعل كل دولاب يسير في اتجاه خاص، ولأن أمه تركته يسرج الجواد وحده، وراحت تتشاجر مع جارتها حول ما إذا كان الراديو يتكلم من تلقاء نفسه أم أن رجلاً يجلس في داخله. وفي هذه اللحظة، جاء بعضهم...».

«ـ من أين جاؤوا؟».

«ـ من هنا. وطلبوا منه أن يترك العربة والجواد ويوقع على عريضة، فقال لهم إن يديه مشغولتين. وكان في تلك اللحظة بالفعل يدق مسماراً في العربة وهو تحت رحمة حوافر ذلك الجواد الشرس. وعندما ألحوا عليه، طلب منهم أن يبصموا عنه أو أن يكلفوا أي واحد في الطريق أن يبصم عنه فكل الأصابع متشابهة على كل حال، ولكنهم رفضوا وقالوا له إن هذا تزوير باسم الشعب. ويبدو أنه في تلك اللحظة قد أصاب إبهامه بالحجر الذي يدق به المسمار، فطار صوابه وزمجر شاتماً الشعب «وأبو الشعب» وهو يمص اصبعه المسحوق سحقاً بذلك الحجر، فقالوا له: حسناً، ومضوا. ولم يمض الوقت الذي تلف فيه سيكارتك عادة حتى جاءت سيارة الشرطة وأخذوه وهو يمص اصبعه».

وقال أحد المستمعين، وكان طالب مدرسة كما يبدو: «وشدّوه من شعره بأصابعهم».

فنظر إليهم أبو سليم، وقال غاضباً: «وأنت؟ أتظن أن شعرك المسرح

هذا سيظل خالداً على رأسك. هيا اغرب عن وجهي وإلا أطلقت عليك الكلب. الشعب... الشعب؟ من أين جاءتنا هذه المصيبة؟ هيا يا أولاد الجحيم... ».

واتجه نحو الجواد لينهي سرجه إلى العربة. وعند ذلك أقبلت سيارة الشرطة، فامتقعت وجوه الجميع ما عدا الرجل المسن فقد خاطب الجميع ووجهه يطفح بالبشر والغباوة: «لقد أعادوه. لابد أنهم قد أعادوه وإلا لماذا عادوا؟ ».

وقفت السيارة بعنف، وصرخ صوت سائقها: «من والد المعتقل سليم؟ ».

«ـ أنا... ماذا تريد؟ ».

«ـ هل أنت أيضاً شتمت الشعب؟ ».

«ـ نعم وثلاث مرات. ماذا تريد؟ ».

وهبط رجال الشرطة من مؤخرة السيارة، وأطبقوا على أبي سليم، وأخذوا يشدونه نحوها وهو يقاوم ويتلفت كمن وقع في فخ حقيقي.

«ـ لا... لن تعملوها معي أيضاً. إنني أريد أن أذهب إلى الحصاد. لقد جفّ زرعي وسوف تحصده الريح. آخ! أتضربني يا كلب أمام زوجتي وهؤلاء الأولاد الصغار؟ اتركني قليلاً. لقد سقط عقالي. يا أولاد الزنا... لن أصعد حياً إلى هذه السيارة. لا يمكن. إن الله سوف يعاقبكم».

وصعد حياً بالطبع إلى السيارة بعد أن طوح به تطويحاً إلى جوفها، وقد كان حاسر الرأس، ومنديله يخفق على صارية العربة. وكانت زوجته في ذروة الذرى من الصراخ والشتائم ذات الصدى الأليم المقذع. وعندما زأر محرك السيارة هاج الجواد الشرس وأخذ يصهل ويلوح بأعنته المقطعة كأنه يريد أن

يمنعها من المسير أو كأنه يعلن استنكاره لهذه الإجراءات، وقد أسقط قبعة أحد رجال الشرطة، فهاج الشرطي، وهبط من السيارة مزمجراً باتجاه الجواد، فصاح به أبو سليم: «لا... لن تعتقله. إنه مجرد حيوان غاضب».

وتحركت السيارة بهدوء، تزفر وتزأر وتتمايل كأنها تحاول أن تجمع أكبر كمية من الغبار تحت دواليبها لتقذفها إلى الأفواه المفتوحة دهشة واستغراباً أمام المنزل، ثم اندفعت بأقصى سرعتها بينما وثب الجواد كالراقص في الهواء وهو يصهل صهيلاً فاجعاً وراء سحابة الغبار التي غمرت القرية بأكملها.

***

اجتازت السيارة عشرات الكيلومترات بين الحفر والأغنام الملتاعة من شدة الحر، وأبو سليم يسأل: «إلى أين تأخذوننا بالله عليكم يا جماعة؟ قولوا فقط إلى أين وعليكم الأمان».

وعندما لم يتلق جواباً من أحد، التفت وراءه بسرعة. كان الجواب خلف رأسه مباشرة، ولكنه أحس بلكزة في خاصرته، فقال متذمراً: «من هذا الوحش الذي يلكزني؟».

والتفت يمنة ويسرة. وإذا بالسيارة تغص بالمعتقلين. لقد عرف جميع الوجوه ما عدا بعض البدو الطويلي الجدائل، فشعر ببعض الاطمئنان إلى أن له شركاء في هذه المحنة الشديدة الاهتزاز. وسأل مرة أخرى: «إلى أين يا جماعة؟».

فهز المعتقلون رؤوسهم علامة الجهل المطبق بما يخص إلى أين، وقال أحدهم: «قالوا لنا: سؤال وجواب في المخفر وتعودون إلى بيوتكم. وها أنت ترى».

وقال آخر: «قد يأخذوننا إلى الهند».

وقال ثالث: «أو إلى باريس».

وكانت باريس بالنسبة إليهم نهاية العالم بل يلفظونها كأنها أكثر بعداً من النجوم.

وصاح شرطي: «إما أن تسكتوا، وإما أن أكسر هذه البندقية على رؤوسكم».

فسكت الجميع سكوتاً مطبقاً ومن دون أن ينظروا إلى بعضهم البعض، وراحوا يصغون إلى صوت المحرك الملتهب يدوي في تلك البراري القفراء.

وبعد زمن طويل، شعر أبو سليم أنه سينفجر لو سكت دقيقة واحدة أخرى، فقال للشرطي من دون أن يرفع رأسه: «ولماذا بالله عليك ستكسر هذه البندقية على رؤوسنا؟».

فأجابه الشرطي مكشراً: «لأنها رؤوس بالية، رؤوس فارغة فراغاً مخيفاً ولم يجد الله ما يعبئه فيها للآن. هيا انطق كلمة أخرى ولن أجعلك تصحو حتى يوم الحشر. لا تنظر إليّ هكذا. لن تخيفني. انظروا جميعكم إلى أسفل. تأملوا وجوه بعضكم الجميلة. لا أريد التفاتة واحدة نحو الفضاء ثم كفوا عن الأنين والتذمر. إن من يرتكب جرماً عليه أن يتحمل عاقبته».

وقال أبو سليم: «عاقبته؟! أي جرم هذا الذي ارتكبناه لنتحمل عاقبته. لقد اعتقل ابني، فماذا تريدني أن أفعل؟ أن أغني؟ كنا على وشك الرحيل إلى الحصاد. التفتْ قليلاً يا ملك الملوك وانظر تحت تلك السحابة الصغيرة. هذا هو حقلي».

فالتفت إلى أبي سليم وسأله ساخراً: «وكيف عرفت أنه حقلك؟».

«ـ من رائحته، من عدد سنابله. انظر. إنه أصفر كالشمع كأن الخوف قد غزا الحقول أيضاً. كنت سأمضي إليه هذا الصباح لأتأمل سنابله الرائعة لا لأتأمل هذا الوجه».

وعاد الصمت من جديد، فرفع أبو سليم ذقنه، ووضعها على كتف أحدهم، وأرسل نظراته المتعاقبة نحو السهول المترامية الصفراء عبر الطريق المتربة والتي كانت تتلون بلون اللحم تحت عجلات السيارة القاسية.

هناك حقله. إنه يبتعد ويتضاءل كوردة كبيرة تنهي تفتحها وتلملم أوراقها عند الغروب وترقد على عنقها حتى الصباح. لقد أصبح حقله صغيراً كالرغيف، كقطعة النقود، كلاشيء. شجرة التين التي كان يتناول طعامه في ظلالها، كانت وحيدة وحدة العانس، ولا تينة تتدلى من عيدانها بينما تراءت له دموعاً أخرى من خلال أصابع الشرطي المسترخية في الهواء الطلق، دموعاً أشبه بثمار صفراء تتدلى من شجرة التين... من عنق تلك السحابة الرمادية التي جاءت تحوم فوق حقله اليابس كأن الله أرسلها منذ أن علم باعتقاله لكي ترطب تلك السنابل وتقيها وهج الشمس حتى يعود من رحلته الطويلة هذه، ثم انزلق رأسه على ركبة أحدهم، وبدأ يشخر.

وقال الشرطي بعد أن تأكد له أن ذلك الشخير ليس نزوة عابرة من ذلك العجوز النائم المهموم وإنما شيء أصيل وتاريخي فيه: «لا تشخر من أنفك أيها العجوز».

وأوقظ أبو سليم بأكثر من وسيلة، وأفهم ما يريده الشرطي حرفياً، فهمهم قليلاً ثم تابع النوم، فقال الشرطي بنفاد صبر: «قلت لك لا تشخر من أنفك أيها العجوز».

وأجابه أبو سليم بنفاد صبر أشد: «ومن أين تريدني أن أشخر إذا لم يكن من أنفي؟».

«ـ لا تنم».

«ـ لا أنام. اسمعوا يا جماعة. يريدني أن أقضي كل هذا الوقت في التفرج عليه».

وعاد ملهوفاً إلى شخيره، فلكزه الشرطي بأخمص بندقيته بقوة: «قلت لك اخنق هذا الصوت المزعج. إنك تثير أعصابنا».

وعندما أدرك أبو سليم أن ما يقوله الشرطي خال من أي نكهة كوميدية، أخذ يشق طريقه زحفاً على ركبتيه وراحتيه حتى أصبح في الزاوية اليمنى من السيارة، ثم وضع رأسه على ركبة أحدهم وتابع النوم.

كان جوف السيارة خليطاً خانقاً من الرؤوس والركب والأنفاس الكريهة، خليطاً متراصاً لا تنفذ منه الإبرة إلا إذا ضربت بمطرقة. ومع ذلك استطاع أبو سليم أن يهيء لرأسه مكاناً ما وينام. وران الصمت على الجميع، وكان جميعهم أشبه برجال لم يمارسوا في حياتهم إلا النوم حتى رجال الشرطة زالت عن وجوههم ملامح الغلظة والتوتر، وأخذوا يحنون أعناقهم وهم يتثاءبون.

وكانت السيارة قد اجتازت المناطق الزراعية، وأصبحت السهول حمراء من كثافة الغبار والقيظ الذي يجعل العين ترى حفنة الغبار الواحدة مليوناً وأكثر. وكانوا يمرون في طريقهم بأسراب من الجمال والرعاة المشبعين بالغبار والقذارة.

وقطع هذا الصمت الطويل صمت ناعس يسأل: «من ينام على ركبتي؟».

فلم يجبه أحد.

وسأل الصوت نفسه بنبرة أشد استياء من الأولى: «قلت من ينام على ركبتي؟».

فلم يجبه أحد، فصاح: «يا شرطي... هناك من ينام على ركبتي في هذه السيارة ولا يتكلم».

ولم يجبه أحد، فراح صاحب الصوت يلتفت يميناً وشمالاً وقد شعر بالهلع. لماذا لا يجيب أحد؟ لماذا لا يتحرك شيء من كل هذه الأشياء؟ هل فقدوا القدرة على الكلام؟ هل ماتوا؟ وكيف يموت الإنسان في رحلة قبل أن يصل إلى نهايتها؟

كان بدوياً من إحدى العشائر الشهيرة بلصوصها وولعها بالطعن والنزال. وقد اتهم بأنه آوى أحد الهاربين من وجه العدالة وأطعمه وسقاه، فجيء به للتحقيق لماذا أطعم رجلاً جائعاً وآواه. كانت شفته قصيرة ومشطورة بوشم أخضر كلون طبيعي للجوع والمسغبة. وكانت أسنانه في تلك اللحظة تلمع في وجه تلك الصحارى الغبراء عارية ومضمخة بذلك اللعاب المر، فوق هذا الحطام الذي بدأ يتحرك ويتصل ببعضه ويتابع مجراه. إذن لم يمت أحد، وكل ما في الأمر أنهم لا يكترثون به، ولذلك لم يجب أحد عن سؤاله، فثارت ثائرته، واعتبر حياته كلها مرهونة بالإجابة عن هذا السؤال، وصرخ بانفعال بلغ القمة: «طوال عمري وأنا أعرف أن لي ركبتين. وأنا الآن لا أجد إلا واحدة».

فقال الشرطي: «كفاك صراخاً أيها الماعز. هيا قم وابحث عنها. هيا إنني آمرك بذلك، ولكن إذا تحركت من مكانك جلدتك حتى الموت».

واهتزت السيارة، وترنحت ذات اليمين وذات الشمال وهي تمر فوق

عدد من الحفر، فاختلط ذلك الخليط، وتبدلت أوضاع المعتقلين بصورة غير إرادية، وطار صواب أبو سليم: «أيها الأخوان. كان هناك شيء كالحجر أرقد عليه. أين هو؟ شيء وسخ ومع ذلك أين هو؟».

فأجابه البدوي: «إذن أنت هو الذي كان ينام على ركبتي».

«ـ قلت لك: شيء ما أضع رأسي عليه، ولا يهمني إن كان ركبتك أو ركبة فرسنا التي في الحقل. والآن أستغني لك عنه. لقد حطم رأسي على كل حال».

«ـ آه جازاني الله. كان يجب أن أدعك تنام على بطني فهو أكثر ليونة. أغرب عن وجهي وإلا حدث ما لم يكن بالحسبان».

فصاح الشرطي: «ماذا هناك يا دواب؟ أنت... ألم تجد ركبتك بعد؟».

«ـ نعم... وجدتها، ولكنها متسخة بلعاب هذا العجوز».

ومد أبو سليم يده، وصفع البدوي على وجهه: «قلت لك إني لم أكن أعلم أنها ركبتك. ولو أنني كنت قد رأيتها بهذه القذارة لما استعملتها كوسادة لي إطلاقاً بل لكنت قد قطعت رأسي واستعملته عوضاً عنها».

وقال البدوي فزعاً وباكياً: «أنت ترى أيها الشرطي أنه ضربني ولم تفعل شيئاً. سأقول للذين أعلى منك».

فقال الشرطي لأبي سليم: «أيها العجوز القذر. لن تدعنا نصل بسلام. إنك تخلق لنا المشاكل في نومك وفي صحوك. تسأل في الوقت الذي يجب أن تجيب، وتجيب في الوقت الذي يجب أن تسأل. هيا. كلمة واحدة فقط وأجعل أحدهم... بل هذا البدوي بالذات يركب على ظهرك حتى نصل».

فقال أبو سليم كمناقش حول طاولة مستديرة: «وأنت أيها

الشـرطي... منذ أن انطلقنا بهـذه السـيارة لنلاقي مصـيـرنا وأنت تتـدخل فـيـمـا يعنيك ومـا لا يعنيك وأنا أغـض الطرف... وأنا أقـول بعـد قليل سيتحسن سلوكـه... بعد لحظة يقلل من أخطائه، ولكن دون جدوى كـأنك تعتـقد أن الله خلق العالم وهو يلبس خوذة، ولذلك منذ الآن وصاعداً قد يركب على ظهري وقد أركب على ظهره فلا علاقة لك بالموضوع. نحن من الشـعب والدولة معنا . وهذا الكلام ليس من اختـراعي بل سـمـعـتـه من الراديو بأذني هذه. والراديو لا يكذب لأنه ليس إنساناً. لقد قال إننا نحن الشعب، فمعنى ذلك أننا نحن الشعب».

والتفت إلى رفاقه ليرى تأثير كلامه وتحليله على وجوههم، فوجدهم نائمين، فضحك لنفسه، وصمت وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ظاهرها الهدوء والاستسلام وباطنها أعظم الغضب والاستفزاز في العالم. وهنا قال شرطي كان صامتاً طوال الوقت، ومخفضاً قبعته على عينيه اتقاء للشمس اللاهبة: «من هذه القاذورة التي تقول إنها الشعب؟».

ولما لم يجبه أخذ يهذر كالمجنون: «من كان يثرثر طوال الوقت ولم يؤدبه أحد؟».

ونهض منحنياً، وأخذ يدوس على أعضاء المعتقلين المختلطة ببعضها وهو يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه. وتصلبت وجوه الجميع من الفزع، وراحوا يزحفون منكمشين إلى الوراء في جوف السيارة المحرق.

«ـ قلت من الذي كان يثرثر عن الشعب؟».

فـقـال له زمـيله: «ذلك العـجـوز الذي ينظر إليك كـأرنب، ولكن دعه...».

وهمس في أذنه: «ممنوع الضرب في الآليات».

فعاد الشرطي الغاضب إلى مكانه ليخفض قبعته من جديد على عينيه، وعاد معه الصمت المتوتر إلى جو السيارة. ولكي يحفظ أبو سليم ماء وجهه، وبعد أن اجتازت السيارة عدداً من الكيلومترات كان خلالها يقلب الموضوع ويمحصه من كل جانب، قال والاتكال على الله: «أنا القاذورة التي كانت تتحدث عن الشعب».

فانتفض الشرطي الصامت من رأسه حتى أخمص قدميه، وقال لزميله متوسلاً: «دعني أنهض وأحطم رأس هذا الحيوان».

«ـ ولماذا تكسره؟ ألا ترى أنه فارغ؟!».

وقال أبو سليم وهو يشير إلى رأسه: «لا... ليس فارغاً. وإذا كان فارغاً من شيء، فمن أية ذرة من المودة تجاهكم».

وقال الشرطي لزميله بتوسل حقيقي: «أرجوك أرجوك. دعني أحطم شيئاً في جسد هذا العجوز وإلا فقدت توازني».

«ـ لا تستشرني في مثل هذه الأمور. تصرف تلقائياً. اتخذ الموقف الذي يكرس مبادئك في الحياة دون استشارة الآخرين».

وتابع أبو سليم: «لنفرض أن رأسي فارغ كما تدعي، ولكن قل لي بالله عليك: هل تعتقد أن الذي تحت قبعتك هو رأس. أبداً. إنه شيء ما...».

وجحظت عيناه فجأة، وتقلص فمه متخذاً شكل سياج من الدم حول أسنانه التي غزاها الدم أيضاً. وهوى عليه الشرطي بعلبة أخرى من السردين، ونهض يرفسه رفساً دقيقاً ومحكماً ويصفعه بيده وهو فاغر العينين، مقلوب على ظهره، وأطرافه الأربعة مشرعة في الهواء كأرجل الكرسي.

«ـ يكفي... ممنوع الضرب المبرح في الآليات».

ولكن الشرطي تجاهل هذه الحكمة تجاهلاً تاماً، وتابع ضرب العجوز الذي قاوم بعض الشيء ثم هدأ ووجهه على حديد السيارة الشاحنة، وتمتم: «لقد حطم أسناني. يجب أن أكون الآن في الحصاد لا في هذه السيارة».

وتأزم الحوار الإنساني بين رجال الشرطة. فقال أحدهم: «قلت لك إنه المسؤول. هيا بلط البحر».

وجلس الشرطي لاهثاً بينما تحرك فلاح ما في آخر السيارة قائلاً: «ما هذه الضجة؟ نريد أن ننام».

وعاد الصمت من جديد إلا أن أبا سليم كان لايزال غاضباً وحانقاً ووجهه يتقلص وينبسط كغدة ملتهبة. وكان يراقب الموقف بدقة وبعينين صغيرتين مستديرتين، متحيناً الفرصة المناسبة كي ينقض على الكلام. وكان الشجار الهامس بين رجال الشرطة لايزال مستمراً ومتأججاً.

«ـ قلت لك إنه المسؤول. لا تدعني أنهض مرة أخرى وأقذفه من السيارة».

«ـ أنت المسؤول عن مصيره».

«ـ ومن هو حتى أكون مسؤولاً عن مصيره؟».

وانبعث صوت ما من نهاية السيارة... صوت فلاح عجوز يحمل في رأسه ذكرى جميع الأشخاص الذين ولدوا وماتوا واحتضروا في هذه المنطقة، وفي صوته نبرة العظماء الذين يضطرون في معظم الأحيان إلى أن يفندوا عظمتهم حرفاً حرفاً في الأمكنة غير المناسبة، في المجالات التي تكتم الصوت البشري كما تكتم النوافذ المغلقة صوت المسدس: «فعلاً ومن هو حتى تكون مسؤولاً عن مصيره؟ يجب ألا يستمر الجدل حول هذا

الموضوع أكثر من ثانية ولكن طالما كان الطريق طويلاً، ولابد للإنسان من أن يجد شيئاً يتسلى به... أحب أن أقوم بتسليتك وأقول: عندما كان العشرات يأكلون على مائدته لا أظنك كنت تلبس هذه القبعة التي ما تنفك تنفضها وتمسحها بمرفقك كأنها من الدمقس أو الحرير الهندي. هيا تعال اضربني، فأنا مشتاق إلى نوع آخر من الألم غير الذي أحسه في أعماقي. لقد كانت مواشي البدو الظامئة تنهل شهوراً وشهوراً من نهره الأزرق الجميل وهي معتوقة الأرجل، وبساتينه مباحة في كل الفصول. عشر سنوات وخيوله تصهل مرحبة بضيوفه. وعندما كانت حتى الكلاب الضارية تأكل من لحم ضحاياه في الأعياد وغير الأعياد لحماً أحمر لن يراه جيل من أجيالنا بعد الآن، كان أمثالك يسيل لعابهم من أجل قطعة من هذا اللحم الزنخ (وأشار إلى علبة السردين) إن زوجتي مستعدة أن تطعن رأسها بالمقص ولا تشم رائحة مثل هذا اللحم. أعوذ بالله! كل معوز وكل عابر سبيل وكل ذي فاقة أو عاهة، كان يأتي، كان يدخل من دون أن يقرع الباب لأن الباب كان مفتوحاً باستمرار. عشر سنوات والملاعق الفضية تغسل بالمئات في مياه الآبار... الآبار التي ليس فيها من الماء الآن ما يكفي لحلاقة ذقنك أيها السيد...».

ثم التفت العجوز، وصرخ في أذن جاره البدوي: «أتفهم ما أقول يا ذا الجدائل الطويلة؟ طبعاً لا، ولكنك لو كنت تفهم لنهضت ووثبت كالفهد لتمسح علبة السردين بجلبابك وتعيدها إليه. جبناء وتعساء، والله وحده كفيل بإزالتكم الواحد بعد الآخر».

فقال البدوي: «أتعني أن...».

«ـ نعم أنت. أنت والآخرون. لا أعرف كيف أن تلك القيافي البعيدة

الساحرة، تلك النجوم والرياح والأرض الصلبة الرائعة، تنتج هذا الذل والأيدي المهزوزة على الركب».

فقال البدوي: «لم أكن كذلك في يوم من الأيام».

الفصل التاسع

عبثاً حاول الشرطة المسلحون تنظيم الموقوفين في صفوف منتظمة أمام باحة المخفر في ضواحي المدينة، فما أن ترف أعين الحرس لحظة واحدة حتى يجلس أحدهم القرفصاء والبعض الآخر ينام، والبعض الآخر يذهب ليتبول. وبينما يكون أبو سليم في المؤخرة لا يجد نفسه بعد لحظة إلا في المقدمة أو في الوسط أو في أي مكان آخر ما عدا مكانه الحقيقي. وقد غضب الحراس كثيراً، وهوموا عليهم بالعصي، وأمطروهم بأقذع أنواع السباب وأكثرها جدة وابتكاراً. وعندما كان يعود أحد الحراس والصفارة تزعق في فمه، كان أبناء المدن أول من ينتظم في الصفوف لا حباً بالنظام بل خوفاً منه. أما الفلاحون فكانوا لا يتحركون بل يبقون في أماكنهم حتى ينهضهم الشرطي بعصاه أو قدمه. وكان أبو سليم قد عيل صبراً من الجلوس والوقوف. وقرر أخيراً عدم النهوض ولو شنقوه في الحال. ولذلك اتكأ على جنبه الأيمن بين الأرجل تماماً، وأخذ يتحدث مع زميل له عندما أقبل الحارس وصرخ به: «هيا قف».

«ـ لن أقف».

«ـ ولماذا لا تقف؟».

«ـ لأني سأعود إلى الجلوس بمجرد أن تذهب».

«- لا لن أذهب وستقف عاماً كاملاً. وإذا ذهبت ستقف حتى يوم القيامة».

«- شيء غريب! وما هي الفائدة التي تعود عليكم من وقوفنا في هذه الشمس المحرقة؟ حسناً. سأقف إلى ما شاء الله، ولكن لابد أن أجلس ذات يوم».

وأخيراً نجحت الصفارات والهراوات والحشود المتدفقة من السيارات الأخرى الوافدة من القرى في تشكيل خط ملتو لا يعرف إلا الله أين ينتهي. وعندما ذهب الحرس لتنظيم صف آخر، جلس الجمع ما عدا أبناء المدن، فقد ظلوا منتصبين كأعمدة الهاتف وسط صحراء لا نهاية لها. وقال أبو سليم كأنه يخاطب نفسه: لم يصدقني ذلك الحارس. إنهم سيجلسون. يقول إنه النظام. حسناً، ولكني أؤكد أن الذي كتب ذلك النظام لم يكتبه واقفاً.

ثم مد أبو سليم ساقيه بارتياح كأنه في بيته.

وأقبل فجأة شرطي واحد بل ثلاثة أربعة خمسة ولوحوا بهراواتهم: «قفوا وراء بعضكم ولا تتحركوا. ومن يسمع اسمه يجيب بأعلى صوته: حاضر، كدليل على أنه سمع وأنه موجود».

كانت هناك صفوف أخرى تنظمها هراوات أخرى. وبدأ الشرطي قراءة الأسماء وهو يرغي ويزبد وينثر «التحف» من فمه يميناً وشمالاً. كان معظمهم كأنهم نسوا أسماءهم، لم يكونوا يجيبون بشيء عند سماعهم تلك الأسماء كأنها لا تمت إليهم بصلة أو لم يسمعوها من قبل. ولذلك ساهم السوط إلى حد كبير في تذكيرهم بأسمائهم. وأخذ معظمهم يجيب وهو يحك ظهره أو رقبته بينما بعضهم الآخر يجيب وهو يتبول بعيداً تحت

الشجرة حتى أصبح الحرس في حالة يرثى لها فعلاً كأن الأسماء المرددة عصافير مكلفون بالتقاطها. أسماء... أسماء... مضحكة ومبكية ومشوهة، تنفجر في الهواء، ترفرف، دون أن تحط على شيء. لقد فقدت الأسماء أي معنى، وأصبح تذكرها كتذكر سحق أصبع تحت حجر، مؤلم لكنه ضروري.

ولما كان أبو سليم يقف في المقدمة فقد أجاب عندما سمع اسمه كأنه رآه يخرج من فم الشرطي. وقد كان ترتيبه في الوسط ولكنه خلق في المقدمة بقدرة قادر، ولذلك كان يظن أن كل هذه التهديدات تتناوله شخصياً، وأنه هو المسؤول عن كل الذي وراءه، فوقف جامداً كالتمثال.

وقد كانت المسافة بين صفوف المعتقلين وواجهة السجن طويلة، ففوجئ المعتقلون عندما أمرهم الحرس بأن لا يتحركوا وأن لا يرفسوا. وقال أحد المعتقلين: «إنهم سيصوروننا».

«ـ وسيرسلون صورنا إلى أمريكا».

فصرخ الشرطي وهو منظم أيضاً في صف مع زملائه: «ألا تسكتون أيها الكلاب؟ ألا ترون من القادم؟».

وتصلب الجميع، وأصبحوا كالصخر. حتى الأشجار والأعمدة وبراميل المحروقات بدت أكثر تصلباً واستقامة عندما أقبل المسؤول الكبير تحيطه حاشيته. ورد على تحية الحرس بأحسن منها، ووقف مفتوح الساقين ويداه خلف ظهره، وقال لكل هذه الجموع، لكل هذه العيون والرؤوس والأحشاء وما لها من ذكريات وأطفال وبيوت وأحلام: «كلكم كلاب».

ثم عدل فجأة عن الكلام، وتحرك مع حاشيته بين الصفوف المتراصة وكأنه أراد أن يتأكد من أن مثل هذه الأشياء تستحق المخاطبة بضع دقائع تحت هذه الشمس المحرقة أم لا. ثم عدل فجأة عن ذلك، وراح يتفقدهم فرداً

فرداً بعينيه الحادتين الجميلتين كأنهم صفقة خيول يريد أن ينتقي أجدرها بمهمازه وسوطه المطوي تحت إبطه. وكان الحرس يسير حيث يسير ويقف حيث يقف. وكان لا يفتأ يسأل من يقع عليه الاختيار عن سبب اعتقاله ومتى وأين. يسأل بشفاه رقيقة وندية برضاب الفاكهة والمرطبات، ويتلقى الجواب بشفاه يابسة ومكسوة بالقش والغبار. لم يكن ذلك المسؤول يرى أفواهاً مطالبة بالإجابة بل ثقوباً نتنة، فوهات يجب أن تغلق بأي شيء حتى تأخذ الأصوات النظيفة الأخرى حريتها في اللعلعة والانتشار.

وكان الرجل الذي يقف خلف أبو سليم لا يفتأ يلكزه بقدمه ويسأله هامساً: «من هذا؟ وماذا سيعمل بنا؟ وهل حقاً سوف يصوروننا؟».

وكان أبو سليم يحك قدمه بساقه مزمجراً بهدوء، يقف في المقدمة كبوصلة حقيقية لكل هذه الآلام، أباً شرعياً لهذا الخجل المريض المنهار رغم انتصابه وشموخه أمام هاتين العينين الجميلتين اللتين تحملان في بؤبؤيهما الأسودين بذرة البداوة وجمرة الطغيان.

وكان أبو سليم بعباءته المنتفخة الشراع الوحيد في هذه العاصفة بل تلك السفينة المندفعة كالثور نحو العلامة الحمراء الأخيرة لشرف الريف وبسالة الحقل. ولذلك كان يرفع رأسه قدر ما يستطيع في المقدمة رغم أن شاربه الكثيف الممتلئ بالعرق والغبار يضغط على فمه ككفخ موحل لالتقاط أية شكوى مفترضة قد تنبت سهواً من الشفتين المغلقتين.

كان جديراً بأن ينحت خياله على الرخام والبرونز، ويغرس حتى ركبتيه فوق جبل من الغبار لتهدأ الفراشات المتبقية على شاربيه الأسودين وليشرب الرعاة الظامئون من راحتيه المملوءتين بماء المطر.

كان جديراً بهذا الصمت، وبتلك القيادة النبيلة الحاسمة لهؤلاء

اليتامى، لحاملي الفؤوس والعناقيد والدلاء الطافحة من الآبار، ولكنه لا يتورع في الوقت نفسه عن الصراخ حتى تتفجر جمجمته إذا ما ذكر أحدهم أمامه حقلاً أو جواداً.

كان الوحيد في هذا الخضم الهائل من المعتقلين الذي لم يكن فمه مجرد ثقب أو فوهة يجب أن تغلق بأي شيء بل كان فماً بشرياً على أحسن مايرام، ومؤهلاً في كل لحظة أن يكون بوقاً ضارباً ومبشراً بالغ الروعة لهذه السهول العاقة الملحدة، لهذه الحصى المغروسة كالأظافر تحت أحذية البوليس والشاحنات. ولذلك لن يبتسم باسترخاء ولن يترنح ولن يجلس كما فعل في الصباح. لقد كان ذلك الوقت وقت مزاح مع الشرطي وغير الشرطي. أما الآن وحيث أُمر أن يقف مع غيره منذ ثلاث ساعات تحت الشمس اللاهبة لا لسبب معين فإنه يقف للتجربة، لاختبار أي السيقان جديرة بالوقوف والانتصاب على أرض الوطن.

لقد ذهب المسؤول من دون أن يخوض في أي موضوع سوى موضوع الكلاب. ذهب هو وحرسه وسوطه، وجاء حرس آخرون، يسوقون أمامهم مئات أخرى من المعتقلين، محاولين عبثاً صفهم في أرتال موازية أفقياً أو شاقولياً أو لاهوتياً مع الأرتال الأخرى. لقد كانت الفوضى تفرض سلطانها، واليأس البالغ الروعة يخزّ هذه الفوضى في قلبها ليعمي بصرها ويجعلها متفاقمة ومزبدة إلى الأبد. وقد حاول أبو سليم أن يميل برأسه قليلاً ليرى ماذا تعني هذه السحب البيضاء الدامية التي تلمحها زاويتا عينيه المحمرتين من الغيظ والغبار، ولكن الحارس كان يقف قبالته تماماً بحيث لو خطا أي منهما خطوة واحدة لالتقى الأنف بالأنف والفم بالفم. ولذلك لم يتمكن من تنفيذ رغبته تلك، ولكن خمّن من الرائحة على كل حال بأنهم لابد من أنهم ليسوا كالبشر أو ما أشبه ذلك.

وأحس بالنار تلتهب في جوفه وفي رأسه وفي عينيه وكأن شمس آب القائظة تجلس فوق مقعد على رأسه. وسمع أزيزاً مقرفاً في الصفوف الأخيرة ولغطاً واحتكاك ثياب لزجة ببعضها وضربات سياط خافتة ليست بمستوى هذه الصدور والمناكب التي تسبح بالعرق والانتظار. إنه على كل حال، لن يجلس ولن يترنح وهذا الشرطي منتصب أمامه، ولو جلس الجميع، ولو مات واقفاً أمام ذلك الشرطي. وإذا ما مات فعلاً فليحفروا له قبراً في الهواء. صحيح أن عمره ٥٤ سنة فقط، ولكن لو وضعت هذه الأعوام فوق كتفيه بكل ما فيها من زرع وحصاد وصهيل وسهرات ودعاء للكلأ والمطر لاحتاج مثل هذا الشرطي الذي يقف قبالته إلى مئات السلالم كي يصل إلى نهايتها. ومع ذلك لن يجلس ولو مات واقفاً.

***

وأطل المسؤول الكبير مرة أخرى بهيئة سامة ووقف بعيداً بعض الشيء عن الصفوف المنتظمة منذ ساعات من أجله، وعقد يديه خلف ظهره بطريقة خاصة كأنه مصباح يريد أن يشع على الجميع، وفتح فمه كشاعر يريد أن يضرب قلب العاطفة في جمهوره الكثيف المصغي: «اسمعوا أيها البغال. يبدو أنكم رضعتم الفوضى مع حليب أمهاتكم. وهذا بالطبع لا يهمنا بكثير أو قليل. ولو كنا نفضل لو أنكم رضعتم الزرنيخ في ذلك الحين، ولكن هذا لا يمنعني من الإشارة إلى أن بعضكم كان مثال التهذيب والانضباط، وبعضكم أساء إلى الحرس، وجعلهم ينضحون عرقاً وأملاحاً. ولذلك أرجو ألا يذهب المجرم بجريرة البريء، فنحن بطبيعتنا وطبيعة ثقافتنا وتركيبنا الموضوعي لا نسيء إلى أحد لأننا هنا في خدمة الشعب. وأنتم منه وإليه، ولن يعتدي أحد عليكم خارج أوقات الدوام إذا استعملتم ما في رؤوسكم جيداً، وإذا كانت

الظروف قد نهبتكم هذا النهب الطويل من أقاصي الوطن ووضعت مصيركم بين أيدينا فثقوا بأن مصيركم هذا سيكون موضع عنايتنا وسهرنا، لا من أجلكم بل من أجل الظروف التي لا يعرف المرء كيف تنقلب وتخون وتبطش. إنكم رعاع. ما في ذلك من شك. ولم يقف معظمكم أمام مغسلة أو مائدة إفطار. وهذا ما سوف يزيد الأمور تعقيداً، ولكننا سنحاول بقدر الإمكان أن نجعلكم تقفون أمام المغسلة ومائدة الإفطار، ولكن بعد ترويض لا يقل أهمية وصعوبة عن ترويض الضواري الجائعة. وهذا يتطلب جهداً منا وطاعة منكم. إنني أحاول أن أشرح بالتفصيل ما هي الواجبات الملقاة على عاتقكم بين أيدينا. إن أحداً من رجالنا لن يسيء إلى الشعب الذي منحنا السلطة الكاملة لنفي الأمور وتبريرها واقترافها. أيها البغال الأكارم: إن أحداً منكم أيضاً لا يستطيع أن يثبت أنه أهين أو عذب حتى الآن، مع ثقتي المطلقة بأنكم لم تكونوا أقل حركة من البراغيث خلال رحلتكم الطويلة في تلك الشاحنات التي ترون زجاجها كيف يشع في هذا اللهيب القاتل، فهيا اقضوا فترة توقيفكم بهدوء، ومن ثم اغربوا عن وجوهنا...».

وقاطعه أبو سليم قائلاً: «سيدي... قلت إن أحداً من رجالكم لن يسيء إلينا... إلى الشعب. لقد ضربني أحدهم بعلبة سردين على وجهي».

وصعق المسؤول والحرس وجميع الأرتال الأخرى من هذا الصوت الوحيد المغامر الذي يطلب المناقشة والتبرير. فم واحد انفتح بهدوء من بين كل هذه المئات المغلقة المتراصة من الأفواه. وصاح المسؤول بصوت مرتفع: «من أين خرج الصوت... هذا الصوت المنكر؟».

فقال أبو سليم: «من هنا يا سيدي».

«ـ تعال إلى هنا».

وأسرع أبو سليم، ووقف أمام المسؤول الكبير منفرج الساقين واليدين لأنه يعتقد بأنه يكفي الإنسان أن يرفع رأسه ليكون في غاية الانتصاب.

«ـ أنت أيها العجوز؟ ».

«ـ نعم يا سيدي. أنظر. إن أنفي ليس طبيعياً كما ترى، وإنني منذ الضحى وأنا أبصق دماً ».

«ـ اخرس. لا يهمني لماذا اعتقلوك إنما الذي يهمني هو أنهم اعتقلوك وانتهى الأمر. وإذا فتحت فمك مرة أخرى في مثل هذه الأمور ستكون هيئتك كلها غير طبيعية. هيا عد إلى مكانك وإلا نقلتك إلى هناك على محفة ».

ثم وجه المسؤول كلامه إلى الآخرين: «وأنتم... تابعوا التحديق إليّ وأفواهكم مفتوحة كالبلهاء. أسمعتم ما قلت لذلك العجوز؟ هذا الكلام موجه إلى كل منكم دون استثناء. والآن هيا انصرفوا ».

وردّ التحية للحرس، ومضى نحو السيارة التي كانت تنتظره وجلة على الطريق المؤدي إلى المدينة.

وبلمح البصر انقلب كل شيء رأساً على عقب وكأن ألف ألف خلية نحل هزت من طرودها، وبدأت الأسئلة والاستفسارات تنهمر من كل حدب وصوب. وكان أبو سليم البطل المجلي في هذا المضمار. لقد خلق لنفسه شعبية لابأس بها بعد التحدي العنيف الظاهر الذي جابه به المسؤول وأخبره أنه ضرب، وراحوا يسألونه من كل حدب وصوب وهو أكثر جهلاً بما يشغل ذهنهم وأفكارهم لأنه هو أيضاً يملك ذهناً شارداً وفكراً محظوراً عليه التحليق في الأعالي، ثم جلسوا حوله على شكل حلقة، فقال لهم أبو سليم: «انظروا إلى هذه الشمس. لا ينقصني سوى قطعة صابون حتى أستحم بعرقي ».

وقال آخر: «أما أنا فقد أشعلت سيكارتي هكذا من الهواء».

وقال آخر: «أما أنا فقد وقف المسؤول أمامي أكثر من ثلاث دقائق ولم يتحرك كأنه عشقني».

وقال أبو سليم ملخصاً الموضوع كله: «حسناً. إنهم لا ينظرون إلينا بأكثر مما ينظرون إلى بهائم. لقد رأيت نظرته إلي منذ قليل. كان لا ينقصه إلا أن يسد أنفه وعينيه بأصابعه كأن ما في داخل هذه العباءة جيفة وليس إنساناً يحمل دفتر عائلة على الأقل».

ثم راح يرفع رأسه ويخفضه نحو الصفوف المنهارة الأخرى بحثاً عن إبنه، لعله هنا أو هناك، ثم حاول التسلل إلى حيث تتجه عيناه، فزجره الحارس بقسوة، ولكن أبا سليم ازدرد لعابه بمرارة، وقال له: «اسمع يا رجل. هناك في العالم شاب اسمه ابني، وهو معتقل في مكان ما، وأريد أن أبحث عنه. هل من مانع؟».

«ـ لا. لا يوجد مانع بل ألف مانع. هيا عد إلى صفك».

وعاد أبو سليم كسير الخاطر إلى حلقته التي استقبلته بالهياج والصفير.

«ـ حسناً أيها الجبناء، ولكن لولا ذلك الشرطي الذي يذهب ويجيء كأنه فقد راتبه ويبحث عنه في تلك النقطة لما عدت بخفي حنين كما ترون. لابد من أن أرى ذلك المسمى ابني في يوم من الأيام».

وركز راحة يده بشكل أفقي على جبينه، وراح يجول ببصره يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً نحو الوجوه الغامضة البعيدة من دون أن تستقر عيناه على شيء من الأشياء يخفق لها القلب... أشياء لطيفة ومشتاقة كالأبناء مثلاً. وحوم رأسه قليلاً كالجناح، واستقر في اتجاه معين، وأخذت عيناه

ترفرفان بل وتنطان نطاً تحت الحواجب. لقد رأتا شيئاً ما لا كالابن أو الحفيد بل كالذي لا تستطيع إلا أن تخاطبه بابني حتى ولو كان يكبرك بعشرين عاماً وتفصلك عنه عشرون مدينة وقارة، وصاح أبو سليم بمن حوله وهزهم من أكتافهم: «انظرو. إنه الفهد الصحفي. إنه الصحفي ابن أبي الفهد. أعرفه. طول عمره يعيش في المدن. وهو مثلي شتم الشعب. ألا تعرفونه؟ تباً لكم من أبقار! آه إنه لا يلتفت هذه الناحية بل يدير مؤخرته لكل هذه الجهة».

وراح يصرخ، ويلوح بمنديله كمرشد السفن حتى صاح به الحارس: «كف عن هذا اللعب أيها العجوز. إنك لست في مرفأ. انقبر مع الآخرين وكن مثلهم على الأقل».

وكان الفهد غارقاً في التأمل والاستسلام أمام هذه الفوضى المزدرية نفسها وهي تحاول الانتصاب عبثاً أمام هذه السحن المهدمة. إنه لا يفكر بهذه الصفوف المتراصة الآن، فلقد فكر بها أكثر مما يجب، ولذلك جذبته إلى أحضانها كما يجذب الكلب بالسلسلة، ولن يفكر بهم الآن، فهناك وقت كبير للتفكير في المستقبل. المستقبل يبدو كأنه نادم لأنه صنف في هذه المرتبة ولم يصنف ماضياً أو حاضراً يمضي. وعليه الآن أن يفكر بذلك المسؤول الذي وقف منفرج الساقين أمام المئات وكأن القارات الخمس تربض بين قدميه ليهذي ويصارع في حلبة فارغة. كان رجلاً واحداً لا يزن أكثر من ستين كيلوغراماً حتى إذا اعتبر سوطه وحذاؤه وقبعته من صميم أنسجته وخلاياه. ومع ذلك أرعب المئات، فما السر إذن يا فهد؟ فما السر يا من تضجع وراء الفهد وأمام الفهد؟ إنه التاريخ، نسل الهراوة ونتاج الخيمة العاصفة. إن هذا الذي وقف على الحصباء منذ قليل واحد من الذين

أخلصوا للصحراء حتى آخر ذرة من شرفهم... واحد من الذين لو كشطت جلدهم بالموسي لترسب علي حدها أطنان من وبر الإبل وزغب الماعز. إن الفرق بينه وبين الهندي الأحمر الذي يجندل قافلة من أجل محفظة أو ساعة ليس سوى اللون فقط. إنه هندي متوحش وما اللون الأبيض هذا إلا نتيجة قرون لا تعد من البغي، ولن يمتقع هذا الوجه ويعود إلى لونه الغابر ما لم يوجد أكثر من شخص واحد يقف أمامه كما وقف ذلك الفلاح المجهول ويقول له: لقد ضربني رجالك دون ذنب.

إن كلمة واحدة من مثل هذا الصوت المضحك الحاسم كافية لأن تعيد إلى الصحراء لذتها وبكارتها في آن واحد، وتجعل الكلاب الهائمة تتغذى وهي شامخة الرأس من عظام كل الجلادين والمنافقين.

ونظر الفهد إلى أمامه برؤيا جديدة وأمل جديد في العالم وكأنه يتوقع أن يسمع مئات الأصوات المؤيدة لذلك تنبعث أمام فوهات المدافع المنبثقة من صف الدبابات الرابض على الجانبين بينما الأفواه الأخرى متهدلة يسيل لعابها على الركب المضمومة داخل الذراعين.

وهز أحدهم كتف الفهد: «يا أستاذ... هناك من يصارع منذ ساعة لتلتفت إليه. إنه ذلك العجوز المنبثق من ذلك الرتل. إنه يصرخ ويلوح بمنديله منذ ساعة».

وكان صوت أبي سليم بعيداً، خافتاً، يمكن رؤيته كالخيط الذي تربط به أرجل العصافير وتدعى بعد ذلك إلى الطيران: «ألم تعرفني؟ أنا عمك أبو سليم... من عندكم من الضيعة».

«ـ وكيف لا أعرفك يا رجل؟ أي شيطان أتى بك إلى هنا؟».

«ـ الشرطة».

«ـ أعرف، ولكن لماذا؟».

«ـ لقد شتمت الشعب».

«ـ أنت؟ ولماذا؟».

«ـ لا أعلم. كنت غاضباً، وكانت ساعة شيطان. أخذوا إبني أيضاً، ولكن هنا من يقول إنهم تركوه وأبقوني أنا».

«ـ سأراك قريباً على كل حال عندما نصل إلى المكان الجديد».

«ـ هل حقاً سيأخذوننا إلى الهند؟».

وضحك الفهد: «إلى الهند؟ أي مغفل قال لك هذا؟».

وجاء الشرطي مسرعاً لينهي هذا الحوار اللاسلكي بخبطتين من قدميه على الأرض، فزمجر أبو سليم، ولكنه كان سعيداً حتى بزمجرته. وقال لأفراد حلقته مبتهجاً: «لقد عرفني. إنه من ضيعتنا. صحفي... صحفي من ضيعتنا».

وقال أحدهم وهو يضطجع على التراب: «إذن هكذا يكون الصحفي».

ونام.

***

رنت الأصفاد في الأرتال القديمة، وخبّت الأحذية المملوءة باللحم والعروق المنتفخة بين صفين من البنادق، وتلألأت قطرات العرق على الأنوف المحدودبة وقمم الصوان، وراحت عصافير الصيف المرحة ترفرف فوق الأرتال القديمة والجديدة على السواء.

وإذا كان عدد كبير من الموقوفين قد امتطى الشاحنات فإن العدد الأكبر سار خلفها مجذوباً بالسلاسل كقطيع من الكلاب وكأن هذا الحر الشديد قد أذاب كل هذه الآلام والصرر والثياب وجعلها تتداخل فيما

بينها وتتغلغل كجذور ضاربة في الرمل، ولذلك لم يكن لربط معاصمهم بالحبال أي معنى أو غاية لأنهم لم يشعروا بها أبداً وكأنها خلقت معهم... أساور من القنب الأحمر جاؤوا بها من قراهم البعيدة، وإذا ما سألت أياً منهم عما يشتهيه في هذه اللحظات لأجابك دون تردد بأنه يتمنى لو أن هذه المسيرة الطويلة تتم في الليل حيث كان بإمكانهم أن يغنوا وأن يفسحوا المجال لكل الفراشات المحطمة على أشواكها ولنسيم الليل أن ينقل عارهم حرفياً إلى أبنائهم وزوجاتهم وكل الأشخاص الذين أحبوهم أمام الحوانيت وفي غرف الطابور. أما في النهار، في مثل هذا الوضوح الشديد في الظهيرة الخانقة فتلك المسيرة تمتص عارهم كالبق وتعصر وحلاً ودماً على المناديل المربوطة حول الأعناق.

كانوا واثقين بأنهم لن يتركوا أي ذكرى لشقائهم وبؤسهم في هذا القفر حيث لا أقلام ولا نظارات ولا أبناء، ولأن طيور العدالة المعاصرة ستلتقط أي دمعة أو قطرة دم وتلقيها أمانة في حلق الصحراء. ولما كان الفهد يعرف ما هي الصحراء كما يعرف سريره فيما مضى فقد أدرك أن أية محاولة لردم هذه الحلوق الفاغرة أشبه بمحاولة ردم البحر بملعقة الشاي. وحتى لا يبقى وحيداً ومكابراً، فما أن أعلنت صفارات الحرس انتهاء المسيرة العظيمة والوصول إلى السجن الجديد، وطلب من المعتقلين الاستراحة بالطريقة التي يختارونها ريثما يتم توزيعهم على المهاجع، طفق الفهد يبحث عن أبي سليم بين الصفوف المتهالكة المدماة كما يبحث المدمن عن قطعة مخدر. وأخيراً وجده هائجاً محتقناً من الغضب، يؤكد لمن حوله تارة وللملأ تارة أخرى بأنه سيهرب: «نعم سأهرب ولو قمطوني بالسلاسل، فإذا كنتم أنتم حيوانات فأنا لا».

وصاح الفهد: «لا... لن تهرب أيها العجوز لأنهم سيعملون من ظهرك غربالاً. وأي غربال؟!».

والتفت أبو سليم ممتعضاً ليرى من هذا الوقح الذي يصب الماء على ناره الهائجة، وتقلص وجهه الأغبر الكالح قاذفاً ابتسامته ومرحه دون وجل أو تبرير، مدّ يديه مصافحاً ومعانقاً: «أيها الصحفي... يا ابن ضيعتنا... لماذا لم تضع على رأسك جريدة كي أعرفك؟».

«ـ ولماذا لا تضع أنت محراثاً على ظهرك حتى أعرفك؟».

وتعانقا بإخلاص وحرارة حتى امتزجت دماء قروحهما، وشمشم أحدهما الآخر كحيوانين حظر عليهما ممارسة الحنان والذكريات ما عدا زفير الأنف وتحريك الذيل.

وقال أبو سليم: «انظر يا أستاذ... إني أصبحت كالطبل».

وبصق في الغبار: «ولماذا؟ لأنهم أخذوا ابني وغضبت. نعم سأهرب. وما من قوة في العالم تحول بيني وبين ذلك».

«ـ هدئ روعك أيها العجوز، فلن يطول بك المقام هنا».

«ـ لا أحد يعلم. لقد قالوا لذلك البدوي الذي يتبختر بجدائله اللعينة: «سؤال وجواب في المخفر وتعود إلى أغنامك. وها هو مازال معنا. وهو لا يفقه شيئاً. حتى اسمه يحتاج إلى سيكارة وشرود خمس دقائق حتى يتذكره. وذلك الأبله الذي يلبس نظارات قال ربما يحكموننا عشر سنوات...».

«ـ إنه يسخر منك. عشر سنوات؟!».

«ـ لا لم يكن يسخر مني، وقال إنه ليس من الغريب أن نحكم بعشر سنوات بل الغريب ألا نحكم».

«ـ لقد خرفت. لن يحكموك عشر ثوان. هل قمت بثورة؟».

«ـ لا يهمني. سأهرب. عندما تكون الاحتمالات بحراً هادراً فكن شراعاً أو ضفدعة. ليذهب كل شيء إلى الشيطان. لقد غمرت وجهك برذاذ فمي. كيف حالك يا رجل؟ أهلك لا يعرفون الرقاد في الليل بسببك».

«ـ خبرني... خبرني كيف أحوالهم».

«ـ لولاك لكانوا بألف خير. لقد رأينا أباك وأمك يتغازلان عند البئر».

«ـ ألم يعجزا بعد؟».

«ـ ماذا تقول؟ لولا الحزن لأنجبا ما يكفي لملء هذه الشاحنة. جاءت أمك لتتبع أخبارك، ولكنها لم تفلح، وقد أعطوها بعض الأوراق فمزقتها، وغضب أبوك غضباً شديداً لأنه لايزال يعتقد أن سبب بقائك للآن في السجن هو تمزيق تلك الأوراق».

«ـ أية أوراق؟».

«ـ أوراق كانوا يعطونها إياها في دوائر الحكومة كتلك الأوراق التي يعطونها في السيارات في هذه الأيام. وقد بقي أبوك حتى منتصف الليل وهو يسألها مزمجراً عن لون الأوراق وطولها وعددها حتى انفجرت أمك باكية لأنها تسرعت ومزقتها في ساعة شيطان».

وضحك الفهد، وقال: «يا للعجوزين المسكينين! ألا يعرفان أن الشوارع ملأى بمثل هذه القاذورات؟».

«ـ لا... لا يعرفان شيئاً ويصدقان كل شيء يصل إلى أسماعهما. مرة يقولون لهما إنهم ينخزونك بالأبر كل ليلة، ومرة يتركونك عارياً على الثلج، وأنت تعرف قلب الأم. إنها تموت كل يوم ألف مرة. لقد اشترت كفناً لها وغسلته وعطرته بالصابون حتى تخيطه حول جسمها بمجرد أن تخرج

من السجن لأنها لن تتحمل هذه البشرى، ولكنها أكدت أنها ستموت سعيدة. والآن دعنا من هذه الخرافات. إلى متى تبقى هنا؟».

«ـ لا أعلم، وإن كانت هناك شائعات تقول إنهم سيطلقون سراحنا بعد أيام إذا ما تعهد كل فرد بأنه لن يتدخل بالسياسة».

«ـ وأنا؟».

«ـ وأنت... أصبح اسمك عندهم... أصبحت رجلاً هاماً».

«ـ إذن اسمي عندهم في الأوراق؟!».

وضحك بزهو: «شيء ممتع أن يكون الإنسان خطراً».

«ـ ولكن حذار أن تتكلم في هذه الأمور. لم يعد يعرف الإنسان عدوه من صديقه حتى جوادك قد يكون مكلفاً بمراقبتك».

«ـ هل ستعود إلى الضيعة؟».

«ـ لا أعلم. هناك بعض الضياع... ينتظر قدمي في هذه المدينة».

«ـ يقولون إنك تحب إحدى بنات المدن. هل هذا صحيح؟».

«ـ إلى حد ما».

«ـ وتمشي دون غطاء للرأس؟».

«ـ هذا شيء يتعلق بها وبحياتها يا أبو سليم».

«ـ فعلاً. كل يحيا حياته كما هي. ولو أنني شخصياً قد أفتت عنق أم سليم لو خرجت مليمتراً واحداً دون غطائين. واحد للرأس وواحد للوجه».

«ـ الظروف هي التي تقرر لا أنت».

«ـ بل أنا الذي يقرر. شيء حنون ورائع أن تضع على رأسك شيئاً».

«ـ مازلت تستعمل تلك المناديل المطرزة».

«ـ نعم. إنه من أيام عرسنا. كان هدية أم سليم، طرزته لي أنا وحدي من بين جميع سكان الأرض».

«ـ ولكنهم لن يدعوه على رأسك».

وقفز أبو سليم كمن لدغته أفعى: «ماذا؟ لن يدعوه على رأسي؟ هل يظنون أننا مجانين حتى يدعوني أتبختر كأبناء المدارس».

«ـ على كل حال، ستلاقي بعض الصعوبات. كن معي دائماً. سيوزعوننا على المهاجع بعد قليل، ويجب أن لا نفترق».

«ـ طبعاً لن نفترق، ولكن لكي تضمن ذلك يجب أن تربطني بحزامك وإلا فقدتني حتماً. سأضيع بمجرد أن يغيب ناظرك عني دقيقة واحدة. لا أعرف ماذا حدث لي يا رجل. عندنا في الضيعة أغمض عيني باصبعيك واسألني عن الجهة التي تريدها، أجيبك فوراً وأشير إليها باصبعي. ولكني بعد أن مارست ذلك الارتجاج الخانق في الشاحنة لم أعد أعرف شيئاً بل منذ وصولي وأنا أحاول أن أعرف جهة واحدة من الجهات، ومعظم الآخرين لا يعرفون حتى أن بدوياً قال: لا جهات في العالم».

«ـ هيا... الحرس يصرخون ويصفرون... هيا أيها العجوز الثرثار».

***

وانتظموا مرة أخرى في صفوف طويلة ملتوية، وكان الحر شديداً. وأقبل عدد من الجنود يحملون بأيديهم آلات حلاقة صدئة وقال الفهد لأبي سليم: «هيا اطرح منديلك المطرز جانباً، سيحلقون لنا».

«ـ لن أطرحه».

وصاح شرطي نبت فجأة أمام أبي سليم: «بل ستطرحه أيها العجوز... هيا...».

«ـ ولماذا أنا أول من تحلقون له؟».

«ـ ولماذا لا تكون الأول؟ لابد من واحد يكون الأول».

«ـ حسناً. توجد في مؤخرة رأسي حفنة من الشعر، لا مانع من أن أفقدها».

وطوى منديله تحت إبطه، وراح يصغي إلى تكتكة آلة الحلاقة وعيناه جاحظتان نحو الفهد وكأنه يقول له: انظر... لقد وقعت في الفخ.

وبعد هنيهة، انتصب أبو سليم وهو يتحسس رأسه ولحيته بيديه ويصرخ: «ما هذا؟ إنهم يحلقون لك ولا شيء على الوجه بل يلبطونك في خاصرتك كالنعجة. يا إلهي... مازال وجهي مليئاً بالشعر».

«ـ وهل ستتزوج أيها العجوز؟ ومع ذلك لقد أصبحت شيئاً جديداً حتى لو أن أم سليم رأتك الآن لخطبتك مرة أخرى».

«ـ أيها الصحفي... يا ابن ضيعتنا... إنك تتكلم جيداً...».

وتحلق حولهما عدد كبير من البدو والقرويين ومختلف السحن والهيئات:

«ـ لقد حلق أبو سليم. انظروا».

«ـ لقد أصبح كتلميذ المدرسة».

«ـ سيرسلون شعره إلى المتحف».

وصاح أبو سليم: «هيا يا أولاد الزنا. كفوا عن التهليل لي كأني شيء ما».

وكان هناك شيء يجذبهم إلى ذلك العجوز... شيء ما لا علاقة له بالشعر أو المنديل، شيء جعل الفهد نفسه يتساءل عنه في سره وهو يتأمله بذلك التذمر الممزوج باللامبالاة، يضحك مع الرؤوس المنحنية تحت آلات الحلاقة، مؤشراً باصبعيه المحدودبين على «طلبة المدارس» وذقونهم ترتجف عند رؤية شعرهم يغوص تحت الأقدام الغبراء: «انظرو. إنهم يبكون. أيها الحلاقون... أما

من مصاصات معكم لحكامنا في المستقبل؟ اللعنة عليكم وعلى هذا الشعر! انظر إلى ذلك البدوي. لقد أصبح كالقنفذ بعد أن ذهبت جدائله».

وكان ثمة بدوي قد أفرج عنه الحلاق، ينظر إلى وجهه في قطعة من مرآة صغيرة ويضحك ويعبس، ينظر إلى فوق وإلى تحت كأنه غير مصدق أنه هو نفسه الذي كان بجدائله منذ قليل، ثم ابتسم ابتسامة الرضى وأعطى المرآة لغيره. وأمرهم الحرس بأن ينتزعوا أحزمتهم وسيور أحذيتهم وكل المدى والأشياء المعدنية حتى ولو لم تكن قاطعة، ثم أدخلوهم كل خمسين إلى عنبر.

كانت العنابر قذرة ومعتمة وعارية من أي شيء. وفي كل لحظة كان يتدفق مزيد من المعتقلين حتى أصبحوا فوق بعضهم، حائرين وخائرين، لا يعرفون ماذا يعملون بعد التمتع بحق المأوى الجديد، ثم قذف الحراس رزمة من الأغطية، وصاحوا: «هيا توزعوها فيما بينكم وارقدوا عليها بدلاً من أن تقفوا هكذا كالمجانين».

وبعد معركة حامية الوطيس، عاد أبو سليم وهو يحمل جزءاً من بطانية، يطويه وينشره صارخاً: «انظروا يا جماعة... انظروا إلى هذا الكرم الحاتمي وصلوا على الأنبياء».

وسعل سعالاً خانقاً ثم قال: «لا تقولوا لي: لا تهرب أيها العجوز. بل سأهرب. سأهرب، ولن أضع هذا القماش الوسخ فوق صدري أو تحته».

فقال له أحدهم: «كف عن الشكوى يا عجوز. إذا أطلقوا الرصاص عليك فلن أكون متلهفاً حتى لعد الثقوب في ظهرك».

وقال آخر: «بل سأعدهم على أصابعي. إنه صديقي».

وعلا الصراخ والهياج والتهديد والتشجيع والاستنكار حتى دخل الشرطي، فصمت الجميع.

واتكأ أبو سليم بجانب الفهد، وقذف قطعة البطانية بعيداً عنه ثم نهض وأتى بها، وعاود الاتكاء بجانب الفهد وهو يزفر كالثعبان. كان الشخص العادي لا يرى في هذا الإنسان أكثر من مهرج عجوز يثير الضحك. أما الفهد فكان يرى فيه شيئاً آخر لأنه يدرك أن المزاح والتهريج والرضوخ الحتمي بعد كل تمرد ما هو إلا طبقة شفافة كطبقة القشدة تخفي تحتها من الخوف والاستنكار لكل الأشياء المفروضة فرضاً ما يكفي لزعزعة مدينة بكاملها، ولذلك اقترب الفهد منه وقال له باهتمام بالغ: «يجب أن تكف عن التدخل في شؤون الآخرين. إنهم من مستويات مختلفة ولا تعرف ما يدور في خلد أحد منهم، النكتة التي تضحك هذا قد تبكي ذاك».

«ـ لا لا... إنهم يحبونني. مساكين جداً. تحدثت مع عدد منهم. إنهم شباب لا ينسون الكروم وعربات الحصاد إلا أن الذي أعلن أنه لن يعدّ الثقوب في ظهري لا أعلم من أين أتى».

«ـ إنه مسكين مختل».

«ـ إنهم يحتكون بي ويحومون حولي دون أن أطلب منهم ذلك، فهل تريدني أن أثور إذا كانوا يحبونني؟».

«ـ بل يجب أن تكون حذراً بعض الشيء. لقد رأيت بعض الحرس يتهامسون وينظرون إليك».

«ـ إلي أنا؟».

«ـ إليك أنت، واحترس من ذاك الذي يلبس نظارة».

«ـ من هذا الصعلوك؟ بصفعة واحدة آتيه بأجله ساعة يشاء. هه. إنك لا تعرفني».

ونهض أبو سليم صارخاً: «من يلعب الورق؟».

الفصل العاشر

مع أن المهاجع كانت عارية عرياً تاماً فقد خلق المعتقلون منها خلقاً كل الأشياء التي لم تكن لتخطر لهم على بال وهم يقفون تحت الشمس اللاهبة في العراء... خلقوا ورق لعب وطاولات زهر وشطرنج ووسائد ومناشف ومشاجب. ولم يمض شهر على وجودهم فيه إلا وأصبح المهجع كأي مخزن من مخازن البقالة، ولكن بعض السجناء كان يعاني أزمة مصيرية بالنسبة إلى الطعام الذي يقدم إليه، فرفض عدد كبير منهم، وفي طليعتهم أبو سليم بالطبع، تناول اللحوم المعلبة دون نقاش ومنذ أول مرة بل كانت فرائصهم ترتعد لمنظرها. وقد تناولوا ذات يوم لحماً مطبوخاً لم يفكر أحد في منشئه إلى أن رفع أحدهم رأسه عن صحنه، وقال: «هذا لحم أرنب».

«ـ بل لحم خنزير».

وتوقفت اللقمة في حلقوم أبي سليم، ثم نهض إلى إحدى الزوايا، وبصقها بقوة كأنه يريد أن يبصق معدته معها، وصرخ وهو يزمز شفتيه: «لماذا لم تتكلموا من قبل؟ لماذا أيها البلهاء؟ إنني أشك كثيراً في أن يكون من لحم العلب وإن كان طعمه كالتبن تماماً».

وصاح الشرطي المكلف بتوزيع الطعام: «لماذا لا تجلس وتأكل كالبشر أيها العجوز؟».

«ـ لن آكل من هذا اللحم».

«ـ لماذا ؟ ».

«ـ إنه لحم خنزير».

فأجابه الشرطي ساخراً: «ألا تحب أن تأكل من لحمك؟ ».

وأغلق الباب خلفه وهو يضحك.

وفي المساء تناول أبو سليم والنخبة الغاضبة من أجل اللحم الخبز المبلول بالماء فقط، وأخذوا يناقشون فكرة مقابلة المسؤولين حول هذا الموضوع الخطير إلا أنهم تفرقوا بمجرد أن سمعوا خطوات الشرطي تقترب من الباب.

وقضى أبو سليم ليلة ليلاء، فقد فيها مرحه ومزاحه، وأخذ يذهب ويجيء في الممر الضيق بين رؤوس السجناء ومؤخراتهم حتى ساعة متأخرة من الليل، ومد يده ليشعل سيكارة فلم يجد شيئاً. بحث في جيوبه وتحت إبطه، فلم يجد شيئاً، فتقدم من أحدهم وهو يحك خصره: «هيه! أعطني سيكارة».

«ـ لم يعد معنا يا عم».

وتوسل لأكثر من سجين عن سحبة واحدة، فلم يوفق. نسي كل شيء: ابنه ومزرعته وحريته، وأصبح هدفه الأول والأخير سيكارة. ثم اضطجع بجوار الفهد وأخذ يزفر: «كلاب! أراهن أن هناك أكثر من عشرين سيكارة في هذا المهجع».

ففتح الفهد عينيه، وقال وهو يسند رأسه إلى راحتيه: «ألم أقل لك أن لا تبالغ كثيراً بثقتك بهم؟! ».

«ـ ليذهبوا إلى الشيطان، ولكني أعطيتهم الكثير. أليس معك سيكارة؟ ».

«ـ لا. لقد بدلت قلمي بثلاث سكائر ودخنتها منذ ثلاثة أيام».

«ـ إذن لا توجد سيكارة واحدة في هذا العالم».

وأغفى أبو سليم، فغطاه الفهد بالبطانية المهترئة وهو يشعر بأن حربة تذهب وتجيء في صدره. كان معه سيكارتان أخفاهما تحت إبطه. سيكارتان. واحدة سيدخنها ويفكر في غيمة، وأخرى سيدخنها وهو يفكر... ترى لو خانته غيمة؟

***

عندما أخرجوهم للتنفس في الصباح، كان لا عمل لأبي سليم سوى البحث عن سيكارة. وعندما استنشق رائحة تنبعث من مكان ما، ترك الفهد يشرح مطولاً رأيه في الغوغاء، واندفع كالكلب البوليسي يبحث عن مصدر الرائحة حتى عثر عليه. كانوا أربعة يتناوبون على تدخين شيء ما... كان لفافة قديمة... كتلة صغيرة مبللة باللعاب بللاً كاملاً، وقد غرسوا في مؤخرتها دبوساً حتى لا تحرق الشفاه المرتجفة حولها. وعندما هبط عليهم أبو سليم من السماء، كانت قد لفظت أنفاسها. وتجهمت الوجوه الأربعة، وأطرق أصحابها إلى الأرض كأنهم فقدوا ابنتهم الوحيدة المدللة.

وكان أحد الحراس يدخن لفافة طويلة. وينفث دخانها على شكل أنبوبين أزرقين من أنفه، فارتجفت ذقن أبي سليم وقال لمن بجواره: «بإمكاني أن أتناول حجراً وأهشم رأسه».

«ـ من هو؟».

«ـ الشرطي. إنه يدخن. أنظر إليه إنه يدخن كأن التدخين شيء عادي في هذا العالم».

وعاد أبو سليم إلى التهديد بالهرب محدداً هذه الليلة بالذات لا التي

قبلها ولا التي بعدها: «نعم سأهرب وربّ الكعبة! إني أكاد ألد غلاماً من أجل سيكارة».

ثم حكّ ذقنه الخشنة الغبراء، وأخذ ينظر شذراً إلى الأفق الأخير المغبر، فقال له المختل: «أما أنا فلن أهرب. ولماذا أهرب؟ لكي أنام في الشارع؟ إنني على الأقل آكل وأنام في هذا المكان».

«ـ أما أنا فلي زوجة... زوجة حقيقية، وفراش من الصوف الحقيقي. ولن أبقى هنا كي اتهم بذكر ما في إحدى الليالي».

ولما كانت مثل هذه الأحاديث هي العسل الذي يغفو عليه من لا موهبة له في الحديث، فقد تجمع عدد كبير منهم حول أبي سليم، يصغون إليه بأفواه مفتوحة وعيون غبية تتساءل إذا كان في هذا العالم شخص واحد جدير بمثل هذه المغامرة وسط هذا القفار. وكان أحدهم طالباً نحيفاً يلبس نظارتين سميكتين تشعان في الشمس كنجمتين بعيدتين. وكان ما ينفك يقترب من أبي سليم، ويدوس تارة على قدمه اليمنى، وتارة على اليسرى، فالتفت إليه أبو سليم صائحاً: «انظروا إليه. إنه مافتئ يحتك بي منذ الصباح كأنني أنثى».

فقال البدوي: «اعذره. إنه أعمى».

«ـ أو أرمل».

وصرخ أبو سليم: «هيا اذهب أنت ونظارتك من ورائي. إن لكم أنتم يا أهل المدن رائحة العقاقير. تعال أيها البدوي لأشم رائحتك ولو أنك مقزز بدون تلك الجدائل».

ودفع يديه وسط الزحام ليشم أي شيء آخر غير الطالب وغير البدوي، فسقط من سقط وترنح من ترنح، وصدحت الشتائم وأنواع السباب، وتعالى الغبار والتأوه، فجاء رجال الشرطة مسرعين.

«ـ من قام بذلك؟».

«ـ إنه مزاح».

«ـ قلنا لكم من قام بذلك».

«ـ قلنا لكم إنه مزاح».

وجاء صوت كالرعد... صوت المسؤول الكبير والسوط مطوي تحت إبطه: «من فعل ذلك؟».

فتجمد الجميع في أمكنتهم، وكان بعضهم منحنياً يداوي ظفره الدامي، وبعضهم ينفض الغبار عن ثيابه، وبعضهم الآخر يلتقط أنفه استعداداً للتمخط، فتلعثم أبو سليم وهو ينظر إلى الجميع كأنه يقول لهم: ها أنا مرة أخرى أتكلم وأنتم صامتون.

«ـ أحدهم كان يحتك بي كأني أنثى».

فقال المسؤول مخاطباً الشرطة: «اجلدوا الإثنين أمام الجميع على أسفل أقدامهم».

وتحلق السجناء على شكل هلال، بعضهم تحت بعض، وبعضهم فوق بعض، محدقين، مرهفين آذانهم. وصرخ الشرطي بأبي سليم وبذي النظارة: «استلقيا على الأرض».

فاستلقى ذو النظارة فوراً، ورفع ساقيه في الهواء حيث أحكم الشرطي حزام البندقية حولهما فأصبحا جاهزين للاستعمال في أية لحظة. وعندما رأى أبو سليم هذا المشهد، تراجع إلى الخلف متعثراً، وقال بصوت حزين ومرتفع كالعواء: «لا... لن أفعل ذلك».

فصاح به المسؤول بعد أن صفعه بالسوط على وجهه: «ولماذا أيها القذر؟ طالب المدرسة المثقف يطيع الأوامر، وأنت الرجل الكبير تعصى؟».

«ـ إنني لا ألبس سروالاً، ولن يرى أحد ما تحت ثيابي غير زوجتي».

«ـ وزوجتك من يرى ما تحت ثيابها الآن؟».

وضحك مرتجفاً في ثيابه الزاهية الشفافة، ونظر إلى الجميع كأنه يعطيهم الفرصة الوحيدة كي يضحكوا في هذه اللحظة التاريخية.

وشعر أبو سليم بصدمة كأن زوجته أم الأولاد، العجوز المسنة ذات الساقين المعروقتين والصرة المليئة بالبثور، تقف عارية، بعورتها ذات التجاعيد... تقف عارية أمام هؤلاء الكلاب، فصرخ: «لا. لن أستلقي ولو قطعتموني قطعاً. أرجوك يا سيدي أرجوك. أطلق عليّ الرصاص حالاً في أذني ولا ترغمني على ذلك».

وراح يرفس الأرض بينما الشرطي يطوقه من خصره ويطويه، ثم تكاثر عليه رجال الشرطة، وأدخلوا ساقيه في حزام البندقية، وانهالوا على قدميه ضرباً بالسياط المحماة بالشمس بينما هو يصرخ وينتفض ويحفحف قدميه ببعضهما كأن جبالاً من الجمر تتراكم فوقهما.

كان بالفعل لا يرتدي سروالاً داخلياً، ولذلك تمكن الفهد أن يرى لأول مرة منذ عشر سنين سيقاناً ريفية وجهاً لوجه. كانت فخذاه رفيعتين ومكسوتين بالشعر، ولونهما أخضر وأسمر، وعروق لحمه زرقاء ومنتشرة انتشار الجذور في لحمه، ولكنها جذور ميتة يمكن نسلها من لحمها كما ينسل الخيط من البكرة.

وانتهى العقاب بشكل خاطف، وتفرق المتفرجون زمراً زمراً، يتحدثون ويتأوهون ويبصقون وقد جمدهم الرعب والاشمئزاز بينما وقف أبو سليم معفراً بالتراب، يتلقى نصائح المسؤول ورفسات الشرطة على مؤخرته. وكان ذو النظارة يتخبط كالسمكة وسط الغبار ويبحث عن شيء ما...

وصاح به أبو سليم: «ايه أيها الأعمى! إنك تبحث عن نظارتك. ها هي... ».

والتقط أبو سليم النظارة، وهرول وهو يضحك ملوحاً بها بينما صعق السجناء بمرحه الشديد غير الطبيعي إلا أن الفهد لم يفاجأ بل أحس بأن العنقود قد نضج كثيراً، وأن عصيره قد بدأ يسيل.

***

كان أبو سليم يهرول بعيداً عن زملائه وهو يضع نظارة الطالب على عينيه صارخاً وباكياً في آن واحد: «إنني لا أرى شيئاً يا جماعة. إنني لا أراكم. الموظفون في الحكومة... لابد من أنهم يلبسون مثلها حتى لا يروننا. إنني لا أرى شيئاً، لا جروحكم ولا رؤوسكم ولا بطونكم».

ثم مسح النظارة مسحاً عنيفاً بثيابه، وقفز على حجر مرتفع، ووضع النظارة على عينيه، وهتف: «لا ورب الكعبة... إنني أرى كل شيء الآن. أرى فضاءً أبيض كالحليب. أرى زوجتي مائلة الرأس، مضمومة الركبتين، أمام المنزل، وسروالي يخفق جافاً كالورق على شجرة التوت. أرى فرسي الحمراء تضرب طرف الحقل بحافرها، أرى سنابل... سنابل سوداء طافية فوق النهر. لن تأخذوا النظارة مني قبل أن أرى كل شيء. ها هو راع يغفو على حماره الأبيض والريح تصفر بين قوائمه الغائصة في الطين. ها هو ولدي يغرس مسماراً في النهر فينبثق الدم. لا... لا تقتربوا مني. أرى أيضاً حقولاً محدودبة، تلوح بأعنتها فوق المزابل، صحوناً من الزيت والعسل المراوغ مجمدة على القمم البعيدة. أرى شجرة التين ترفع أوراقها كامرأة شمطاء. أرى قبقابي المزوق بالنار يابساً ونظيفاً تحت سريري الخشبي، ولكنه سرير بارد ومغطى حتى وسادته لأن زوجتي تجلس مائلة الرأس في الزقاق، والخيول مدفونة حتى حواجبها في العشب الطويل اليابس... ».

وصاح صوت صارم: «أعطني هذه النظارة».

«ـ لا... لن أعطها إلى أحد حتى ولو كانت زوجتي».

«ـ أعطني إياها وإلا قتلتك».

كان المختل هو المتكلم. وقد لاح لأول مرة بهيئة النسر المفترس. كان يمد يده بأصابع مرتجفة وأظافر مسنونة، وعيناه حمراوان جائعتان كأنهما مليئتان بعصير البصل: «أرجوك أعطني هذه النظارة لأرى شيئاً ما».

وكان أبو سليم ممسكاً طرف النظارة، ويسير متعثراً إلى الوراء قائلاً: «انظروا إليه. يريد هذه النظارة. كاد يموت ليلمسها وهي ليست أكثر من رقعتين من الزجاج. ومع ذلك لن أعطيه إياها».

وكزّ المختل على أسنانه، وتقدم إليه كالوحش: «أعطني النظارة لأنظر فيها فقط وإلا قتلتك أيها العجوز».

«ـ عجوز؟! يا لك من طفل مورد الخدين!».

وهجم المختل على أبي سليم، وأوقعه أرضاً على ظهره، وراح الاثنان يتدحرجان في الغبار، يخبطان بعضهما بعضاً بكل شيء، ثم نهضا يلهثان كديكين منفوشي الريش. وكان أبو سليم لايزال يمسك النظارة بيده، فصاح: «انظروا. إنها لم تنكسر. أي شيطان صنعها بهذه المتانة؟».

واندفع المختل نحو أبي سليم وبيده تلمع أداة قاطعة مصنوعة من إحدى صفائح علب السردين.

«ـ خذ... خذ... هذا هو نصيبك. هيا انظر في نظارتك السخيفة إلى هذه الوجوه السخيفة».

وتراجع المختل إلى الوراء والدم يقطر من آلته الحادة المضحكة، فذعر أبو سليم، ورفع يده إلى عنقه ماطاً شفتيه كأنه يبحث عن فمه، ثم نشر

أصابعه أمام الجمع فإذ هي تقطر دماً: «لقد قتلني ذلك المجنون ليس بسكين حقيقية بل بتنكة فقط».

ثم هوى على ظهره مفتوح العينين والساقين يتغرغر دماً وغباراً: «أتسمعني أيها الصحفي يا ابن ضيعتي؟ لقد قتلني بتنكة».

ولكنه بعد يومين خرج من المستشفى وعاد إلى المهجع صاخباً مرحاً، ولم يتخل عن تهديده بالهرب.

***

كانوا يقفزون على السطح الحار. يتذكرون ويحلمون ويتأوهون... الفهد والمختل وأبو سليم والبدوي، من دون نقاش أو تمحيص في معنى هذا القفز الجنوني في أثر الحلم أو الآهة والذكرى من أجل مصلحة الوطن العليا. كانوا شعراً ميتاً بين أسنان المشط الذي نثرهم يميناً وشمالاً من دون أن يكون لهم أي حق في الأناقة المتواضعة والإغراء المقبل، من دون تمييز بين الشعر الأشقر الجميل وقصاصاته الملقاة على الوحل والغبار وإن كانوا جميعهم لا يشكون لحظة واحدة في أن ما يقاسونه هو شيء يتعدى المصلحة الشخصية لأنه ضروري للمصلحة العامة، إلا هو... الفهد الصغير الجائع.

كان في اعتقاده أن ما يهدد الحياة البشرية بكل ما فيها من جيوش وأطفال ومدن وغابات هو الضجر، وليس الاستعمار كما تقول المنشورات الرسمية ومكبرات الصوت بل هو الضجر الضجر، فالطبيب يزور مرضاه لقتل الوقت، والعصفور يغني لقتل الوقت، والمرأة تستحم وتتعطر لقتل الوقت، والجيوش تسفح دمها في الخنادق وعلى شطآن المحيطات لقتل الوقت، فالمجزرة واحدة ومستمرة وإن اختلف الفصل ولون الدم. فهؤلاء الأسرى بما فيهم الأمي والمثقف والخائف والشرس والهادئ بعد أن كنسوا

مهاجعهم وغسلوا صحونهم وفتلوا شواربهم ووضعوا أيديهم على ركبهم... ماذا يعملون؟ ماذا يعمل المختل بفلسفته والحاكم بأحلامه والبدوي بذكرياته؟ ماذا يعمل الفهد المجتث كالسرطان من أعماق الحجر والشوارع؟ هل يغني؟ هل يغرس الدبابيس في صدر أبي سليم البائس العجوز؟ لقد كان صوت أبواق السيارات البعيدة ووقع خطوات الحارس في الممر يذكرهم بالحرية... بالمسافات الطويلة التي يمكن أن تجتاز في كل لحظة في العالم، وكان الأسرى الجدد بعيونهم المذعورة وصررهم الكئيبة شيئاً يثير حماستهم للنقاش والجدل فيما إذا كان العالم مازال هو العالم، وإذا كانت الأشجار لم تهرم والمعامل لم تتوقف والشمس لم تشرق حداداً عليهم. أما الآن فلم يعد يثيرهم شيء. لقد فقدوا الأمل حتى في أن يكون الأمل شيئاً مهماً في الحياة، وأصبحوا يرون في عنبرهم حانوتاً عادياً يعرض الأنسجة والدم بدلاً من الأقمشة والصابون. ولذلك كان توقع مجزرة حقيقية في أية لحظة منتظراً وشهياً إذا ما اعتبر هذا الملل واليأس غلافين فقط يخفيان طرف الزناد وظلام الفوهة. كان لا يستبعد أن ينهض اثنان معاً لم يكلما بعضهما كلمة واحدة منذ اعتقالهما ليهشما بعضهما تهشيماً من أجل إبرة أو ذرة ملح... من أجل ذلك الاجتياز العظيم من ثانية إلى أخرى في زمن لا يعرف إلا الله كم هو مشحون بالثواني والساعات والقرون، أما الوحيد الذي يتصرف إلى آخر فترة ممكنة كأن الفجر نوع من الدنس لا يجوز التفكير به فهو أبو سليم فقد كان دائم الحركة، واسع النشاط، وإن لم يعمل شيئاً من الصباح إلى المساء سوى الحك تحت إبطيه أو يصلح حذاءه أو ينفض بطانيته أو يشذب شواربه. وإذا لم يجد شيئاً من هذا ولا من ذاك خرّب الحنفية أو النافذة ثم قام بإصلاحهما. وما أن يفد

أسرى جدد حتى يسارع إلى استقبالهم والترحيب بهم كأنه صاحب حانوت حقيقي، يدلهم على أماكنهم، ويشرح لهم التعليمات والتوصيات والواجبات، ويسألهم لماذا اعتقلوا ومتى وإلى متى. وأخيراً يسألهم إذا كانوا يحملون بعض السكائر، فإذا كان جوابهم الرفض، تغيرت سحنته واضطربت حركاته، وصعد إلى مكانه ليتمدد كأنه لن ينهض بعد اليوم، ولكن ما أن تمضي عدة دقائق حتى ينتصب واقفاً على قدميه ليتساءل عمن يلعب الورق، فإذا لم يجبه أحد، عاد إلى التمدد ثانية وهو يحك إبطيه متثائباً.

وفي إحدى الأمسيات، كان أبو سليم يتصرف كأنه سيرتكب جريمة إذا لم يجد رفاقاً للعب الورق. كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً عندما أحس بأن اجتياز المسافة بين الثانية والثانية أكثر صعوبة من اجتياز نهر بقدمين من الرصاص، وبأن النوم لا يحل المشكلة بل يجمع تلك الثواني في الصباح الباكر كما يجمع صاحب الحانوت غلته ويشتري بها بضاعة أخرى.

كان واقفاً على حافة المصطبة، تتشبث قدماه بحافة المصطبة كما يتشبث النسر بحافة القمة، وكان الجميع في رقاد تام. لا نأمة ولا حركة سوى صوت التنفس الأليم المحاصر بين الجدران الأربعة، وقد صرخ: «من يلعب الورق مع عمه أبي سليم؟».

فنقر الشرطي على النافذة: «لماذا تقف؟».

«ـ ولماذا أجلس؟».

«ـ يجب أن تنام».

«ـ بل يجب أن أستيقظ».

«ـ يجب أن أحطم دماغك».

ولما سمع أبو سليم صرير الباب يفتح، جلس فوراً وهو يتمتم: «وماذا يهمك أنت وحكومتك إذا كنت واقفاً أو نائماً؟ ماذا يهم حكومتك إذا كان رجل عجوز من رعاياها لا يريد أن ينام؟ ماذا يجني هؤلاء من النوم سوى النفس الكريه في الصباح؟».

وقال الفهد لأبي سليم متبرماً: «كفاك نقيقاً أيها العجوز».

«ـ ألم تنم بعد؟».

«ـ وهل تترك أحداً ينام؟».

«ـ هل تضايقت مني؟».

«ـ لا... ولكنك مزعج في بعض الأحيان. الذي يلعب الورق يلعب، والذي لا يلعب فليذهب إلى جهنم. إنك لست طفلاً صغيراً حتى تتصرف هكذا».

«ـ معك حق. لن ألعب الورق بعد اليوم. لا لن ألعبه ولو في ذلك خلاصي».

وفي اليوم التالي كاد يأكل نفسه لأنه لم يجد لاعبين للورق: «ترقدون على مؤخراتكم من الصباح إلى المساء دون أن تفعلوا شيئاً سوى الجلوس على مؤخراتكم، تأكلون وتذهبون إلى دورة المياه. لن ألعب مع أي واحد منكم ولو لعبت مع حذائي بعد الآن. تعرفون كم أكره هذا البدوي ولكني سألعب معه. هو لا يعرف اللعب بل لا يعرف شيئاً سوى أنه كان له جدائل، ولكني سأعلمه، وسأجلس قبالته في الليل والنهار. أما أنتم فالعبوا بما بين سيقانكم. هيا من يلعب الورق مع عمه أبي سليم؟».

وينفر البدوي واثنان آخران لا يقلان عنه بلاهة وجهلاً بالأمور كافة، ويرفع المختل رأسه وقال: «ممنوع اللعب».

فقال له أبو سليم: «اسمع أيها المختل. أنا لا أريد التحرش بك، ولكنك إذا أرغمتني على ذلك فلن تنام ووجهك مستدير كما هو الآن».

وجثا المختل على ركبتيه مزمجراً: «ممنوع اللعب... يجب أن تجلسوا القرفصاء وأيديكم على خدودكم».

«ـ وأيدينا على خدودنا... لماذا؟».

«ـ كي تفكروا بالعالم».

وهبّ أبو سليم من مكانه كأن استمراره في الجلوس هو قرار مبدئي: «ولماذا نفكر بالعالم يا أستاذ؟».

«ـ كي تنقذ نفسك».

«ـ من ماذا».

«ـ من ملايين الوحوش الضارية التي تتربص بنا».

فذعر البدوي، وسأل ببلاهة: «وأين هو العالم لأفكر به؟ ها أنا أضع يدي على خدي».

فضربه أبو سليم على يده: «أخفض هذه اليد القذرة. هل تظن العالم جملاً أو خروفاً لتفكر به أيها الحيوان؟».

وقال المختل لأبي سليم: «لماذا ضربته؟».

«ـ لأنني ضربته. لأنك لو قلت له إن العالم برتقالة لصدق ذلك. ولو قلت له: اذهب إلى جهنم، لذهب».

فقال الفهد: «وما الضير في ذلك. على العالم أن لا يخلو من هؤلاء وإلا توقف التاريخ كله».

ووضع يده على خده، فقال المختل: «بل على الإنسان أن يتخذ موقفاً».

فقال الفهد: «وهذا موقف. الطاعة موقف أيضاً».

قال المختل: «يجب أن نتفق أولاً إذا كان هذا إنساناً أم لا».

«ـ نعم إنه إنسان حقيقي، وما جريمته إذا كان أبلهاً».

وكان أبو سليم والبدوي ينقلان بصرهما إلى الفمين المتصارعين ببلاهة من دون أن يفقها شيئاً إلا أن البدوي كان ما ينفك يزحف بمؤخرته عندما علم بطريقة ما أنه هو موضوع البحث، وينظر إليهما بشفتين تربطهما خيوط من اللعاب الأصفر.

قال المختل: «بل يجب أن يناقش الأمور حتى ولو كانت بديهية وإلا فقد هويته بل هو في الحقيقة بلا هوية في هذه اللحظة».

فارتبك البدوي، وراح يفتش في جيوبه، ثم قال مبتهجاً: «ها هي هويتي. إنها موجودة معي».

فضربه أبو سليم على يديه قائلاً: «اخف هذه الورقة أيها الحيوان. إنهما لا يتناقشان عن هذا الشيء أم تظن أني أبله مثلك لا أفقه شيئاً».

فأعاد البدوي هويته إلى جيبه خائفاً من أن ينال ضربة أخرى.

قال الفهد: «يجب أن تكف عن ضرب هذا المسكين. إنه لا يفتأ يجفل كلما اقترب منه أحد. أنت ترعبه. لنعد إلى موضوع بحثنا. نعم إنني أصر على أن هذا البدوي إنسان حقيقي. لقد أدرك فوراً أنه موضوع بحثنا وأنه موضوع جدل. بل أشك في أنه يدرك أنه سجين. ما قيمة هذا الرجل هو وبعيره وخرافه إذا مات ظمأ في الصحراء؟ ما علاقة ذلك بالمصانع التي تدور في نيويورك أو بالموسيقى التي تعزف في علب الليل؟ طبعاً لا شيء. إن الالام البشرية منفصل بعضها عن بعض بل تفصلها المسافات، والزمن الذي كانت تشتعل فيه الحرب من أجل امرأة أو فارس قد مضى

وولي. إن شعوباً جريحة برمتها يساوم عليها أمام قدحي خمر. لكي يكون هذا البدوي إنساناً عليه أن يكون واضحاً وذا رؤية عميقة للأمور حتى يرى ويسمع ويلمس وحتى ينفعل هو لا أن ينفعل عنه الآخرون ويشورون. إنني لا أراه بوضوح رغم أن خيوط الشمس تسطع عليه. لا أراه فعلاً بوضوح مع أن فحوصي الطبية أثبتت أن عيني ثاقبتا النظر».

«ـ بل إنك تراه وتلمسه وتشمه أكثر من أي واحد في تلك العنابر رغم قبحه وأسنانه الجاحظة. هذا العنبر مليء بالرجال الوسيمين ذوي الغضاريف اللينة والشفاه النظيفة المبتلة بلعاب نظيف. ومع ذلك فأنا لا أعرف أسماء معظمهم بل لا أحس بوجودهم مع أنهم يأكلون معنا ويشربون وينامون ويشخرون في الوقت الذي لا يوجد واحد منهم إلا ويعرف أن هذا هو البدوي. إنه متفرد عن الآخرين بشيء ما».

«ـ متفرد بقبحه».

«ـ قلت بشيء ما. ولسنا آلهة لنقيم هذا الشيء أو ذاك».

«ـ يا حضرة المختل... يا رجل... إنه متفرد بقبحه ولماعته. أنت قلت ذلك لا أنا. الطاعة التي قد تدمره... تنفيذ الأوامر التي لا يعرف حتى إعادة كلماتها».

«ـ هذا ضروري إذا كان الجميع قادة فمن الضروري أن نخلق مرؤوسين».

«ـ عليه أن يطيع بعد أن يقتنع».

«ـ وما الفائدة إذا كان الرضوخ هو النتيجة؟ لماذا لا يختصر هذا العذاب؟ لماذا يحول بملء إرادته تلك الطاعة البسيطة السهلة إلى هزيمة واندحار؟ إن هزيمة المثقف والجاهل كالفرق بين الموت غرقاً والموت شنقاً. إنه

يتصرف بشكل طبيعي عندما يطيع الأوامر الصادرة إليه لأن الطبيعة المتطورة منحته هذه القدرة على تجاوز العذاب وانفجار الذهن. إنه يحس الأمور ولا يدركها. عندما تأمره بأن يقفز من علو ستين متراً إلى الأرض فهو يقفز ويتألم ويفجر رأسه، ولكن عزاءه الوحيد في أنه أدى واجباً ما. أما المثقف فينفجر رأسه مرتين. مرة لأنه لم يقتنع بهذه العملية، ومرة لأنه ارتطم بالأرض، وليس له عزاء على الإطلاق».

«ـ هل تريد أن تقول لي إن هناك أنواعاً من الموت كما ان هناك أنواعاً من الحبوب؟».

«ـ نعم».

«ـ إنك أنت المجنون الحقيقي، واسمك يدل على ذلك بوضوح».

«ـ إن أمة فيها ثلاثة مثل هذا البدوي جديرة بأن تسمم فرداً فرداً».

«ـ لو لم يكن هناك ارتجاج في عقلك كاهتزاز المصعد لفعلت بك شيئاً لم يفعل أبداً. إن هذا البدوي ينتسب لأمة. كان كل أفرادها على هذه الشاكلة، ذات العيون وذات الأسنان. ومع ذلك أنجزت من الأعمال والبطولات ما لا يصدقه العقل».

«ـ ومن قال لك ذلك؟».

«ـ التاريخ.. الروايات».

«ـ وكيف تعرف أن هذه الروايات ليست كاذبة وملفقة طالما لم يكن هناك حبر وطباعة؟».

«ـ على كل حال إن الأشياء الصحيحة مترسبة كالكلس في مكان ما في هذا العالم».

«ـ هذا لا يهمني. ما يهمني في ذلك هو الذي يترسب الآن. أليس كذلك يا أبو سليم؟».

«ـ لا أعرف يا ابن ضيعتنا. ولو أنني أتمنى أن أقوم بشنق هذا البدوي بيدي».

وكان البدوي قد أخذته سنة من النوم، فغفى مفتوح الفم، متهدل اليدين، وقد انقلبت عيناه إلى هلالين أبيضين تحت الأهداب، فنهض أبو سليم، ومدده في مكانه، وأسدل عليه غطاءه: «إنني أكرهه، ولكن لابد من أن يقوم بتغطيته أحد ما. انظروا. إنه يتقلب على جنبيه كالعقرب. يدفع مؤخرته للآخرين وراءه. لا يهمه شيء ولا يفكر بشيء».

كان رأس البدوي الحليق وأسنانه الجاحظة على حافة الفضاء وشعر أنفه المتشابك خارج الأنف يعطيه صورة القديس الذي يرسم في الزوايا النائية في اللوحات الشهيرة بعيداً قرب التوقيع أو الإطار، ولكنه رسم بدقة تفرض وجوده كرمز للبؤس والإهمال البشري.

داعب أبو سليم رأس البدوي، ووضع تحته ما يشبه الوسادة، وقال: «إنني أكرهه، ولكني لا أسمح لأحد بإهانته أو بالأحرى بضربه».

فنظر إليه المختل مشمئزاً.

«ـ أعرف كم هو مقرف! ماذا يعمل بعد هذا النوم سوى الاستيقاظ. إن موته هنا أو في صحراء لا يترك أي أثر على المعامل التي تدور في نيويورك أو الموسيقى الصاخبة في علب الليل».

«ـ إلى الجحيم أنت ومعاملك التي في نيويورك وموسيقاك الصاخبة التي في علب الليل. إن موته يؤثر على العالم أجمع ويزلزله ويكسر عظم ساقه إذا شئت النقاط على الحروف. كف عن تصنع القسوة. فأنت أكثر جبناً من أنثى. الآلام منفصلة كأنها حصى. إن كل آلام العالم متحدة ومتصلة ببعضها كالغيوم، وانفصالها فوق هذه المدينة يعني التحامها فوق

مدينة أخرى. هل تعتقد أن العامل المتمنطق بأنابيبه ومجهره في الدور الثامن والثمانين في معاملك في نيويورك أكثر سعادة من هذا البدوي وهو متمنطق عصاته ومقلاعه في أحد الوديان؟ هل تعتقد أن كآبة أي رئيس للوزراء في أي بقعة من العالم أشد كثافة من كآبة هذا البدوي؟ إن الروح البشرية تحت الثياب لا فوقها. إن العدالة التي تشمل الجميع وتستثني فرداً واحداً ولو في مجاهل الأسكيمو هي عدالة رأسها الظلم وذيلها الإرهاب، والرخاء الذي يرفرف على موائد العالم، ويتجاهل مائدة واحدة في أحقر الأحياء هو رخاء مشوه. الكل أو لا شيء طالما أن الشمس تشرق على الجميع... طالما أن السنبلة الأولى لم تكن ملكاً لأحد».

«- إنك تكذب وتوغل في الكذب. إنك تؤمن بما تقول إن كنت أؤمن بأن رأسي هو رأس عصفور. لقد كان أبو سليم البارحة في حالة يرثى لها. قضى سحابة نهاره واصبعاه مفتوحان من أجل سيكارة. وطلب منك أولاً بأول ومع ذلك لم تعطه بحجة أنك لا تملك تلك السيكارة. ورأيتك تدخن في المرحاض جاثياً القرفصاء وعيناك جاحظتان في الزوايا حتى لا يراك أحد. كأنه تكفيك أن تقول إن فلاناً جائع حتى يشبع، وذاك مريض حتى يشفى. لماذا لا تعلن الأمور مباشرة؟ قل إن فلاناً هو جائع فليأكل لحمه، فأنا لست كذلك. قلها. تنح عن صهوة اللياقة الاجتماعية والمؤازرة اللامجدية حتى يخترع الجائع طعامه والمريض دواءه. هذه هي إنسانيتكم أيها الكتاب: إنسانية كاذبة ومضللة. ومن نتائجها هذه الجيوش من المرضى والمشوهين والمنبوذين. إنكم بدونهم كالسمك بلا ماء. ولولا أنهم موجودون عرضاً لعملتم على خلقهم. إنك جبان، وباستطاعتي تمزيقك إرباً، ولكن... أليس كذلك يا أبو سليم؟»،

«ـ أنا مع ابن ضيعتنا».

وصمت المختل. أغلق فمه حتى أصبح خطاً رفيعاً لا يرى، وتكاثفت تجاعيد وجهه، وأخذت تتسع وتضيق بعد أن فشل في التأثير على الآخرين وخلق جمهوره الخاص. لا فائدة. مهما قيل ومهما سيقال، فالكلام يذهب وتبقى الأشياء كما هي. لو قرأت لهذا البدوي كل المؤلفات التي أنجزت عن الصبر والتضحيات فلن يستطيع الابتسام، ولو غرد كل فلاسفة التاريخ من الصباح إلى المساء، لن يجعلوا هذا الغطاء الخلق أكثر دفئاً ومنفعة. عبث كل شيء عبث.

لو أعطيت تلك السكائر لأبي سليم لبقيت المشكلة قائمة، وعاد للمطالبة بغيرها طالما أن الأشياء ليست بمتناول الأيدي، والاحتكار راسخ الجذور في كل ميدان... في الطبيعة قبل كل شيء، في السلطة، في الزهرة، في الطبيعة قبل كل شيء. ولكن فجأة وكما يحدث عادة للمسافرين وسط الظلام حيث تبزغ نجوم نارية لا قبل لهم بها، لاح لهم أن العكس هو الصحيح تماماً، وأن كل شيء ضروري... السيكارة المشتعلة والثوب النظيف والخطوات الطويلة في شارع نظيف... إن كل أفكار العالم وحضارته لا تنقذ المرء من أكمامه القذرة وغطائه الرث القصير.

هنا في هذا العنبر ثمانون شخصاً يطحنون الأرز والبرغل والمرق النتن، يمزجونه مزجاً بأسنانهم الحادة القاطعة. يؤكل البصل في بعض الأحيان والثوم أحياناً. من أولى أمنيات أحدهم أن يحصل على بصلة مع الطعام، فهل يفكر الآخرون الذين في نيويورك في بصلة؟

إن بعض الأشياء المعادية ضروري إلى أقصى الحدود لمحاربتها وسحقها، وعلى الجميع بدءاً برئيس الوزراء السابق وانتهاء بالبدوي أن يحسوا بالبغض والعداء كي يقاوموا ويتحدوا.

إن رائحة الثوم المتراكمة يوماً بعد يوم... منظر البرغل الممزوج بالمرق واللعاب... الازدحام في الزمهرير على باب دورة المياه... أمور جليلة وقادرة في كل لحظة على إثارة ذلك البغض وذلك التحدي وذلك الانفجار. المختل يفكر بهم كي يبدلهم أما الفهد فلكي ينقذهم وينقذ نفسه من خلالهم.

إن ثقافتين عدوتين توشك كل منهما أن تشك منقارها في عنق الأخرى.

وفي تلك اللحظة، دخل العنبر شرطي، ودنا من أبي سليم متسائلاً: «أنت الفهد؟».

فقال أبو سليم ممتعضاً: «لست أنا الفهد، ثم ماذا تريدون منه أو مني في هذه الساعة المتأخرة في الليل؟».

وتنبه الفهد إلى أن الشرطي يسأل عنه، فقال له: «أنا الفهد».

«ـ تفضل معي».

«ـ إلى أين؟»

«ـ يريدونك في الإدارة. سأنتظرك حتى ترتدي ثيابك».

وسار الفهد مع الشرطي وهو يخب بحذائه العتيق المفكوك الشريط عبر الساحة الرملية المخيفة. لقد كانوا قد كفوا عن استجوابه منذ أمد طويل، فلماذا يريدونه الآن؟ سأنتظرك ريثما ترتدي ثيابك. الأمور تبدلت. كانوا في السابق يأخذونه واللقمة في فمه.

وأدخل الفهد إلى غرفة نظيفة مضاءة، أبرز ما فيها علبة سكائر على الطاولة ورجل يجلس وراء الطاولة، دعاه للجلوس برقة بالغة: «لا تخف. أريد أن أسألك سؤالاً عابراً وأريدك أن تجيبني بوضوح».

«ـ سأجيبك بوضوح».

«ـ لماذا هاجمت غزو كوبا؟».

«ـ في الحقيقة لا أعرف بالضبط، ولقد كتبت أكثر من مرة في هذا الموضوع».

«ـ وكل موضوع يختلف عن الآخر».

«ـ يختلف في الأمور العامة. أما في الجوهر فهو واحد. الحرية قبل كل شيء».

«ـ على كل حال، ما يهمنا في الوقت الحاضر هو حرية الشعوب قبل حرية الأفراد. أما أنت فيبدو أن لك وضعاً خاصاً. إنني أسعى لإطلاق سراحك».

«ـ أنا؟!».

«ـ نعم أنت، فسيدي طلب ملفك لإعادة النظر فيه. وأبلغت خطيبتك بذلك».

«ـ خطيبتي... أين هي؟».

«ـ جاءت مرتين لتطمئن عليك، ولكن تعرف أن الزيارات ممنوعة، ولكنها كانت تعامل باحترام بالغ ولقد أوصلها سيدي بسيارته».

«ـ أوصلها سيدك بسيارته؟!».

«ـ نعم. في أول الأمر كانت كئيبة. أما الآن فقد تغيرت بعض الشيء. إنها تضحك باستمرار».

***

ودخل الفهد إلى عنبره وهو يطفح تعاسة وشقاء. فوجد أبا سليم متربعاً في مكانه وفي عينيه أخبار وأخبار.

«ـ لماذا لا تنام؟ لماذا دائماً مستيقظ كخفير؟ ثم من ينام في مكاني؟».

«ـ إنه البدوي. لا تصرخ به. إنه يبكي».

«ـ لماذا؟».

«ـ حاولوا اغتصابه».

«ـ ماذا؟».

«ـ حاولوا اغتصابه».

«ـ من؟».

«ـ رئيس الوزارة السابق... فتحي بك».

* * *

كان صباح اليوم التالي كئيباً حاراً، مناسباً لأي حديث حزين متقطع.

قال الفهد لأبي سليم: «ماذا حدث للبدوي؟».

«ـ أولاً لماذا أخذوك أنت في الليل؟».

«ـ لا شيء يذكر. سألوني سؤالاً عابراً عن أزمة كوبا».

وهز أبو سليم رأسه ساخراً كأنه أدرك أزمة كوبا من جميع جوانبها، ثم قال: «ما حدث للبدوي شيء لا يصدق. كنت نائماً على جنبي الأيمن كما تعرف عندما سمعت صوتاً أشبه بخوار الثور أو كتلك الأصوات التي نسمعها من نوافذ التحقيق، ثم حركة في الهواء. ساقان رقيقتان تنتهيان بمخالب قذرة ويدان رفيعتان تنتهيان بمخالب قذرة أيضاً وأسنان جاحظة وعورة قذرة، كل هذا يثب في الهواء ويطلب النجدة النجدة. ثم عرفت أنه البدوي. واستيقظ الجميع وراحوا يصرخون بالبدوي: اسكت أيها المجنون، اسكت، فسكت، وأخذ يتقي رأسه بمرفقه عندما وجد معظمهم يهدده بالضرب، وسار كطائر اللقلق تجاهي، فالتقطت حذائي وقلت له: من هو؟ فأشار باصبعه قائلاً: فتحي بك. وهويت بحذائي على فتحي بك. وأظنك

رأيته. بعين واحدة لأن عينه الثانية اختفت بعد ذلك فجأة. على كل حال لابد من أنها موجودة في مكان ما من وجهه، وقلت له: مرة ثانية سأقتلك أيها الكلب. ثم رحت أهدئ من روع البدوي الذي رفض أن ينام في مكانه بل ظل يجلس القرفصاء خوف أن تضربه إذا وجدته نائماً في مكانك. انظر ها هو. ابعدوا عنه أيها الكلاب. تعال أيها البدوي».

وكان عدد من الطلبة السجناء يتحلقون حوله ويهددونه بكلمات بذيئة. وصرخ بهم أبو سليم: «ماذا تريدون منه. اللعنة عليكم وعلى ثقافتكم!».

ثم التفت إلى البدوي متسائلاً: «لماذا تبكي؟ ماذا فعلوا بك؟».

«ـ ضربوني بالحصى على رأسي وسألوني إذا كانت أختي تسير بلا سروال».

«ـ اجلس في ظل هذا الجدار ولا تتحرك حتى يحين وقت الرجوع إلى العنبر. وإذا اعتدى عليك أحد قل للحارس. ألا تراه يقف كالبغل هناك؟ عندي أشغال كثيرة هذا الصباح».

ورفع رأسه وراح يشمشم رائحة سكائر من مكان ما، ثم، وانطلق نحو مصدر الرائحة.

الفصل الحادي عشر والأخير

كان الفهد مصاباً بمغص مريع وهو يقف محدودب الظهر أمام دورة المياه لعل من في داخلها يخرج في هذا القرن.

كان مصاباً بالضجر وهو يأكل، وبضيق الصدر وهو يشرب، وبالحزن وهو يضحك، ولا يعرف لحالته رأساً من ذيل.

«ـ أخرج يا رجل. إنني أحتضر».

وجاءه صوت عميق خافت كأنه صادر من منجم: «وهل تظنني سعيد بالجلوس في هذا المكان ثم إنك لم تفتأ تذهب وتجيء إلى هنا كأنك في حديقة عامة».

«ـ وهل تظن أني أقف هنا لأحاورك وأستمتع بأجوبتك؟».

وصاح به آخرون: «دع الرجل ينهي ما هو موشك على إنهائه».

«ـ أحشائي تتمزق».

«ـ لتتمزق. يجب أن نسمع شيئاً آخر غير صوتك».

«ـ إنني مريض، ويعرف أنني مريض، ومع ذلك فهو يتباطأ».

«ـ هو حر في ذلك. وإذا لم يعجبك ما نقول فاضرب رأسك بالحائط الذي يعجبك. نريد أن نرى شيئاً آخر غير وجهك».

كانت غالبية المعتقلين يكرهون الفهد ويشمئزون منه، وكان يعزي

نفسه بأنهم لا يعرفون شيئاً عن مستواه وماضيه. رجال فظون، مجرمون ومنحرفون.

قال الفهد ومثانته تكاد تتمزق: «أرجوك أن تخرج».

«ـ سأخرج ولكن كي أهشم رأسك».

واندفع من وراء الستارة رجل له ملامح الخنزير المرتطم بجدار حتى ليستحيل التكهن بما هو مكتوب في هويته عن لون الوجه والعينين والشعر، وأطبق على عنق الفهد بيديه المبتلتين بالماء، وراح يصرخ: «قلت لك تريث. إنني لست سعيداً حيث كنت، ولكنك دائماً تلح على كل الأمور كأنها لن تحصل لك أبداً. هيا اغرب عن وجهي وإلا قتلتك. لن تدخل هذا المكان حتى الصباح وإذا دخلته فلن تخرج منه حتى الصباح».

واستسلم الفهد للأمر الواقع، وجلس القرفصاء على غطائه، يصغي إلى التعليقات والغمزات التي بدأت تفرمه فرماً هنا وهناك، ويحاول أن يستعيد شجاعته وثقته بنفسه ويدخل دورة المياه. لقد تلاشى الألم من مثانته وانقلب إلى جمرة صغيرة في القاع. وكلما حاول أن ينهض أو يرفع رأسه، كان يعتريه خجل لا يحتمل من أن أحلامه كثائر تتركز كلها في أن يفعل شيئاً تفعله الكلاب الهائمة. وعندما كان في أوج سلطانه وزهوه، كان يحلم دائماً بشجار عنيف وسط الشوارع... برصاص ينهمر عليه من النوافذ. أما هنا بين هذه القباقيب والقشور ذات الرائحة النتنة فهذا ما لا يمكن احتماله.

وأخيراً نهض ودخل دورة المياه ثم خرج منها وجلس في مكانه من دون أن يعترضه أحد، فشكر الله وحمده على أن الأمور مرت بسلام، ولكنه ما أن رفع بصره عن ركبتيه حتى دوى العنبر بالضحك وفتحات الأنوف المرتجفة من المرح.

ودخل الحارس وأعطاه صرة ما وانصرف، فخلقت له مشكلة كبرى: هل يفتحها أمامهم أم يتركها حتى يعم الظلام؟ تحسسها بيده. كانت طرية وزنخة. وكان غلافها مبقعاً وقذراً، فوضعها خلف ظهره وتمدد بارتياح.

كان الآخرون منهمكين في إعداد طعام العشاء. كل ثلاثة أو أربعة يعملون شيئاً ما. أما هو فكان وحده. دائماً لم يقبل أحد بمشاركته، كما أنه لم يعرض على أحد المشاركة. وحاول أن يفعل شيئاً فلم يفلح. وعند توزيع الطعام، أخذ طعامه وعاد إلى مكانه. وضع صحنه وملعقته على المنديل، وفك الصرة بوجل وقدسية. كانت عبارة عن عدد من الفطائر القروية المضحكة مغلفة بخرقة غير سميكة تكهن فوراً بأنها قطعة من ثوب قديم لأمه، فداعبها بطرف سبابته كأنها كفن، ثم عد الفطائر، وفتح إحداها، كانت محشوة بأشياء عديدة يسيطر عليها البصل، وكانت حوافها مطرزة كالمحارم بدقة وصبر عجيبين. إن أمه أرهقت نفسها كثيراً حتى أتمت صنعها، وبكت كثيراً وتمخطت كثيراً وهي تعد تلك الفطائر النادرة لطفلها الحبيب فهد.

نظر الفهد إلى الآخرين، فوجدهم يأكلون ويتهامسون عليه. حمل عدداً من الفطائر بيديه، ودار على الآخرين مرتبكاً وخجلاً وبائساً: «إنها فطائر من الضيعة. هل تشاركوني في شيء ما؟».

فلم يرد أحد عليه.

«- إنها مصنوعة بالسمن الحقيقي. إنها شيء غير طعام السجن».

وضرب أحدهم الفطائر بيده، فتناثرت على الأرض: «قلت لك لا نريد شيئاً منك ولسنا بحاجة إلى فطائرك الممزوجة بالبصل. نحن نعرف كيف يصنعونها في القرى».

فتح فمه ليقول شيئاً ما وهو يلتقط أجزاء الفطائر الكبيرة والصغيرة على السواء، ثم استنكف عن ذلك، وعاد إلى مكانه حيث وضع ما بيديه في الصرة، وجلس مطرق الرأس.

كان دباح يسيطر على العنبر سيطرة مطلقة بحيث أن نظرة واحدة من نظراته كافية لأن تذيب أي سجين في مكانه كالملح. كان ذا واجه مستدير وعينين صفراوين بلون الشمع وأذنين كبيرتين لا تفوتهما صغيرة أو كبيرة، تحيط به حلقة من أزلامه، وهم لا يقلون عنه غلظة وجهلاً وقسوة، اعتقلوا جميعاً في حادث سرقة. وكان الإقطاعي السجين قد حرضهم على الفهد، وأقنعهم أنه بقي سنة كاملة وهو موضع سخرية الفهد وهجومه، ولذلك كرهوا الفهد، وجعلوا حياته جحيماً لا يطاق، يسرقون غطاءه في الليل، ويلقون الأوساخ بجانبه، ويحملونه مسؤولية أي شغب أو فوضى في العنبر، ويمنعونه من الشرب في بعض الأحيان ومن استعمال دورة المياه في أحيان كثيرة، ويتهمونه بأنه هو مصدر القمل، وأن رائحته لا تطاق، وأن عليه أن يشنق نفسه إذا أراد أن يكون سعيداً إلى الأبد. وحاول بشتى الطرق أن يتجنب شرورهم ويتحاشى الاصطدام بهم. كان يقف في آخر الصف عند توزيع الطعام، وآخر من يستعمل أدوات الغسيل، ويضحك لنكاتهم ويتحمس لقصصهم. وآخر محاولة له كانت تقديم فطائره العزيزة فلم يفلح وفشل فشلاً ذريعاً وكرس ذلك العداء بحيث أن مجرد فكرة الاستمرار ساعة واحدة بعد الآن معهم كانت ينهلع لها قلبه. كان وحيداً. لا أحد يؤازره أو يواسيه ما عدا ذلك البدوي بساقيه الرفيعتين وفمه المفتوح صيفاً وشتاءً. كان يرقد بجواره، ولكنه لا يتذكر أنه افتتح حديثاً معه سوى: هل عندك ملح، أو هل غسلت الصحون، ثم يدير كل منهما ظهره للآخر ويشرد على

هواه. وكان البدوي لا يجيد الحديث ولا المشي ولا الأكل ولا الشرب. لا يجيد سوى التحديق إلى الآخرين وتلبية الأوامر مهما كان نوعها أو مصدرها، ولذلك تمنى الفهد له أن يموت أو ينقل إلى عنبر آخر أو يحدث له أي شيء يقضي على الزمالة العدوة.

كانت سماء الخريف النارية تلوح من النافذة شيئاً غير عادي... شيئاً أشبه بفوهة البركان، نار حمراء مخططة بالأسود ومنقطة بتلك النجوم التي تمهد لذلك الظلام الدامس الأبدي.

وكان السجن بعيداً في القفار، منبوذاً عن المدينة، ومطوقاً برائحة دهنية تمتص كل الاستغاثات المفترض انطلاقها من السهول البعيدة. وكان وجه دباح يبدو أسطورياً في تلك اللحظة وهو يستعد للاضطجاع بين أزلام حلقته بينما لاح وجه البدوي كوجه كلب يلهث على رابية جائعاً وقذراً لا يعرف ماذا يعمل بهذا الوقت الطويل المترامي كالسلسلة الفقرية خلف قوائم الزمن: هل يعوي أو يغني أم يستمر مفتوح الفم أمام الفهد؟

كان الصمت يخيم على الجميع، وأي همسة كانت جديرة بأن تخلد في تلك اللحظة وينصب لها تمثال ضخم وسط العالم، وكانت عينا البدوي تنصبان على صرة الفطائر مغروستين فيها غرساً لا يمكن تجاهله، فقال له الفهد: «خذ واحدة».

«ـ إنها لذيذة».

«ـ كل ما تشاء».

وقبض البدوي على الفطيرة بيديه الاثنتين وراح يقضمها قضماً. ولما كانت يابسة الحواف فقد أحدث قضمها صوتاً لا يمكن احتماله في ذلك الصمت القاتل كصوت نواح في عرس. رفع دباح رأسه، وقال: «لا تأكل أيها البدوي».

فتجمد الدم في عروق الفهد بينما توقف البدوي لحظة عن القضم استهلكها في النظر إلى دباح ثم عاود القضم مرة أخرى، ولكن ببطء وخجل شديدين، ثم توقف نهائياً، ووضع ما تبقى من الفطيرة قرب رأسه وأثر أسنانه واضح على حوافها، فضحك دباح وأزلام حلقته واضطجعوا في أماكنهم، فشعر الفهد كأن كابوساً هبط من على رأسه وزال في تلك اللحظة. وأشعل دباح لفافة، ونفث دخانها في الفضاء بارتياح كدليل على أن أمراً آخر من أوامره قد نفذ بحذافيره. وفجأة انطلق صوت: «أطفئ هذه السيكارة». فانتفض الجميع في أماكنهم. ولما لم يتكرر الصوت فقد ظنوه حلماً، واسترخوا من جديد.

وجاء الصوت مرة أخرى آمراً ونافد الصبر: «قلت لك أطفئ هذه السيكارة».

وارتعد الجميع مرة أخرى. لم يكن صوتاً بشرياً من النوع الذي يسمع في الحافلات أو أسواق الخضراوات... كان صوتاً منفجراً من الداخل محوماً وضارباً كذيل الأسد، لا يمكن أن يقال أو يهمس به إلا عندما تكون الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب... صوت الصوت المطارد، الفارس المثخن بالجراح وقد وجد سيفه مغروساً قرب رأسه بعد بحث طويل لا يحتمل. وأشعل أحدهم زر الكهرباء، وكان في رأس دباح ذرة عقل وطارت: كان الفهد يقف منتصباً أمام دباح وبيده أنبوب من الحديد يستعمل في تنظيف دورة المياه، وقد أطبق فمه للمرة الأولى من اعتقاله بحزم وتصميم على جميع أسنانه ما عدا أسنانه الأمامية التي كانت تشع بلعابها الفائض كسهم لا يعرف ماذا يخترق... وجه مليء بالهزائم المنكرة يطفح بتلك المروءة التي انتفضت على قدميها في عالم من الكساح والمقعدين: «أنت أيها القذر...».

«ـ أنا يا كلب؟».

«ـ أطفئ هذه السيكارة وإلا أطفأتها في فمك».

وإذا كان دباح قد شعر بضرورة التريث ولو ثوان معدودة لمعرفة سر هذا الانقلاب الصاعق إلا أنه شعر أن مثل هذا التريث جبن لا يحتمل عندما رأى البدوي يقف على مبعدة من الفهد وبيده قبقاب مرفوع حتى رأسه من دون أن يفقد سمة واحدة من سمات البلاهة الخالدة فيه. ووثب دباح إلى الأمام متجاهلاً الضربة القاصمة التي نزلت على عظم كتفه وقبض على أذني الفهد يريد اقتلاعهما من جذورهما.

وتكاثر أزلام دباح على الفهد. ضربة من هنا وصوت من هناك حتى شعر بالاختناق. وكان البدوي يتراجع ببطء والقبقاب مرفوع بيده. أيضرب... أيقوم بالخطوة الوحيدة الجبارة في هذه الحياة أم ماذا؟

وهرع الحرس وصفاراتهم في أفواههم، وأطبقوا على الجميع وهم يلهثون. وعند ذلك هرب البدوي إلى دورة المياه بينما اقتيد دباح والفهد إلى الإدارة.

***

«ـ أغدق عواطفك على الكلاب ولا تغدقها على البشر. لا تقم بإعداد الشاي إذا كانت الأقداح يملكها سواك. عش حياتك كما لو أن لك ذراعاً واحدة فقط. لا تكتب وتقرأ وتناقش وتحارب في آن واحد. لا تكن متفوقاً في عالم منحط لأنك ستكون بقعة عسل في عالم من الذباب... ستفنى ويبقى الذباب. إنني لا أكلمك كرجل مسؤول هنا عن عدد الأغطية ومواعيد التنفس ولكن كرجل مفتون بك يا أستاذ. قرأت كل ما كتبته، وتمنيت دائماً أن تكون لي الجرأة الأدبية والمظهر الأليف كي أطلب منك ولو

هاتفياً أن تكف عن تعذيب نفسك وعن إعداد النار التي ستلتهمك مع طاولتك وأوراقك. كنت أسمع صوتك في المذياع حنوناً وغاضباً، يسري في أوصالي، ويهزني من قدمي حتى قبعتي وأنا راقد في هذا المقعد وأمام هذه المدفأة. وكان بعضهم يكرهك ويتمنى أن يقضم حنجرتك بأسنانه. وعندما أتوا بك إلى هنا بتلك اللحية الطويلة وذلك العمش والأظافر المحطمة، لم أتألم فحسب بل شعرت بالاشمئزاز أيضاً. وعندما طلبوا إليّ أن أضربك رفضت شفقة واشمئزازاً وجلست أشرب الخمر هنا... أشرب وأشرب حتى لم أعد أدرك إذا كنت في سجن أو في ملهى ليلي. وكل ما كنت أدركه أنني سعيد بتلك الجدران التي تفصلني عن آلام الآخرين».

ونهض الموظف في إدارة السجن ليضع عدداً من قطع الحطب في المدفأة، وليطل من النافذة قليلاً. وكانت الريح تعوي عواءاً أليماً في الخارج، وبراميل المحروقات تتدحرج وتتصادم في ذلك الليل الطويل.

«ـ كان من واجبي أن أصفعك أنت ودباح وآمركما بالزحف عشر مرات على الأقل فوق الوحل وتحت المطر لأنك هددت إنساناً ما بالقتل، ولكنني بدلاً من ذلك، قدمت لك الشاي واللفائف بيدي لأني لا أريد أن أكون وحشاً ضارياً في الوقت الذي أستطيع فيه أن أكون وحشاً بائساً فقط... لا... لا تقاطعني ببضع كلمات مرتبكة كالتي يقولها أحدنا مضطراً في مكان للتعزية».

وكرع ما تبقى من قدح الشاي دفعة واحدة، وراح يسعل ويلوح برأسه: «إنني أعرف دباح... حشرة خارج السجن وعملاق في السجن، وأعرف رئيس الوزراء... حشرة في السجن وعملاق خارجه. بيديّ قدمت له القهوة وفطور الصباح فيما مضى، وبيدي جلدته. كنت أرتعد منه هلعاً خارج

القضبان ويرتعد مني هلعاً داخلها. ومع ذلك فالأمور لاتزال غامضة، ولا أعرف إلى متى يستمر هذا السحاق الحيواني بيننا وبين العالم».

قال الفهد: «على الأمور أن تأخذ مداها، ولابد للجياد من أن تقف ولو في الهواء».

«- لتأخذ الأمور مجراها ولكن شريطة أن يكون بيننا وبين ذلك المجرى كما بيننا وبين الصين. أو بالأحرى لا تكافح عن الآخرين ولا تشعر عنهم. لا تصرخ وتتأوه عنهم وأفواههم ملأى بالطعام. أنا مثلاً أستطيع أن أقوم بتهريبك وأخلق ألف فتوى وفتوى بأن الهرب حدث مصادفة واستثناء. ولكني لن أقوم بذلك طالما أن المسؤولين سيخلقون أيضاً ألف فتوى وفتوى بأن الهرب لم يحدث مصادفة أو استثناء. ومهما كنت أحبك وأقدرك وأجلك، لا أريد أن أحبس في مكانك في العنبر ولو دقيقة واحدة. للتوضيح أكثر فأكثر، لو دخلت علينا الآن دورية فسيجن جنون رئيسها لأنك تجلس على هذا المقعد وتدخن وتشرب هذا الشاي. ولينفي أي شك حول علاقتنا وتقارب أفكارنا فقد يأمرني بجلدك لا هنا بل تحت المطر. فماذا تظنني سأفعل؟».

«- ستطيع أوامره».

«- سأطيعها حتماً وأؤدي له التحية لاهثاً وأقول: سيدي... لقد انتهيت. وإذا سألني: أين هو؟ سأقول له إنه يتخبط خارجاً في الوحل، لا لأنني أتلذذ بذلك بل لأنني أؤمن بأن النظام لن يدعنا نتصرف وفق مشاعرنا. والآن قبل أن تنصرف إلى عنبرك، أودك أن تعتبرني صديقك الذي لن يفوت فرصة واحدة لإنقاذك مما أنت فيه...».

وسمعا في تلك اللحظة هدير محرك يقترب وصدى دواليب نزقة تحتك

وتختنق بالوحل، فاقشعر بدن الفهد، وزاد صوت الرعد في الخارج من صوت تنفسه العميق. ولما كان طوال حياته يؤمن بالمصادفة وويلات المصادفة فقد أخذ يستجمع قواه لينصرف وكأنه كان في زيارة عائلية.

وعندما سمع موظف الإدارة أن شيئاً ما قد راح يخبط قدميه الموحلتين خبطاً على الأرض ليعطي فكرة ولو للحيطان عما عاناه في تلك السيارة الخربة... عند ذلك وجد أنه لابد من أن يتصرف من خلال النظام، فصرخ بالفهد: «أخرج أيها الكلب، ولا تدعني أرى وجهك بعد الآن».

وقال المسؤول وهو يعلق معطفه في مكان وقبعته في مكان: «لماذا هذا هنا؟».

«ـ حدث شغب في العنبر وأتيت به كشاهد».

فقال الفهد واضعاً النقاط على الحروف: «نعم... شاهد».

فصاح به الموظف: «اخرس... هيا أمامي».

وخرج الفهد مذعوراً من الغرفة الصغيرة الدافئة إلى حيث كانت برك الماء الصغيرة تلمع وترتجف على مسافة أميال، وكان عدد من السجناء المنهكين يجلسون القرفصاء ويدخنون صامتين.

وقبل أن يفتح باب العنبر، قال الموظف للفهد: «لا تنس أني صديقك مهما حدث، ولن أدخر فرصة واحدة لإنقاذك شريطة أن تعي جيداً أن سجناً يستهلك مئة ربطة من السياط كل صباح ليس جديراً بأن يجلس أحد موظفيه في مقهى ويقول باعتزاز:»

وعندما رآهما الحراس، التفتوا إليهما ببطء وهم ينفثون دخان سكائرهم.

«ـ ما الفرق بيننا وبين هؤلاء؟».

«ـ لا شيء».

«ـ على الأقل هم يتألمون. أما نحن فلا نفعل شيئاً».

***

في منتصف الليلة الأخيرة من العام، كانت عشرات من أعواد الثقاب توضع على أطراف اللفائف في كثير من المكاتب والسراديب لتضع حداً لهذه الفوضى في تصريف الحقد البشري. وكان الدخان الأزرق يرتجف فوق الوجوه ليزيد في استهلاكها لأدق العيوب والمخازي التي تتناقل أخبارها من بيت إلى بيت ومن حانوت إلى حانوت بالهمس وخبط الراحات على الصدور. وكان وجه غيمة من أكثر الوجوه حيوية وتوسلاً وهي تبعد دخان الآخرين عنها بيدها الصغيرة كيد العصفور. كانت قد قاست الأمرين خلال عام. لقد استجوبوها مراراً، وسخروا منها، وصفروا لها في الشارع لأنها تحب رجلاً لا يستحق قلامة ظفرها. ومع ذلك بقيت مخلصة ودؤوبة على لجم عواطفها الشهوانية في الأعماق، لا تظهر إلا الزهد الواضح والحنان العظيم، تمضي من شارع إلى شارع، ومن مقهى إلى مقهى، مستفسرة ومتسائلة ومطمئنة. وقد توصلت أخيراً بقليل من أحمر الشفاه وصباغ الشعر لاختراق أخطر سور في تاريخ المدينة لتعرف كل شيء مما يجري وراء الكواليس من دون أن تعرف أي شيء ذي قيمة.

وكانت هناك بالفعل مئات الأيدي تسرح شعرها عند الصباح، ومئات الأسنان تنظف عند الصباح، ومئات الأمهات يسلقن البيض لفطور الصباح، ولكنهم جميعاً كانوا يتمنون أن يفعلوا ذلك للمرة الأخيرة لا لنقص في المواد الغذائية أو رغبة في عدم إنهاك الأيدي، ولكن لأن البشاعة الحضارية قد أتلفت كل شيء وجعلت من التنهيدة البسيطة حتى

ولو في أثناء النكاح استغاثة شرعية تصدع آذان المارة وترغمهم على أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء مندهشين كأن المطر قد فاجأهم على حين غرة. هذا إذا وجد أحد المارة في الشوارع. لقد أقفر كل شيء وتوارى متورماً ومتعفناً كأقذار الأذن في أمكنة بعيدة لا تطالها أعقاب البنادق. وهل يمكن لكل بنادق العالم أن ترغم عصفوراً على أن يغني إذا كان لا يريد ذلك؟ وهل تستطيع أعظم هيئة قضائية في التاريخ أن تقاضي أحقر ديك في أصغر قنّ في العالم لأنه لا يصيح عند شروق الشمس؟ طبعاً لا تستطيع، ولذلك اختلط الحابل بالنابل، الصباح بالمساء، الجبان بالشجاع، والضحك بالعواء، ولكن في الداخل الذي ترك الساحات والشوارع فارغة ومقعرة كالقشرة الخارجية لأخطبوط كبير.

وحدها غيمة كانت تسرح شعرها وتسرحه، تمسح حذاءها وتمسحه... حذاءها العتيق المرقع بألف رقعة ورقعة... كي تمشي وتمشي وتصعد وتصعد حتى تلفظ أنفاسها وهي تلصق هذا الطابع أو ذاك لا بدافع الحب العظيم فحسب بل بدافع الغرور وتسجيل المواقف الطنانة، وقد أفلحت في ذلك إلى حد كبير، وجعلت من هذا الحب شيئاً أسطورياً تضرب به الأمثال بين العشاق وطلبة المدارس. كانوا ينظرون إليها من نوافذ البيوت المتراصة والمقاهي. وكانت ترتبك في بادئ الأمر وتتعثر في مشيتها السريعة الراقصة، ولكنها الآن لا يربكها شيء أو يعثرها... غزالة برية في صحراء. الشعب... الكتب... الأفلام الرائعة... أشياء انتهى دورها في تغذية الجرب، ولم تعد الأظافر الحادة تستخلص منها إلا القشور. وها هي الآن وحيدة وضالة في مدينة تغمرها المصابيح، تختال بمنديلها الأحمر وشفتها اليابسة كرمز للانتظار القاتل والحرمان العظيم... في مدينة تتسلخ عوراتها تحت

وهج الأظافر ولسعات السياط... العورات المجعدة بين الأثداء المتفحمة تحت المطر... الأثداء الجاحظة الغريبة والملوية تحت رقابة الحوذي.

خذني إلى جهنم أيها الحوذي العجوز... خذني إلى أقرب حانوت في العالم واشتر لي أوقتين من المطر والخريف... عد بي أيها العجوز، وقل لجوادك العجوز أن يسرع إلى أقرب مقهى واشتر لي ربطة من الأصدقاء، واقذفهم معي على طاولة المطبخ.

وشد الحوذي عنانه الطويل المهترئ حيث صرخت به أن يقف، وقفزت على الرصيف وعيناها ملهوفتان على جميع النوافذ خوفاً من أن يكون البيت الذي تقصده قد طار، وضغطت باصبعها الرطب المحمر على الجرس، فانفتح الباب والجرس مازال يرن. كانت شاردة وحزينة وخجولة من الأشخاص الذين ستقابلهم والأشخاص الذين لن تقابلهم.

وضحك ياسين ضحكته البليدة المصطنعة: «أهلاً... أهلاً... لقد انتظرناك كثيراً. وقد خمن البعض أنك لن تأتي، ولذلك ذهب».

«ـ ومن بقي من البعض الآخر؟».

«ـ أنا».

«ـ أنت... وحدك؟».

«ـ أنا والويسكي والفراغ».

وجلسا متباعدين على أريكة يبدو من مظهرها أن عدداً لابأس به كان يجلس عليها ويصرخ ويعربد.

«ـ وماذا حدث؟ هل فعلتم شيئاً؟».

«ـ نعم... قمنا باتصالات واسعة. ثلاثة أسابيع وأنا أتصل وأنتظر وأراجع، وكذلك أسامة وصطوف إلى أن وصلنا إلى النتيجة المطلوبة».

«ـ وما هي؟».

«ـ لا شيء».

«ـ وكيف لا شيء... كيف؟».

«ـ أرجوك اجلسي ولا تصرخي».

«ـ لا أريد مقابلتكم. أريد مقابلته هو لأعرف هل هو ميت أو حي... هل بقي برأس أو بدون رأس».

«ـ أرجوك لا تصرخي ولا تخطئي في فهم عواطفنا وخاصة أنا. إنك لا تقدرين كم أحبه وأحترمه وأتمنى مساعدته».

«ـ أرجوك... مللت سماع هذه الأسطوانة. تحبه وأنت في المقهى، تحترمه وأنت في السينما، تتمنى مساعدته وأنت في الحانة. إنك لم ترسل إليه زراً منذ اعتقاله حتى الآن».

«ـ إنك مازلت تتكلمين كتلميذة مدرسة. إنني أحس الأمور ولكني لا أعرف كيف أترجمها».

«ـ هو... لا تعرف كيف تترجمها؟ عفواً... لقد نسيت أن هذه العواطف من فصيلة اللغات الهيروغليفية».

ومسحت عينيها بمنديلها، وقالت يائسة: «تترجمها بأن ترسل إليه شيئاً ما، وتكتب عليه هذا من شخص ما. إنه عزاء كبير له لأنه إنسان كبير».

«ـ نعم... إنسان كبير ولكنه طفل».

«ـ لقد أعطوني عنوان منجمة شهيرة... سأذهب إليها. يقولون إنها تعرف كل شيء وتتنبئ بكل شيء».

«ـ أهكذا تتكلم طالبة الجامعة؟».

«ـ ماذا أعمل؟ لابد من فم ما في هذا الكون يطمئنني وإلا قتلت نفسي».

«ـ إنك تبالغين في عواطفك تجاه رجل أوقعك في مآزق فيما مضى».

«ـ أعرف... انه مولع بالنساء، وان ما من قوة في العالم كانت تمنعه عن الشطط والانزلاق. ولكن ماذا أعمل إذا كنت أحبه؟ أرجو أن يكون السجن قد علمه شيئاً في هذه الحياة».

«ـ أرجو ذلك».

«ـ لقد آن لي أن أذهب وأقابل المنجمة ومن ثم سأسافر إلى القرية. الديون تنهشني من جميع الجوانب، ولكن عزائي أنني نجحت في الامتحان. سيسر الفهد كثيراً لذلك. نعم سأسافر إلى القرية وأستريح بعض الشيء. كم الساعة الآن؟».

«ـ اسمعي يا غيمة. رأيي أن تذهبي رأساً إلى القرية وتدعي جانباً فكرة هذه المنجمة لأنك متعبة أولاً، ولا جدوى من هذه المقابلة ثانياً».

«ـ أعرف أعرف. ولكن حتى لا يقال إنني قصرت في ناحية واحدة في غيابه. وأنت لا تنس أن تعمل شيئاً من أجله».

«ـ لن أنسى».

«ـ إلى اللقاء. لا... أرجوك لا تخرج معي. إن أوصلتني إلى الباب أم لا فلن يتغير شيء. أنت تعرف كم أحبه».

«ـ نعم أعرف».

وابتسم، فابتسمت وهي ممتعضة، وانطلقت.

***

كانت غرفة المنجمة مملكة قائمة بذاتها. الطنافس طنافس، والكراسي كراسي. وأول ما يطالعك أسنان ذهبية زرقاء يحيطها وجه طافح بالخزعبلات. وكان على الحائط ثلاث صور مؤطرة تشير إلى أن صاحبتها كانت في صباها مومساً، وفي كهولتها قوادة، وفي شيخوختها منجمة. وما أن رأت زائرتها الصغيرة المبللة بالمطر تقف على عتبتها مذعورة العينين حتى فتحت ذراعيها المليئتين بالأساور وهزت رأسها يميناً وشمالاً، وقالت: «تعالي يا حبيبتي تعالي قبلي جدتك العجوز لتقول لك ما لا تستطيع هذه الكتب التي تحت إبطك أن تقوله في يوم من الأيام. تعالي... إنني لا أستطيع النهوض فأنا مصابة بداء المفاصل. لا تجلسي على هذه الأريكة فساقها مكسورة. وقد أرسلتها مراراً لإصلاحها. وكانت دائماً تعود ولا تتحمل دجاجة فوقها. الجميع يبتزون مني المال كأنني أقطفه من بستاني. لقد جنيته بعرق جبيني وبأشياء أخرى أرجو أن لا تضطرك الظروف إليها. ما بك؟ هل أنت محمومة؟ لا. وجهك كالورد. اجلسي حيث تشائين. اجلسي على هذه الأريكة المكسورة إن شئت فسأستعملها على كل حال للموقد هذا الشتاء. آه كم هو بارد هذا الشتاء. حتى الفصول تغيرت يا بنيتي. قد يأتي الصيف بدل الشتاء أو الشتاء بدل الصيف دون أن نحس بذلك. إنني أعرف هذه المدينة حجراً حجراً، وأعد حنفياتها واحدة واحدة لأنني شربت منها جميعاً. كان الماء ماء والعطش عطشاً. ماذا تريدين؟ أنت ريفية حتماً وأحببت واحداً من المدينة هجرك ولا يريد أن يرى وجهك. افتحي هذه الكف الصغيرة لأرى ما تخبئه لك الأقدار، ولكن بسرعة لأن المئات من أمثالك يوقظونني من نومي في كثير من الأحيان. أما أنت فيبدو أنك جئت في الوقت المناسب. إنك لطيفة وهادئة كأن القط

قد أكل لسانك مع أني لا أشك مطلقاً في أن لسانك لن يتوقف حتى يتوقف قلبك إذا اتهمك أحد بأنك لا تزنين عشرين كيلوغراماً. آه من هذا السعال! إنه يمزق عنقي. ومن المضحك أن ألفظ ذلك الحرف كالأطفال. لأن هناك فجوة في مقدمة أسناني. ولذلك يبدو منظري مقززاً عندما أسعل أو أضحك. ولكن ماذا أعمل؟ هل ألبس قناعاً عندما أخاطب أحداً؟ على كل حال لم أحفرها بيدي. هل تعلمين كيف حدثت هذه الفجوة. لقد ضربني جندي فيما مضى لأنني هددته بهجره. هكذا كان الرجال. أما الرجال اليوم... هه... فإنك تبصقين في وجوههم فيقولون لك: ما هذا العسل يا ملاكي؟ على كل حال، سأذهب إلى طبيب الأسنان لأملأها بشيء ما أو بالأحرى لماذا أذهب. لقد اعتاد علي زبائني، وهم يأتون إلي من كل الطبقات... نواب... وزراء الخ... ويعطوني مالاً وفيراً لمجرد أنني أقول ما يحلمون به وما يريدون أن يحدث. حتى البزاقة تعرف ما يحلم به الرجل الشرقي: امرأة وسلطة وطعام. يجب أن تقولي لي ما قصتك فوقتي ضيق ولا أستطيع إضاعة ما تبقى منه بلا معنى. على الأقل يجب أن أدخر ثمناً لكفني ونعشي وإلا أكلت جثتي الكلاب. إنك طالبة. أليس كذلك؟ طالبة... أليس كذلك؟».

«ـ نعم نعم... طالبة طالبة طالبة...».

«ـ طالبة؟ هه... ذكور وإناث على مقعد واحد؟ إنني أراهن أنكم لا تفهمون شيئاً مما يقوله المعلم. ألا يلحمس لكم الطلاب من تحت الطاولات؟ قولي الحقيقة ولا تخجلي».

«ـ نعم نعم... يلحمسون... وماذا تريدين بعد ذلك؟ إنني أكاد أنسى لماذا أتيت مع أن من أتيت من أجله يساوي كل رجال العالم».

«ـ إذن... جئت من أجل رجل».

«ـ طبعاً... أم ظننت أني جئت من أجل جواد؟».

«ـ لماذا هجرك؟ أبعدي هذه الهرة. إنها تتبول علانية كالبدوية. ما هذه الهرة؟ أنظري كيف ترفع ذيلها. إنه يكاد يلامس ذقنك، ولكن لا تخشي شيئاً. إنها أنظف مما تتصورين. نعم! لم يهجرك، ولكن إذا لم يهجرك فماذا فعل إذن؟».

«ـ أصغي إلي ثانية واحدة. أقبل قدميك».

«ـ لا أستطيع. وقتي ضيق ولا أستطيع أن أفقده بلا معنى. أعرف. ستقولين الأمور مداورة حتى لا تجرح كبرياءك. آه كم أنت بائسة. الرجل لا يستطيع أن يفعل إلا شيئين: إما أن يحب، وإما أن يهجر. أقول عما يجري هنا في هذه المدينة الساقطة. ماذا أتى بك أيتها الريفية البسيطة؟ ماذا تستطيعين أن تفعلي بحفنة من الطهارة في هذه المدينة الساقطة. إنني أعرف معظم من يرقد في قبورها... عرفتهم جميعاً. هل تتصورين أن ما بداخل هذه القبور كان يضحك ويصرخ ويقبل؟ موضوعك صعب يا صغيرتي. تعالي إلى جواري. لن آكلك. هيا لا تضيعي الوقت. ماذا فعل بك حبيبك؟».

«ـ أريد أن أعرف أين هو وما هو مصيره».

«ـ إذن لا تعرفين أين هو؟».

«ـ طبعاً لا أعرف وإلا لما تشرفت بأريكتك وهرتك».

«ـ إنه حيث كان فهو تعيس ومهموم ويفكر بك باستمرار».

«ـ أعرف أعرف أنه يفكر بي لا بك، ولكن أين هو؟ هل سيخرج؟».

«ـ يخرج... من أين؟».

«ـ من السجن».

«ـ قولي ذلك مسبقاً. يا إلهي كم هن ثرثارات بلا معنى فتيات هذا الجيل. ما اسمه؟».

«ـ فهد التنبل».

«ـ فهد التنبل... فهد التنبل. رائع. هذا اسم حقيقي. اسم رجل حقيقي. أما أسماء اليوم... أسامة... هزار، فشيء يقزز النفس...».

«ـ يا ست نظمية. دقيقة واحدة وأقتل نفسي. حقيبتي في الكراج والسيارة مليئة بركابها ولا تنتظر أحداً سواي كي تسير».

«ـ كان يجب أن تفصحي عن ذلك من قبل. ولكن ما العمل إذا بدأ الإنسان بالحديث لا يعرف كيف يسكت؟ ماذا فعل حبيبك حتى دخل السجن؟».

«ـ كان يكتب... عن الآخرين».

«ـ وماذا كتب؟ ولماذا كتب؟ إنه أبله».

«ـ ولماذا أبله؟ يا ست نظمية... إن الدور الذي لعبه فيما مضى لا يمكنك نسفه بهذا العنف البذيء. إنك على كل حال لا تفقهين في هذه الأمور».

«ـ اسمعي. قد لا أفقه كثيراً مما جرى ويجري من أمور، ولكن ما أفقهه وحدي دون سواي أن الإنسان مهما لعب من أدوار فلابد أن يناله التعب في النهاية، ومهما ارتفع لابد أن يسقط. رأيت نواباً ووزراء يتبولون على جدران الأزقة وحيدين مهملين. مهما بلغ الإنسان ما بلغ، سينفض عنه الآخرون عندما يتوقف عن الصعود ويتركوه وحيداً مجهولاً في المقهى يبحث عبثاً عن إنسان ما يلعب معه الورق أو النرد أو يشاركه في تأمل صور الاستعراضات والاحتفالات الغابرة».

«ـ إنك ثرثارة أكثر مما أنت منجمة. لم أفهم كلمة واحدة عن حقيقة وضعه الآن».

«ـ اسمعي يا فتاة. ما من زبون أو زبونة بالأحرى أرهقتني مثلما أرهقتني أنت. لم تتركي لي فرصة واحدة كي أتم حديثاً أو أعطي حكماً، وكل ما يهمك هو حبيبك وحده دون سواه».

«ـ أرجوك أن تقولي لي شيئاً عنه... شيئاً من الحقيقة عن وضعه».

«ـ سأقول لك الحقيقة بكاملها لأن نصف ما سأقوله قد يحدث، ونصفه الآخر قد لا يحدث. ولذلك لابد أن تكون الحقيقة هنا وهناك».

«ـ هنا أو هناك؟».

«ـ وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟ هل أمسك عكازي هذا وأشير به إلى الحقيقة كأنها مقعد أو قدح؟ لماذا تورطين نفسك مع شاب؟ لماذا تحبين؟ ألا ترين حالتي أم تعتقدين أنني خلقت هرمة مقعدة بهذا الشكل؟ لم يأت بائع البابونج اليوم. إنني لا أستطيع أن أشرب شيئاً سوى البابونج. إنك تحبين ذلك الفتى، وإذا هجرك ستجنين بكل تأكيد. لماذا؟ أنصحك بأن تتركيه».

«ـ أتركه؟! سنة كاملة وأنا أركض بهذا الحذاء العتيق من مكان إلى مكان، أغسل ثيابي وأنتظرها حتى تجف لأرتديها وأهرع لمقابلة فلان وفلان، سنة كاملة وأنا لا أرقد إلا إذا رقد السمك في الماء. آه يا ست نظمية، لو تدركين الأمور أكثر مما تدركين الآن».

«ـ بل أدركها أكثر مما تظنين، وأستطيع أن أريك إياها بأم عينيك. تعالي معي. لا تدوسي بحذائك الموحل على السجادة، فليس عندي خدم كي ينظفوها. ما شكل حبيبك؟ هل هو جميل؟».

«ـ نعم. إنه طويل قليلاً. أشقر وذو عينين واسعتين ضاحكتين».

وكانت العجوز قد وصلت إلى سرداب مظلم يضيئه شمعدان يرسل لهباً كلهب الثقاب، ووقفت أمام ستارة صفراء مقلمة كالتي تستعمل للتوابيت، وأزاحتها بيديها المليئتين بالأساور، وقالت لغيمة: «انظري. هنا أيضاً واحد كان يسرح شعره ويلمع حذاءه ويضع محرمة في جيبه الصغير. وقد ضحك لنكات كثيرة، وقبض كثيراً من النقود. وماذا هو الآن؟ انظري إليه. إنه عظام. عظام وغبار. قولي أمامه ألف نكتة ونكتة فلن يضحك. اقذفي أمامه كل مجوهرات الدنيا فلن يختلج. كومي أمامه كل أثداء النساء فلن يطرف له بصر. تعالي. اقتربي. سأضيء لك مصباحاً آخر. داعبي أسنانه بأصابعك. إنها مقرفة ومفزعة. أليس كذلك؟ ولكني طالما لعقتها بلساني فيما مضى... طالما مسحتها بمنديلي من بقايا الأرز واللوبياء. كان يحب طبخي كثيراً، ويقول لي: أخاف أن آكلك ذات يوم...».

وكانت خيوط العنكبوت المتدلية من السقف ومن عدد من السروج وأدوات الصيد، تتأرجح وتتساقط هنا وهناك، وقد انطلقت غيمة هاربة، متعثرة بالأريكة، فحطمتها، فصاحت العجوز وهي تغلق الستارة وتحاول الإسراع خلفها: «لا تذهبي قبل أن تعطيني أجرتي. إن الله لا يرسل إلي نقوداً بدلو من السماء».

وفتحت غيمة حقيبتها على عجل، وقذفت بكل ما فيها من نقود، وأسرعت لا تلوي على شيء، قاصدة قريتها.

***

«ـ سكوت».

وانقلب الجميع إلى تماثيل فاغرة من البرونز. ما من كلمة إلا وقيلت فيما مضى، ولكن ما من كلمة أدت مفعولها حتى الآن. الكلمات كنقر المياه في الصخر إلا هذه الكلمة فقد كان لها وقع الفأس. لقد سمعوها مراراً في الأيام الغابرة عندما كانوا صغاراً. عندما كانوا يطلبون إذناً للتبول، فكان يقال لهم: «سكوت». أما الآن فهم يطلبون إذناً للحياة.

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، الفترة التي لا تمت إلى الزمن بصلة. ودباح والفهد والبدوي والرياضي وكل الذين ضلوا في الصحراء المحرقة، يقفون الآن بكل مرارتهم وجوعهم وعبوديتهم على الحافة تماماً كما تقف العصافير على أسلاك الهاتف استعداداً للتحليق. الثالثة بعد الظهر... الوقت العجوز الأحدب، الوقت الذي يفترق فيه الأطفال عن الموائد وتغلق الحوانيت... الوقت الذي ينام فيه الأطفال على دفاترهم والتجار على موازينهم، وتستلقي فيه العائلات السعيدة على الحصر والأرائك... الوقت الذي يخلع فيه الطاغية بزته، وتخلع المرأة مشدها، والأب طاقيته وسترته، تحاشياً ضرورياً لهذه اللقمة الفاسدة من مائدة الحياة. كان يوماً آخر من الشرق. إنه هنا يأخذ مجده، ويتطاول كملاكم محترف بين حفنة من الأطفال. إنه هنا عطر وربيع وغبار وجنس، يذكرك دائماً بأنك ولدت ذات يوم، وضحكت ذات يوم، وعليك الآن أن تتعهد بأن لا تضحك ولا تولد مرة أخرى إلا بإذن خاص كما تتعهد بأن لا تمشي على الرصيف ولا تدخن قبل الإفطار.

«ـ سكوت. كل من يسمع اسمه، يجمع ثيابه ويقف أمام الباب».

كان الشرطي ذو الأسنان الصفراء والفم الكريه هو الذي قال ذلك. ومع ذلك رأى السجناء أن فمه أجمل من فم فينوس في تلك اللحظة وهم يرقبونه بعيونهم الجاحظة إلى درجة جعلت البدوي يمسح عينيه بأصابعه

أكثر من مرة ليتأكد من أنهما لم تطيرا بعد من وجهه. أما الفهد فكان يهتز من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه وهو يتأمل فم الشرطي بينما يداه تقلبان الأوراق. أما دباح فقد كان أكثرهم هدوءاً واتزاناً نظراً لمروره أكثر من مرة في مثل هذه المواقف، وإن كان يمكن القول إن نصفه الأسفل كان لا يهتز فقط بل يرقص. أما الرياضي فكان يقف كرياضي بجوار البدوي وكأنه يقول: أليس من العار أن يبقى هذا الجسم حبيس القضبان؟

وأشعل الشرطي لفافة، ونفث دخانها وهو يهز رأسه لشخص ما كان يوشوشه باسماً بينما الجميع يرمقونه بذات العيون المشدوهة ويمدون أعناقهم وهم في أماكنهم كأنهم يريدون قراءة أوراقه مباشرة.

«ـ فهد التنبل... دباح الشاويش... نايف أبو عطية... راجي زكور... محمود القش... ».

«ـ حا... حا... ضر... ».

وقفز الفهد إلى أعلى وإلى أسفل، وأخذ يدور كالمروحة في جميع الجهات بحثاً عن أغراضه، ثم وضعها تحت إبطه ووقف عند الباب، ووقف خلفه دباح والرياضي ونايف والأربعة الآخرون.

ومع أن الشرطي قد أعاد الورقة إلى مصنفه، وأخذ يعد المطلق سراحهم إلا أن البدوي كان لايزال واقفاً منتظراً اسمه، ولكنه عندما أدرك الحقيقة، أسرع إلى الشرطي وسأله: «وأنا؟ لم يطلع اسمي».

«ـ لم يطلع. عد إلى مكانك».

«ـ لقد خرج الفهد ودباح».

«ـ نعم خرجوا».

«ـ ولكن ذنبي ليس أكبر من ذنبهم».

ويبدو أن الشرطي قد تأثر لمنظره وبلاهته، فقال له: «لا تزعل... ستخرج غداً».

«ـ أقسم بشرفك».

«ـ قلت لك ستخرج غداً وأنا لا أمزح».

فقال بعض السجناء متملقاً الشرطي: «فعلاً إنه لا يمزح».

«ـ والآن بإمكانك أن تأخذ ما تشاء من الأغطية والصحون. ألم يعتقلوك أنت اعتباطاً؟».

«ـ نعم... نعم... اعتباطاً أو صدفة».

«ـ ولماذا اعتقلوك؟».

«ـ لا أتذكر... كنت أتذكر ذلك من أسبوع».

فقال بعضهم للبدوي وهم ينظرون إلى الشرطي كأنهم يقولون له: انظر كم نحن بجانبك: «كيف لا تتذكر؟ أمرك غريب. إنك غامض أكثر من اللازم».

فقال البدوي وراحتاه مفتوحتان: «لا أتذكر».

أما الفهد فقد كان صامتاً طوال هذه المدة وواقفاً كالصنم ووجهه إلى الباب. فقال الشرطي للبدوي: سأعود إليك عندما تتذكر».

ثم ابتعد بالسجناء وهو يزمجر كأنه تورط أكثر من اللازم في إنسانيته، فصاح به البدوي وراحتاه مفتوحتان: «ولكني لا أتذكر».

* * *

وأخيراً بعد عذاب لا يحتمل... بعد كثير من الشوق والخوف والقذارة والرعب أعطوا الفهد حريته وحزامه ومحتويات جيوبه، وعادوا إلى أوراقهم يتمخطون ويتثاءبون.

ورفع الفهد ذراعيه عند مدخل المدينة، وصفق بهما على فخذيه كنسر ركب جناحين جديدين، متوسلاً يقظة الجماهير، مؤكداً لها بعينيه

الزرقاوين أن السماء رائعة والأرض رائعة والسجون رائعة، وأن ما من شيء في العالم يوازي الخطوة الحرة وقراءة الجريدة وفصفصة البزر وإشعال اللفائف عند المنعطفات، ولكن من يصغي إلى هذا الرنين الطويل... من يفتح معطفه لهذه العظام المطروحة بكل بياضها وصلابتها للماء والريح؟

لا شيء يمنعه الليلة من أن يختبر العالم وحيداً... أن يتلصص على وفائه خلال الزحام، واندفع إلى أول هاتف في أول حانوت رآه، واتصل بغيمة، فأخبروه أنها قد سافرت إلى قريتها، فأغلق سماعة الهاتف بحنق، وأسرع إلى مكتب البريد، وأبرق إليها أن تحضر فوراً... أن تترك الملعقة من يدها وتطير إليه. ثم سار في الشارع وهو يفرك يديه بمرح متقدماً إلى مهرجان الأضواء.

كانت السماء تمطر والأرض تمطر. كان المارة يحملون المظلات فيما مضى. أما الآن فهم لا يحملون شيئاً، ويضعون أيديهم في جيوبهم ويسيرون ببطء على الأرصفة. كانوا ينظرون إلى السماء وهي تمطر. أما الآن فينظرون إلى جميع الجهات ما عدا السماء. كانوا يتحاشون الحفر في الطريق. أما الآن فهم يتعمدونها. كان سائقو الباصات يطلقون أبواقهم في الأماكن المزدحمة. أما الآن فيطلقونها في الأماكن الخالية. كان أصحاب الحوانيت يدفعون الزبون دفعاً إلى الداخل. أما الآن فيدفعونه دفعاً إلى الخارج. كانت المطاعم تزدحم بالأشخاص الذين لا يأكلون. أما الآن فهي مزدحمة بالأشخاص الذين يأكلون. كانت الأمهات يملأن الدنيا صراخاً وزعيقاً إذا عاد أطفالهن متأخرين. أما الآن فيملأن الدنيا صراخاً وزعيقاً إذا عادوا مبكرين.

وعندما استقل الفهد باصاً، ووجد السائق يقود الباص بيديه لا بقدميه، أدرك أن الدنيا لم تنقلب كلها، وأن بعضها مازال في وضعه الطبيعي وإن كان مهتزاً ومترنحاً.

لا لن يذهب الآن إلى المقهى حيث أصدقاؤه. سيترك هذه المفاجأة حتى منتصف الليل حين لا يكون مليئاً بما هب ودب ويضطر إلى استجواب متقطع لا ينتهي. سيفاجئ الجميع على دفعات.

***

كانت المدينة مقفرة في ذلك الليل الفاجع، وكتل الغيوم الكبيرة تتجمع وتفترق فوق الأعلام المبتلة بالأسى. إنه الوقت المناسب للذهاب إلى المقهى. سيكون موشكاً على الإغلاق. وفي أشنع الاحتمالات سيكون هناك عدد من الغرباء يلعبون الورق.

ودار الفهد حول المقهى أكثر من مرة محاولاً أن يستشف من خلال المارة المسرعين وانعكاسات المصابيح على الأرصفة القذرة ما إذا كان أحد من أصدقائه في المقهى. زرر سترته العتيقة، ودفع الباب الزجاجي بيده. لم يلتفت أحد فملأت الغبطة قلبه. جلس إلى أول طاولة، وأحدث ضجة في أثناء جلوسه، ولم ينتبه أحد. فملأ السلام قلبه.

دخل ثلاثة يعرف وجوههم جيداً. لم يلتفتوا إليه. ملأ الأسى قلبه، فتحرك في مقعده محدثاً ضجة إلا أن أحداً لم يلتفت. كان يريد أن يلفت انتباه النادل على الأقل كأنه يقول له: نعم... لقد خرجت... ألا تراني؟ ولكن النادل الذي يعرفه لم يكن موجوداً. كان هناك نادل آخر. ولوح له محاسب المقهى بيده. وبلغ سمعه حديث للثلاثة الذين يعرفهم:

«ـ أليس هذا فهد التنبل؟».

«ـ بلى».

«ـ تعالوا نسلم عليه».

«ـ أين كان؟».

«ـ في السجن».

وكان الفهد يتصنع الشرود وعدم الإصغاء إلا أن قلبه كاد ينفطر من الفرح، وشعر بأن الحياة جميلة كما هي ورائعة حتى عندما تكون مقطبة كالوحش.

«ـ الحمد لله على السلامة. متى خرجت».

«ـ اليوم».

«ـ إنك أصفر».

«ـ ولكن صحتك ليست سيئة على كل حال».

«ـ نعم ليست سيئة».

وتثاءب الرجال الثلاثة، وخرجوا من المقهى يودع بعضهم بعضاً. ثم جاء محاسب المقهى نحو الفهد وهو يتمطى متثائباً بعد أن أنهى حساباته.

«ـ متى خرجت؟».

«ـ اليوم».

«ـ إنك أصفر».

«ـ نعم أصفر».

«ـ لكل إنسان طريق في هذه الحياة. أغلق النوافذ جيداً يا ولد. كنت أعتقد أنك مسافر إلى القرية حتى سمعت بعضهم يتحدث عنك. لا لا تشطف الآن. دع ذلك للصباح. هل ضربوك حقاً؟ لا أظن. صحتك ليست سيئة. قلت لك لا تشطف الأرض الآن. ما هذا النوع من الخدم كأنك تخاطب حطباً. يريد أن يشطف الأرض عنوة».

وتثاءب المحاسب، ومضى ليلبس سترته استعداداً للذهاب، ثم وضع الخادم المكنسة في الزاوية، وأطفأ الأنوار، ولبس سترته، ونظر إلى الفهد كأنه يستفهم منه ما إذا كان يريد أن ينام في المقهى حتى يحضر له وسادة، فنهض الفهد، وزرر سترته، ودفع باب المقهى ومضى.

كانت الشوارع طويلة، وصلبة، لانهائية، تنبعث منها رائحة شواء بعيد، وكانت الهررة الضالة، المفتوحة الأفواه، تتشمم فضلات الزوايا وتموء مترنحة تحت أضواء النيون الغبراء.

ها هو الفهد وحيد ضد المدينة، وفي عينيه ملامح الغزو.

لكي تكون جراحك واضحة لا لبس فيها ولا إبهام، عليك أن تدفع جزية الدمار.

عليك أن ترفع حافة القبعة إذا كانت الندوب في الجبين، وتخبطها خبطاً في الشارع إذا كانت في قمة الرأس. يجب أن يرى الشعب الفرح والألم والحرية كما يرى الباص والهاتف والمئذنة. أما الجراح والإهانات الدفينة في الأعماق فإبرازها يحتاج إلى المهارة والصبر.

لقد ذهب وولى عهد البطل النظيف المعتكف، وجاء دور البطل الوحش... البطل الذي تتلألأ الجراح في رأسه. البطل الذي يتمخط في الشارع ويكسر مرفقه على حديد الحافلات... البطل المتسول الأحول الضائع... المغروس كالحربة خلفك وأمامك.

وهذا البطل المغروس كالحربة أمام الحقائق يحتاج إلى حشود وأساطيل، وإلى شوارع مكتظة وزغاريد يخرج معها دم الحناجر، وإلى خيول ودراجات وبيارق، وإلى رغيف ومأوى.

لو كان الفهد في القفار في هذه اللحظة لزحف على ركبتيه بين الصخور ورقد على هضبة قريبة من السماء، قريبة من الله، ليناجي حبيبته ووطنه. أما الآن في هذه الساعة الكئيبة من الليل فحبيبته نائمة ووطنه يشخر، وعليه وحده أن يبقى مستيقظاً، فلابد من كلب حراسة لهذا الشرق الذليل المنهوب... هذا الشرق الذي يرقد خارج لحافه، ومن صرته تشرب خيول الغزاة وتصهل.



في الشعر والمسرح نلتقي مع محمد الماغوط غاضباً ساخراً في الحوار، والصورة والحركة، في التعليق، والمشهد يظل محمد الماغوط يبتكر، ويتجاوز المألوف ليقدم لنا صوراً من عالمه الخاص جداً.

لوحة الغلاف للفنان: حيدر حسين
تصميم الغلاف: خالد سليمان
ISBN:2-84305-886-X
9 782843 058868